

لصوص المقابر..

رحلتي إلى وادي الملوك

فرانسين ماري دافيد

ترجمة: د. سمر منير

تقديم: أشرف العشماوي

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

لصوص المقابر

رحلتي إلى وادي الملوك

لصوص المقابر

رحلتي إلى وادي الملوك

تأليف: فرانسين ماري دافيد

ترجمة: د. سمر منير

تحرير: إيزيس عاشور

مُراجعةٌ لُغوية: سوسنة سيد

طبعة 2023

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2022/21023

الترقيم الدولي: 9789773197780



60 شارع قصر العيني – 11451 – القاهرة - مصر

ت: 27921943 (202+) – 27954529 (202+)، ف: 27947566 (202+)

www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف: بلال محمد

Original Title: BEI DEN GRABRÄUBERN: Meine Zeit im Tal der Könige by Francine Marie David

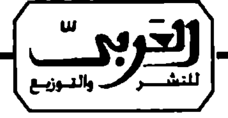
فرانسين ماري دافيد

لصوص المقابر

رحلتي إلى وادي الملوك

روايةٌ مِنْ سويسرا

ترجمتها عن الألمانية: د. سمر منير



بطاقة فهرسة

فرانسين، ماري ديفيد

لصوص المقابر: رحلتي إلى وادي الملوك: رواية من سويسرا/ فرانسين ماري ديفيد،

ترجمة سمر منير.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2022

ص؛ سم.

تدمك: 9789773197780

1- القصص السويسرية

أ- منير، سمر (مترجم)

ب- العنوان 849,43

مقدمة الروائي أشرف العشماوي

"لصوص المقابر" رواية متفردة، تحفر في العمق، وتغوص وتبحث عن المثير والمدهش وتتخلص من الزوائد والحشو باستمرار على مدار فصولها، تنتقي من بين عشرات الحكايات ما يجذب القارئ، ما يحفز تفكيره حول اختلاف الثقافات والحياة في صعيد مصر، عن لعنة قدماء المصريين والتنقيب عن الآثار، تتناول جانبًا غامضًا وجديدًا من حياة نسل لعائلة شهيرة في هذه التجارة وقت أن كان مسموحًا بها، وما طرأ على مجتمعها من تغيرات جذرية بعد تجريمها، عن تلك الشعرة الرقيقة الفاصلة بين الحفاظ على كنوز ومتعة اكتشافها وبين قوانين جامدة ولوائح صارمة تحرم وتمنع وربما تمنح بعض السلطة لمن لا يقدر قيمة كنوز مثل الذي اكتشفها وعرف طريقها ودروبها وحافظ عليها وعاش من خيرها لسنوات طويلة قبل أن تطوقه ذراع القانون الطويلة.

وإذا ما كانت الكثير من الروايات قد تناولت موضوع سرقة الآثار المصرية ونهبها وتهريبها، فإن المدهش والجديد في هذا النص الإنساني أنه جعلها في خلفية الحدث بحرفية بالغة، في حين تصدر المشهد صراع آخر بين الثقافات على أرض الحضارة - مصر - ببقعة صغيرة بعيدة أقصى الجنوب، ومشاهد رومانسية وأحاسيس إنسانية متباينة من خلال سرد سلس أقرب لمذكرات شخصية، أو يوميات امرأة قادتها المغامرة إلى مكان غريب عليها حتى صارت جزءًا منه دون أن تدري، مدفوعة بجرأة ونظرة

مختلفة للحياة، تتسع كلما أرادت منها المزيد من التشويق وكأنها تحمل مفاتيح الإثارة معها، وتتحكم في مصيرها قدر الممكن.

هذه رواية تنطوي على قصة حقيقية، ربما تداخل فيها خيال الكاتبة مع أحداث مرت بها لكنها رأتها أولًا بقلبها ثم بمشاعرها. وعندما تغلغلت بوجدانها، كتبت، نجحت في التعبير عنها بسلاسة وعفوية فجعلتها أقرب لواقع سحري مهما جنح بها الخيال، وفي حين أن قصة الرواية ربما تكون تكررت لدى كثيرين فإن القارئ العربي سيكون من المحظوظين عندما يقرأ هذه الرواية المتفردة تحديدًا مترجمة بلغته، ليضمن ساعات من التشويق والإثارة والمتعة ستدوم بعدها لفترات طويلة، بسبب صدق مشاعرها وإنسانية أحاسيسها المرهفة والتي دونت بصورة طبيعية بغير افتعال أو مبالغة.

أشرف العشماوي

روائي مصري

صيف 2022

مقدمة الكاتبة

يحكي هذا الكتاب عن قصة حب، نبعت من خلالها آلاف القصص. بدأ كل شيء بسلاسة برحلة إلى مصر. فجأة وقف أمامي رجلٌ كأنه كان ينتظرني. سرنا معًا لمسافة على الطريق، نحو عالمه، ولكننا سرنا أيضًا في الماضي بعمق أكثر. صادفتُ في الطريق معه - أي مع آخر سلالة من العائلة الشهيرة المزعومة بلصوص المقابر، ذات السمعة السيئة في وادي الملوك - علماء آثار وحفر جادين، محتالين ومخادعين، حقائق وأكاذيب وأساطير.

دخلت عالمًا مختلفًا، وشعرت فيه أنني في وطني وبدأت في استكشاف هذا العالم. بالتأكيد سيجد أولئك، الذين يعرفون ما كُتب عن وادي الملوك، شيئًا أو آخر يفاجئهم هنا. لقد جمعتُ الأمور الصحيحة على حد علمي، ووفقًا لما يُرضي ضميري على أكمل وجه. كما أنني أحكي أيضًا ما استطاع "أهل القرنة" أن يرووه، رغم صعوبة توجيه أسئلة لهم.

يراودني الأمل أن أحقق بهذا الكتاب بعضًا من العدالة المتوازنة، وأن أكون صوتًا لأولئك الذين انتموا لوادي الملوك عبر مئات السنين، كي أشكرهم أنهم استضافوني ومنحوني ثقتهم.

1
ركبت الزورق

لا أدري هل رأتني هي أولًا أم أنا من رأيتها. خنفساء كبيرة سوداء كانت في دورة المياه. اتجهت نحوي بشكل هددني، وكانت على استعداد للهجوم. تحركتْ قرون استشعارها مثل الهوائيات، وسجلت كل حركة من حركاتي. مشيتُ ببطءٍ تام إلى الخلف، نحو باب غرفة الفندق دون أن أرفع عينيَّ عنها، وفتحتُ الباب. ثم توجهتُ نحوها من جديد. مددتُ يدي اليسرى نحو المنشفة وحاولت أن أوجهها بها نحو الباب المفتوح. لكنها أفلتتْ إلى داخل الغرفة.

ركضتُ خلفها. كانت أسرع مني واختفت أسفل الفراش. وبالسرعة نفسها، ظهرت من جديد وانطلقت نحو حقيبة سفري التي كانت مفتوحة على الأرض. لكنها عندما اصطدمت بالحاجز، استدارت وجاءت نحوي مباشرةً. لقد صادفتُ في رحلاتي ثعابين وعقارب وعناكب سوداء في غرفتي. لكن لم تكن هناك أبدًا خنفساء، شعرتُ أنها تهددني، لأنها تريد أن تلعب معي. قفزتُ على الفراش ومن ثمَّ على حقيبة السفر، وحزمتُ على عجل أغراضي من جديد التي كنت قد أخرجتها من الحقيبة للتو. وأغلقتُ الحقيبة خوفًا من أن تختفي الخنفساء فيها. أعترف؛ لقد هربت إلى الشرفة ونويتُ أن أقضي الليلة بالخارج.

كان هذا بعد منتصف الليل بقليل. في مصر، في "الأقصر". كان هناك في حقيبة السفر مخطوط، بدأت الكتابة فيه عن «أبناء الآلهة». كنتُ قد سافرت من أجله بالفعل إلى بيرو وجواتيمالا والمكسيك. وددتُ أن أواصل كتابته في مصر؛ في البلد الذي ظهرت فيه قبل آلاف السنين «آلهة» من العدم.

نظرتُ إلى ما وراء النيل، إلى سلسلة جبال البر الغربي، نحو عالم الموتى، الذي يرقد فيه قدماء المصريين الذين أطلقوا على أنفسهم «أبناء» هذه الآلهة، في مقابر فاخرة لكي يسافروا في الرحلة النهائية إلى آبائهم في العالم الآخر، في مواكب كبيرة بصحبة الذهب والحُلي وكل ما كانوا يحتاجونه في الرحلة إلى مملكة الموتى. كانوا قد تركوا وراءهم ثروتهم بأكملها، وصورًا لرؤيتهم للحياة الأبدية.

انبعث من أسفل، على الكورنيش، أي الشارع الواقع على طول النيل، صوت أبواق السيارات وطقطقة سنابك خيول عربات الحنطور المُسرِعة. كانت الأصوات مثل الموسيقى في أذني، وكنت قد اعتدت من رحلاتي السابقة إلى مصر على النشاط الكبير ليلًا. وددتُ في هذه المرة أن أبقى شهرًا في مصر. كنت قد اخترت هذا الفندق، لأنه يقع بجوار معبد "الأقصر" مباشرةً وبالقرب من الزورق (المعدية) المؤدي إلى وادي الملوك غرب النيل. فندق ثلاث نجوم، لا يستحقها، إلا لو احتسبنا نجمتين لأنه يطل على النهر المقدس وسلسلة جبال البر الغربي، عالم الموتى عند قدماء المصريين.

ما زلت أشعر بالغيظ من سائق سيارة الأجرة، لأنه طلب كثيرًا من المال من أجل الانتقال من المطار إلى الفندق، كثيرًا جدًا أكثر مما ينبغي. كنت بالطبع قد اتفقت على السعر قبل أن أستقل السيارة. أعرف أنه يجب فعل

ذلك! كان الجو ما زال حارًا بشكل خانق، وقد تجاوز السائق كل ما جاء أمامه في الطريق في حركة المرور القاتلة، فقط من أجل أن يظل واقفًا عند محطة وقود ذات رائحة نتنة ويثرثر إلى ما لا نهاية. عندما وصلت أخيرًا إلى الفندق، كان السعر قد تضاعف ثلاث مرات. ساومته لأخفض السعر إلى ضعفين واستسلمت ودفعت.

قادني سلم عالٍ إلى مدخل الفندق. ما من أثر قريب أو بعيد لصبي ليحضر أمتعتي، ولذلك كان عليَّ سحبها بنفسي إلى بهو الفندق. كانت، على كل حال، حقيبة سفر سوداء كبيرة ذات عجلات، وحقيبة سفري، وحقيبة الكاميرا؛ وبها كاميرتان قديمتان ثقيلتان معدنيتان من طراز "نيكون"، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من عدسات الكاميرات الأمامية، واللاب توب الخاص بي.

كان الحارس الليلي يرتدي جلبابًا، ذلك الزي الرجالي التقليدي، الذي يبدو مثل قميص نوم. كان ينظر بتركيز شديد إلى التليفزيون. أظهرت نفسي أمامه. دفع دفتر التسجيل نحوي دون أن ينطق بكلمة، ودفعتُ إليه بجواز السفر، ثم دفع لي بمفتاح الغرفة. سألت عن المصعد. أشار بذقنه إلى زاوية البهو والتفت من جديد نحو جهاز التليفزيون.

كنت قد قطعتُ طريقًا طويلًا. إذ سافرت لعشرين ساعة من قريتي في جبال "بيرنيز أوبرلاند" إلى حرارة فرن ليل "الأقصر".

حاولتُ أن أجعل نفسي مُستريحةً قدر الإمكان في الكرسي البلاستيكي الأبيض. نظرتُ أعلى النيل أسود اللون نحو الأضواء عند سفح سلسلة جبال البر الغربي وأنا أستند بقدميَّ الحافيتين إلى سور الشرفة، وبرأسي

إلى السور. كانت أضواء "القرنة": القرية الأسطورية للصوص المقابر. المنازل المبنية من الطوب الطيني تقع على قباب المقابر الخاصة بكبار موظفي قدماء المصريين. تعيش في هذه القرية عائلة "عبد الرسول" المزعوم عنها سمعة سيئة، وأنهم "أكبر عائلة لصوص مقابر في مصر!". يرد ذكرهم في جميع البرامج الوثائقية عن وادي الملوك. وكان جميع علماء الآثار الكبار، ممن كتبوا عن انتصاراتهم في وادي الملوك، على علاقة بهم، حتى وإن لم يذكر بعضهم اسمهم وأخفى دورهم. وقد أورد "زاهي حواس"، مدير إدارة الآثار، لسنوات طويلة أيضًا ذكرهم مرارًا وتكرارًا في لقاءات إعلامية؛ سواءً في التليفزيون أم الصحف.

رأيتُ من شرفتي أيضًا المعبدين الجنائزيين المضيئين الخاصين بـ"رمسيس الأكبر" و"رمسيس الثالث". لم يثر هذان الحاكمان الفرعونيان اهتمامي كثيرًا مثل قدماء المصريين في الأسرة الثامنة عشرة. كان "أمنحتب الثالث" أول حاكم فرعوني يأمر ببناء قصر له في عالم الموتى، "قصر الشمس الساطعة". لم يتبقَ منه أي شيء تقريبًا. ولم يتبقَ من معبده الجنائزي أيضًا سوى تمثالي "ممنون". كانت الزوجة الملكية لـ"أمنحتب الثالث" سيدة ذات نفوذ كبير. إذ كانت تمسك بزمام العائلة والسلطة في يدها بإحكام، وكانت موضوعة في مصاف الآلهة شأنها في ذلك شأن زوجها. كانت تُدعى "تيي"، وهي جدة الملك الصغير "توت عنخ آمون".

في تلك اللحظة، داهمتني الرغبة في أن أذهب إلى الجهة الأخرى، وأن أنزل في فندق على الضفة الغربية لنهر النيل. أعجبتني فجأة فكرة العيش في مملكة الموتى، عن مقربة شديدة من المعابد ومن وادي الملوك. وقررتُ

أن أترك غرفتي في "الأقصر" للخنفساء إلى الأبد، أن أعبر النيل، أن أنتقل إلى هذا العالم الآخر.

أغمضت عينيَّ. كنت سأستطيع النوم أيضًا في كرسي بلاستيكي أبيض، لو تطلَّب الأمر ذلك. عندما استيقظت، كانت الشمس قد أشرقت بالفعل. الآن، عندما أصبحتُ في وضح النهار من جديد، كان شعوري بالفزع من هذه الخنفساء قد تبدد. ذهبت إلى دورة المياه دون أن أفكر بتاتًا في الخنفساء واستحممت. تحركتُ بعد تناول وجبة الإفطار إلى وادي الملوك في الجهة الأخرى.

تمايلت حقيبة سفري على رأس صبي شاب، سار أمامي، وتدلَّت حقيبتي الشخصية من يده. وقد علَّق اللاب توب الخاص بي على كتفه اليسرى. حملتُ بنفسي حقيبة الكاميرا فقط. فأنا لا أتركها أبدًا من يدي. عبرنا الشارع المزدحم بشدة بين الفندق ورصيف الميناء وهبطنا إلى مرساة السفن، نحو أحد القوارب الملونة بألوان زاهية. جلست على المقعد المكسو بامتداد القارب بقماش منقوش بالورود. أدار الصبي المحرك لكنه أصدر صوت ضوضاء بصورة مخيفة وانبعثت منه سحابة دخان ذات رائحة خانقة وتوقف من جديد على الفور. نجح الأمر في المرة الثالثة، أبحرنا ونسيتُ على الفور متاعب الليلة السابقة. صرت في نهر النيل، النهر المقدس! على طريق قدماء المصريين!

جلس الصبي مشدود الركبتين ملتصقًا بالمحرك. انطلقتْ موسيقى مصرية من جهاز تسجيل، استطاعت حتى أن تطغى على ضوضاء المحرك. نظرتُ باتجاه البر الغربي عبر الماء المتلألئ في شمس الصباح.

كنا القارب الوحيد وسط مساحة كبيرة من الماء. زاد هذا الأمر من سحر هذه الرحلة البحرية. لم يسبق لي، حتى ذلك الحين، أن عبرت نهر النيل سوى بالمعدية العمومية، ولم أحمل أمتعتي معي في أثناء ذلك أبدًا. فكرتُ بعفوية في وسط النهر: هذه هي نقطة اللا عودة. وددتُ لو مكثنا طويلًا في النهر المقدس، لكننا كنا قد عبرناه بالفعل تقريبًا؛ إذ أخذ الشاطئ يقترب ويقترب. ناور الصبي بمهارة وسط القوارب المربوطة ورسا عند جسر رصيف الميناء، بجوار أكياس الرمل التي كانت مثل رصيف لرسو القوارب. رفع حقيبة سفري على رأسه من جديد وعلَّق اللاب توب الخاص بي على كتفه اليسرى وأخذ حقيبتي في يده وتسلق الجسر. بذلتُ جهدًا من أجل الصعود.

من يعبر النيل عند "الأقصر" يدخل عالمًا مختلفًا. لم يكن من الممكن بعد رؤية أي سائح. كان هناك رجال يرتدون جلابيب ويقبعون بلا عمل ونساء يرتدين أزياء سوداء وينتظرن برزانة المعدية المتجهة إلى "الأقصر". ما من صرخات ولا صيحات كما هو الحال في الضفة الأخرى. ما من تلويح عنيف لسائقي سيارات الأجرة. مضى الصبي بأمتعتي نحو إحدى سيارات الأجرة التي تحمل اللونين الأزرق والأبيض والواقفة بجوار الجِمال. انطلق السائق من ظل كشك بيع تذاكر المعدية وألقى عليَّ التحية مغمغمًا، وفتح حقيبة السيارة ووضع أمتعتي فيها، ثم أمسك من أجلي بابها الخلفي من جهة اليمين، ثم سار حول السيارة وجلس إلى عجلة القيادة. سألني وهو ينظر في المرآة الخلفية إلى أين أريد أن أذهب، وعندما

أدار المحرك، دار على الفور جهاز التسجيل أيضًا. رافقت الموسيقى المصرية الرحلة عبر القرية المطلة على النيل.

كانت أبواب المتاجر المعدنية ما زالت مغلقة. وقد جلس رجال متفرقون على المقاهي الكثيرة في الشوارع وهم يدخنون الشيشة. سارت بضع نساء باتجاه المعدية وهن يحملن سلالًا على رؤوسهن. كان هناك نصف خروف مُعلَّق في خُطَّاف أمام الجزارة.

نقلتني سيارة أجرة القرية إلى طرف الصحراء، مرورًا بتمثالي "ممنون" العملاقين، نحو فندق "المرسم" الذي كنت قد انتقيته. وفقًا لدليل السفر، حجز علماء المصريات الفندق بالكامل في أشهر الشتاء، أما الآن فقد حلَّ فصل الصيف. وليست هناك أعمال تنقيب وحفر في فصل الصيف. يقع فندق "المرسم" خلف المعبد الجنائزي لـ"أمنحتب الثالث"، بجوار المعبد الجنائزي لـ"مرنبتاح" مباشرةً. وفي الجانب الآخر عند منحدر السلسلة الجبلية، تقع قرية لصوص المقابر ذات السمعة السيئة.

نزلتُ وصعدتُ بضع درجات من السلم، ومررتُ من بوابة وعبرت ممرًا طويلًا ووقفت في إحدى حدائق الجنة: أشجار بلح، شجيرات ورود متنوعة وطاولات طويلة ومقاعد ذات وسائد خضراء.. جلس إلى إحدى الطاولات مصريان وقد شربا قهوة تركية من أكواب زجاجية صغيرة.

نهض أحدهما واقفًا وأقبل نحوي وقدم لي نفسه باسم "تاجي". أراني "تاجي"، ذو الفجوة الكبيرة بين أسنانه والشعر المجعد بشدة، الغرفة ونادى على صبي لأخذ أمتعتي.

قدَّم "تاجي" لي "طايع" عند تناول القهوة للترحيب بي. تحدثنا بالإنجليزية ومن حين لآخر بالفرنسية، لأنني لا أجيد الإنجليزية بشكل جيد. كان "طايع" يرتدي جلبابًا. كان عليَّ أن أكف عن تسمية هذا الزي الرجالي الطويل بقميص النوم.

لم أكن، حتى ذلك الحين، أكترث سوى بالمصريين الذين يرجع تاريخهم إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف عام، ومُحنطين. لم يكن "طايع" قد بلغ ذلك العمر بعد، لكنه لم يعد شابًا أيضًا، إذ تخلل الشيب خصلات شعره. كان في وجهه شيء ما، أعجبني. لم أدرِ على وجه التحديد ما هو. لقد استحوذ عليَّ شعور مجهول. جذبني شيء ما بشكل سحري.

سألاني لماذا أتيت إلى البر الغربي. حكيت لهما عن مشروع كتابي عن الآلهة، وحكاية الخنفساء أيضًا. قالا:

- لم تكن خنفساء عادية.

وأضافا:

- كانت جعرانًا! خنفساء تابعة للآلهة! خنفساء تجلب الحظ! لقد جلبك هذا الجعران إلى هنا!

كانا جادين في حديثهما. كنت الوحيدة التي لم تتمالك نفسها أن تضحك من ذلك. وقالا لي بالعربية:

- مبروك!

وهو ما يعني بالألمانية: "تهنئة من القلب!" Herzlichen Glückwunsch!

ثم جاءت بعد ذلك الأسئلة النمطية الثلاثة التي لا مفر منها. أولها "هل أنتِ متزوجة؟". عندما أسافر بمفردي، أقول في هذه البلاد دائمًا إنني متزوجة رغم أنني لم أكن كذلك.

السؤال الثاني: "هل لديكِ أبناء؟".

كنت مستعدة لهذا السؤال أيضًا: "ولدان".

ثم جاء السؤال الثالث: "وأين زوجكِ؟".

كانت لديَّ إجابة على هذا أيضًا: "إنه في بلده. مضطر للعمل".

تحدثنا بعد ذلك عن شيء آخر. قلت إنني أريد أن أرى معبد "أمنحتب الثالث" «مَلِك شمس النيل». كان المعبد مغلقًا أمام السياح.

قال "طايع":

- لا توجد مشكلة.

وأخذ تليفونه المحمول من الطاولة واتصل برقم ما. نهض واقفًا بعد حديث قصير وقال لي:

- هيا سنذهب.

أخذنا سيارته القديمة ماركة "فيات" إلى المعبد المغلق. استقبلنا حارس عند الباب ذي القضبان وفتحه لنا. مجرد معبد صغير، التقطتُ بضع صور، ليس فقط للآلهة على الجدران، وإنما خلسةً لـ"طايع" في جلبابه الأبيض. أعادني "طايع" إلى الفندق، واتفقنا على اللقاء في المساء. فقد أراد أن يريني مطعمًا مطلًا على النيل، يمكن منه رؤية أضواء "الأقصر".

طلبتُ في الحديقة وجبة طعام خفيفة أخرى. في النهاية، ذهبتُ إلى غرفتي وخلعتُ ملابسي واستلقيت على الفراش. كان الجو حارًا خانقًا في هذه الغرفة والفراش صلبًا مثل لوح خشبي. كانت هناك مروحة تدور بوهن في السقف ولم تصلني نسمة هوائها. لم يكن من الممكن أن يتحمل أحد سوى علماء المصريات والآثار ذلك. فقد اعتادوا على الخشونة بسبب طبيعة عملهم القاسي في مقابر حارة بشكل خانق. جذبتُ السرير في وسط الغرفة أسفل المروحة.

فكرتُ في "طايع". ما الذي أعجبني في هذا الرجل؟ لم أعرف. وخلدتُ إلى النوم.

يبدو أنني لم أنم جيدًا على الكرسي في الليلة السابقة، وأنني نمت وقتًا قليلًا جدًا. فقد نمت ونمت حتى طرق "تاجي" على الباب وصاح:

- "طايع" ينتظرك.

لقد تأخرت.

استحممت باهتمام زائد، ووقفت أمام المرآة لوقتٍ أطول من المعتاد. هل الأفضل أن أترك شعري مسترسلًا أم أربطه؟ فجأة تحوَّل هذا الأمر ليصبح سؤالًا مهمًا للغاية. ربطته أعلى رأسي، لكن كان ينقصني مرآة ثانية في ظهري لكي أرى كيف بدا. ولذلك فقد فككته من جديد وربطته في مؤخرة رأسي.

اخترت سروالًا حريريًا أسود اللون فضفاضًا وخفيفًا وبلوزة تليق به، كادت أن تصل إلى ركبتيَّ. عندما نظرتُ إلى نفسي، وجدتُ أن مظهري بدا

احتفاليًا بشكل كبير جدًا، فخلعت ملابسي من جديد. مددتُ يدي نحو فستاني الطويل، الذي كان مثل المعطف، والمصنوع من قطن خفيف والذي كاد أن يبلغ الأرض من فوق السروال. وضعتُ في الكاميرا فيلمًا شديد الحساسية، واخترت عدسة مُقرِّبة ذات نطاق واسع. شعرتُ بالسعادة في أن أنغمس في الليل النابض، بصحبة أحدهم، فقد كان ذلك أمرًا لا يتأتى بسهولة لامرأة تسافر بمفردها.

كان "طايع" منتظرًا أسفل أشجار النخيل. كان يقف هناك دون حركة وقد اكتفى بأن يومئ لي.

مررنا بتمثالي "ممنون". كان هذان التمثالان الجالسان والبالغ ارتفاعهما ثمانية عشر مترًا يحرسان فيما سبق المدخل الأساسي للمعبد الجنائزي لـ"أمنحتب الثالث". رأيتهما للمرة الأولى ليلًا. عندما أُضيئا، بدوا أكثر إثارة للإعجاب من حالهما في النهار. أكثر سطوة. مثلما أمر "أمنحتب الثالث" بالكتابة على أحد الشواهد: **"عندما يراهما أحد في مكانهما، فإنه يبتهج كثيرًا لعظمتهما"**. لا أدري عما إذا كان الفرعون يقصد هذين التمثالين الضخمين أم لا، ففي عهده كانت هناك تماثيل أكبر منهما في معبد "الأقصر".

سادت حركة نشيطة في قرية "القرنة الجديدة"، تلك المطلة على النيل. إذ كانت المتاجر مفتوحة ومقاهي الشوارع تمتلئ برجال يدخنون الشيشة أو يشاهدون كرة القدم في التليفزيون. عندما وصلنا إلى النيل، بالتأكيد كانت معدية قد وصلت في تلك اللحظات قادمةً من "الأقصر"، فقد أقبلت علينا مجموعة من النساء يرتدين ملابس سوداء ويحملن في أيديهن

حقائب تسوق وسلالًا على رؤوسهن. بعد ذلك، أوقفنا السيارة في الفندق وصعدنا السلالم نحو المطعم في شرفة السطح.

لم أعد أذكر ما الذي صحت به. أظن أنه كان: "أوه، جميل! جميل جدًا!". أمامنا شريط من الأضواء، الأضواء الباهرة! برز معبد "الأقصر" المضاء بأضواء كاشفة من بينها على نحوٍ مهيب. وعلى يساره توهج معبد "الكرنك" كذلك منيرًا بكامل حجمه. أضاء فندق "وينتر بالاس" كذلك بشكل مثير للإعجاب. أضواء المساجد الزاهية أسطورية.. "الأقصر"، مدينة الضوء.

انعكستْ تحت أقدامنا صور السفن الفاخرة في نهر النيل، والتي تنقل سياحًا من أعلى النهر إلى "أسوان" أو نزولًا إلى القاهرة. تأرجحت المعديات المضيئة بأضواء ساطعة من ضفة لأخرى. بدت، على العكس من ذلك، قوارب الشحن المظلمة، التي كانت تتحرك ببطء في النيل ذهابًا وإيابًا، أقرب ما تكون إلى أشباح. وسط كل هذه الحركة، تلألأت القوارب الصغيرة الملونة بألوان زاهية، كنت قد عبرت النهر صباحًا في أحدها. ومن فوقنا تقوَّست أضواء النجوم والقمر التي أضاءتها أشعة الشمس من الجانب الآخر من العالم.

التقطتُ بضع صور فوتوغرافية أخرى وربما استطعت أن أقف لساعات عند سور الشرفة. جلسنا وواصلتُ النظر عبر النهر نحو البحر المضيء ولم أستطع أن أكتفي من المنظر.

طلب "طايع" نبيذًا مصريًا. سأل فجأة:

- منذ متى وأنتِ متزوجة؟

لم أكن مستعدة لهذا السؤال وكان عليَّ أن أمعن التفكير. ماذا عساي أن أقول الآن؟ كنت محتارة. هل يجب أن أظل متزوجة أم أقول له إنني لم أكن كذلك؟

نظر "طايع" إليَّ وانتظر ردًا. لكنني كنت ما زلت لا أدري ماذا ينبغي عليَّ أن أقول. في الحقيقة، لم أكن أريد أن أخدع هذا الرجل أكثر من ذلك. فقد كان مهمًا جدًا بالنسبة لي بشكلٍ أو آخر. وقلت ببساطة تامة:

- أنا لست متزوجة.

ساد الصمت للحظة طويلة. بدا كأن الوقت قد توقف. نظر إليَّ دون أن ينطق بكلمة. تُرى فيما كان يفكر؟ ثم قال:

- هل أنتِ لست متزوجة حقًا؟

قلت ببساطة مرة أخرى:

- لا.

ثم سأل:

- أليس لديكِ أبناء أيضًا؟

نفيت مرة أخرى.

وقال بعد ذلك بأعلى درجة من البساطة:

- سأتزوجك.

انتظرت أن يسألني عما إذا كنت أريد ذلك. لكنه لم يسأل.

وبالبساطة نفسها التي قال بها: "سأتزوجك"، أشعل سيجارة وناولها لي. أشعل لنفسه سيجارة أخرى. علامة حب؟

بينما كنا ندخن، قال:

- عندما أتيتِ إلى حديقة الفندق، قلتُ لـ"تاجي": "هذه زوجتي".

وقال إنه شعر بخيبة أمل عندما ذكرت أنني متزوجة ولديَّ أبناء. ثم تحدثنا عن أمور تافهة. لم أعد أذكر كل ما تحدثنا عنه. من وقت لآخر، كنا نجلس هناك دون أن نقول أي كلمة وننظر إلى أضواء "الأقصر" في الاتجاه الآخر.

حتى بدأ "طايع" فجأة في الحديث عن حفل زفافنا. كان قد تخيَّل كل شيء بوضوحٍ تام. قال إننا لن ندعو سوى أبناء عمومته وبعضٍ من أعمامه. كان يعرف أيضًا في أي مطعم، وما الأطعمة التي سيتم تقديمها.

- أريد أنا أيضًا أن أعرف ذلك!

- إنها مفاجأة لكِ.

كنت متطلعة للمعرفة بشكل غير عادي لكنني ما زال حبي للمفاجآت أكبر. لذلك لم أواصل توجيه الأسئلة.

ربما أسكن لديه بعد زواجنا. وضعت شرطًا أن يظل لي الاحتفاظ بمسكني في سويسرا، لأنني ما زال لديَّ كثيرٌ من الأعمال هناك، ووافق. لم يكن أمر الإنجاب يمثل مشكلة. فلم يكن عمري يسمح بالتفكير في إنجاب أطفال.

لم يكن منتصف الليل قد حل عندما أراد "طايع" أن يرحل. نظرتُ مرة أخرى عبر بحر الأضواء. لم نذهب إلى فندق "المرسم" كما توقعت، لكننا مررنا بمطعم بجوار معبد "الرامسيوم"؛ حسبما كان يُطلَق على المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الثاني". التقينا في الحديقة هناك باثنين من أبناء عمومته. قدمني "طايع" لهما، وذكر لي أيضًا اسميهما. لحسن الحظ، كان كلاهما اسمه "محمد". عندما وصل بعد ذلك أبناء عمومته تباعًا وعرَّفهم لي بأسمائهم، كنت أفضل ربما لو كان اسمهم جميعًا "محمد".. حكى لهم "طايع" شيئًا باللغة العربية. ثم قال لي:

- لقد أخبرتهم أننا سنتزوج غدًا.

كان من الجديد بالنسبة لي أننا سنتزوج غدًا. لِمَ لا؟ اندهشت من أمر نفسي. بدا كل شيء بديهيًا للغاية. احتضنني أبناء عمومته وقبَّلوني وهنأوني. ثم قبَّلوا "طايع" وربتوا على كتفيه وهنأوه كذلك.

بعد منتصف الليل بوقتٍ طويل، استلقيت من جديد على الفراش الجاف في فندق "المرسم"، في وسط الغرفة وأسفل المروحة. حاولتُ أن أرتب أفكاري. لا، لم يراودني شك أو تردد. راقت لي فكرة أن أتزوج "طايع". أن أكون متزوجة منه. هل أحببته؟ كان هناك شيء آخر أكثر من مجرد حب، افتتان مؤكد تمامًا. عندئذ أدركت فجأة ما هذا الشيء: إنها النظرة العتيقة في عينيه. نظرة عتيقة كأنها لماضٍ عميق. هل أحببته لهذا السبب؟

بدا لي مثل ذئب. ليس شريرًا، بل ذئبٌ بريٌ جامحٌ. يعرف الصحراء، لديه بعد نظر. لا يفوته شيء في الأفق ولا في كتل الحصى في الصحراء. يسجل كل حركة من مسافة بعيدة وكل توقف أيضًا. يختفي لأيام ويعبر

الصحراء وحيدًا وبمفرده ويقبع مع القطيع ذات ليلة من جديد. هل أحببت هذا الذئب فيه؟

دارت هذه الفكرة في رأسي واستولت عليَّ. فكرتُ في أن "طايع" لم يكن قد قبَّلني بعد. أقصد لم يُقبِّلني بمشاعر جارفة حقًا. لم أكن أعرف عندئذ بعد أن الرجال في مصر لا يُقبِّلون زوجاتهم على الملأ. دار برأسي في تلك الأثناء ما الذي ينبغي عليَّ أن أرتديه في حفل الزفاف. كان لديَّ في حقيبة سفري فستان مغلق من أسفل كأنه سروال، فضفاض، أبيض اللون، خفيف، مصنوع من الحرير الصناعي. قررتُ أن أرتدي هذا الفستان، بالإضافة إلى سترة حريرية سوداء، أي أنني سأتزوج مرتديةً اللون الأبيض.

سبق لي الزواج مرة بالفعل. كنت حينها ما زلت صغيرة السن للغاية. تعرفت على زوجي في برن. كانت نشأته ترجع إلى "زيورخ". كنا نريد أن نعيش معًا لكن هذا لم يكن مسموحًا آنذاك بعد في "زيورخ" دون وثيقة زواج. لذلك تزوجنا. كان يريد أن ينجب أطفالًا وكان حلمه الكبير أن يمتلك منزلًا. كانت لديَّ خطط أخرى، فقد كنت أريد أن أصبح مصورة صحفية ولم يكن الحال في "زيورخ" يروق لي أيضًا، ووددت أن أعود إلى برن. وقع الطلاق بيننا بعد عامين. لكن هذا كله كان قبل وقت طويل جدًا.

أخذت، لمدة تزيد عن عشرين عامًا، أكتب وألتقط صورًا فوتوغرافية، من أجل صحف. فيما بعد، أطارد السياسيين طوال عشرين عامًا. نجاحاتهم الانتخابية واستقالاتهم. انتصارات وهزائم في القسم الرياضي، كذلك حوادث، سيارات متصادمة، حرائق مدمرة، إسقاط طائرات عسكرية، سجون كان يقبع فيها إرهابيون. نجوم سينمائيون، كنت أتتبع

آثارهم عندما كانوا يقضون الإجازة في منطقتي أو كانوا في عيادة خاصة. أو حتى مجرد نقطة ماء ذات إطلالة مميزة في الصور، كصورة معبرة عن صيف ممطر.

ثم راودني الإحساس بأنني رأيت كل شيء وصوَّرتُه. بدأت أشعر بالملل وسط كل هذا الصخب. تراجعتُ إلى "بيتنبرج" في "بيرنيز أوبرلاند"، في المرتفعات. توليت إدارة المعرض الصغير الخاص بزوج والدتي، وبدأت أرسم من جديد وقرأت كتبًا بنهم. سافرت في رحلات أكثر فأكثر. اقتفيت آثار آلهة الحضارات القديمة. وقد قادني هؤلاء الآلهة الآن إلى مصر من جديد. ودفعوني إلى أكبر مغامرة في حياتي.

جعلت أحداث الأربعة وعشرين ساعة الماضية تدور أمامي مرة أخرى كأنها فيلم سينمائي. حشرة الجعران في غرفة الفندق.. عندما أتيتُ إلى المشهد، الذي التقيت فيه بـ"طايع"، اتضح لي فجأة أنني أدركت في لحظة ذلك اللقاء الأول أنني لن أمر بهذا الرجل مرور الكرام، سأخترقه.



2
موسم زهرة الياسمين

غلبني النوم في وقتٍ ما. عندما استيقظت، شعرت بفرط الإجهاد. كان الاستحمام بماء ساخن مفيدًا في أن تتحرر عضلاتي المنسحقة من عظامي المتألمة. بعد ذلك، جعلت الماء البارد ينساب فوقي لكي أشعر بالانتعاش.

وقف "تاجي" في الحديقة وألقى عليَّ التحية بالعربية قائلًا:

- مبروك.

كان يعرف بالفعل أنني و"طايع" سنتزوج. إذ كان "طايع" قد اتصل به في وقت مبكر من الصباح. كانت هناك صلة قرابة بين "تاجي" و"طايع". فقد كان جد "طايع" ابن عم جد "تاجي".

بعد ذلك جاء "طايع"، لم يكن يرتدي جلبابه وإنما كان يرتدي جينز أزرق وقميصًا. قبَّل جبيني وقال:

- حبوبة.

وهي كلمة تقترب جدًا من معنى «حبيب» أو «محبوب».

ذهبنا مع "تاجي" إلى فندق قدماء المصريين الذي كان من المفترض أن يقام فيه حفل زفافنا في ذلك المساء. كان الفندق يقع بالقرب من مدينة "هابو" حسبما كان يطلق على المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الثالث".

ناقش "طايع" و"تاجي" التفاصيل كافة مع مالك الفندق، رجل طويل قوي البنيان أصلع. كان اسمه "محمد" أيضًا لكنه لم يكن - على غير العادة - ابن عم "طايع" أو حتى أحد أقاربه الآخرين. كان من المفترض أن توضع كل الطاولات معًا في منتصف الحديقة. كان "طايع" يضع في حسبانه حضور من خمسة عشر إلى عشرين شخصًا. استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى اتفقوا على قائمة الطعام. جلست إلى جوارهم وشربت قهوة تركية ونظرت نحو السلسلة الجبلية في الاتجاه الآخر التي يقع وادي الملوك خلفها.

قال لي "طايع" في طريق العودة إننا لدينا موعد لدى المحامي في تمام الساعة التاسعة مساءً قبل الحفل وذلك من أجل عقد القران. انعطف "طايع" بصورة غير متوقعة عند التقاطع أمام الفندق إلى اليمين باتجاه النيل. تساءلت إلى أين سنذهب. قال إنه جائع. كنت جائعة منذ وقت طويل بالفعل. توقف "طايع" في "القرنة الجديدة" بجوار أحد أكشاك الطعام على جانب الطريق. نادى عبر نافذة السيارة المفتوحة، من فوق "تاجي"، للشاب بشيء ما. استطعت أن أرى من المقعد الخلفي كيف ألقى الفتى كرات اللحم ببراعة في مقلاة التحمير وهزها بقوة ثم قذف شطائر الخبز الصغيرة في كيس بلاستيكي ذي لون أخضر فاقع وأعطاها عبر النافذة لـ"تاجي" الذي ناولها لي نحو الخلف. كان الشاب يقلب كرات اللحم الخاصة بنا ذات الرائحة الطيبة بشكلٍ مغرٍ في المقلاة بينما أخذ يثرثر مع رجال كانوا منتظرين كذلك. انتظرنا. أفرغها أخيرًا من مقلاة التحمير على صحيفة

كانت ملقاة بجوارها مباشرةً وأضاف حزمة من بصل أبيض طازج ذي سيقان خضراء وأعطاها لـ"تاجي" الذي ناوله المال.

عدنا من جديد للسير بالسيارة في الهواء الطلق، خطر ببال "طايع" أنه يجب أن يطلق عليَّ اسمًا آخر. فمن المعتاد في مصر أن يطلق الرجل على زوجته المستقبلية اسمًا جديدًا قبل الزواج. التفت "طايع" قبيل تمثالي "ممنون" نحوي بالخلف ونظر لي بوجه متهلل - رغم أنني لم أرَ عينيه، فقد كان يرتدي نظارة شمس - وقال:

- "ياسمين"!

منذ ذلك الحين فصاعدًا، كان ينبغي أن يصبح اسمي "ياسمين"، اسم إحدى الزهور.

عدنا إلى حديقة الفندق، نزع "تاجي" اللفافة عن كرات اللحم الخاصة بنا ودفع بالصحيفة، التي كانت كرات اللحم موضوعة عليها، نحو منتصف الطاولة. كانت كرات اللحم متبلة تتبيلة حارة للغاية وكان البصل المضاف إليها منعشًا.

بعد تناول الطعام، أخذتُ قيلولة لكي أكون منتعشة في حفل الزفاف في المساء. كان الهواء متوهجًا ولم تكن الغرفة أكثر برودة بكثير. أثقل النوم جفوني على الفور. لم أستيقظ إلا عندما طرق "تاجي" الباب في الساعة الثامنة والنصف. كان عليَّ أن أسرع.

غسلت شعري رغم أنني كنت متأخرة. فقد كنت أريد أن أجعل شعري الطويل مسترسلًا من أجل الحفل. كان من الممكن أن يجفف الهواء شعري

في الطريق إلى المحامي. ارتديت فستاني الأبيض والسترة السوداء وحذائي ذا الكعب العالي ونثرت ماء العطر على جسدي وخرجت. كان "طايع" يرتدي جلبابًا أسود وبدا باهرًا فيه. كنت مضطربة بعض الشيء.

كان مكتب المحامي يقع في منزل خلف المعبد الجنائزي لـ"سيتي الأول". كان المحامي، وهو رجل طويل قابع خلف مكتب فخم، يرتدي بدلة وربطة عنق. تبادل "طايع" والمحامي القبلات وربتا على كتفي بعضهما. اكتفى المحامي بمصافحتي. كان عليَّ أن أقدم له جواز سفري ومنه نقل المحامي اسمي. جلسنا على الكرسيين المُنجَّدين أمام المكتب واللذين كانا موضوعين بطريقة تجعلنا أنا و"طايع" نجلس متقابلين. تحدث الرجال معًا ودوَّن المحامي ملاحظات. لم يعد المحامي يبالِي بي منذ إلقاء التحية. ثم التفت إليَّ وسألني بالإنجليزية هل أنا متزوجة. نفيتُ ذلك. وسأل عن المذهب الديني الذي أعتنقه، فقلتُ:

- لا يوجد.

لم يرغب في معرفة المزيد مني. لم أعد أعتنق أي مذهب ديني منذ وقت طويل بالفعل. لم أستطع أن ألتزم بأي منها. كان جدي يهوديًا. واعتنق أبي المذهب الإصلاحي البروتستانتي. كان زوجي الأول كاثوليكيًا. والآن زوجي الثاني مسلم.

عندما عدنا إلى السيارة، سألت "طايع" هل أصبحنا عندئذ متزوجين. قال:

- ليس تمامًا بعد.

وأضاف أن المحامي سوف يحرر عقدًا ويجب علينا غدًا أن نمضيه. كما يجب أن توافق السلطات عليه. وبعد ذلك سوف نحصل على وثيقة الزواج. مسألة شكلية محضة.

ذهبنا إلى الحفل وكان بانتظارنا تصفيقٌ وصيحات التهنئة. كانت هناك باقة كبيرة في منتصف الطاولة المغطاة بشكلٍ احتفالي؛ زهور ياسمين! كانت الحديقة مفتوحة على الصحراء. هبَّت ريح خفيفة وداعبت أوراق النخيل وجلابيب الرجال التي رفرفت على أجسادهم. دوَّت أغاني حب مصرية من مكبر صوت.

كان "طايع" قد وجه الدعوة، في الحقيقة، للرجال فقط؛ أبناء العمومة والأعمام فحسب. كنت أعرف بعضهم من المساء السابق لكن جاء المزيد بالإضافة لهم. وجوه جديدة، أسماء جديدة، وقد وضعوا جميعًا أقمشة ملونة على رؤوسهم. عانقوني وقبَّلوني بمشاعر جارفة ورحبوا بي في العائلة. «مبروك!»، مرارًا وتكرارًا «مبروك!».

كان عليَّ أن أجلس على رأس المائدة. بدأ أبناء العمومة الجالسون أحاديث مفعمة بالحيوية وقالوا لبعضهم دعابات بصوتٍ عالٍ وضحكوا ودخنوا وشربوا بيرة. ثم أحضر الفتية قدورًا الواحد تلو الآخر وسلطانيات الواحدة تلو الأخرى وصحونًا الواحد تلو الآخر، ممتلئة بأطعمة مصرية طيبة المذاق. صعدت روائح طيبة إلى أنفي. مدَّ الرجال أيديهم إلى الطعام دون أن يقطعوا أحاديثهم. كانوا، في الواقع، يتناولون الطعام بأيديهم لكنهم استخدموا في هذا المساء سكاكين وشوكًا. أخذ "طايع" يضع لي مرارًا وتكرارًا أصنافًا جديدة من الطعام في الطبق. فقد كان يرغب في أن أجرب

كل الأطعمة. الحمام المحشو بالأرز والدجاج بصلصة الطماطم الحارة ولحم الخراف المطهو كيخني مع البطاطس. كان عليَّ أن أتذوق أيضًا الصلصاتَ التي يغمس الناس الخبز فيها. كان المذاق شهيًا! شهيًا! شهيًا!

جلس العم "نوبي" إلى يساري. كان أكثر شبابًا من "طايع" رغم أنه عمه. إذ إنه أصغر أشقاء والد "طايع" سنًا. كان العم "نوبي" يمتلك مصنع "ألابستر"؛ الرخام الأبيض. اضطررنا لأن نعده بأننا سوف نمر عليه غدًا ونراه. وعدناه بذلك لكن "طايع" قال بالإضافة إلى ذلك: «إن شاء الله!» وهي ما تعني شيئًا أقرب إلى معنى «إذا أراد الرب!» وتعني أيضًا «ربما» فقط.

بعد تناول الطعام، صار الرجال أكثر حيوية وصارت أحاديثهم وضحكهم أعلى صوتًا. أحيانًا كان يراودني الشعور أنهم ربما كانوا يوجهون السباب لبعضهم، أو حتى يتشابكون. لكن الأمر بدا هكذا فحسب. فقد ضحكوا كثيرًا، شربوا خمورًا كثيرًا، دخنوا كثيرًا.

كان الصباح قد بزغ بالفعل عندما مررت أنا و"طايع" بفندق "المرسم" حيثما كانت أمتعتي لا تزال موجودة. انعطف "طايع" في جهة اليمين، في مكان ليس ببعيد كثيرًا عن الفندق، في طريق ترابي صغير ضيق مائل قليلًا. أوقف "طايع" المحرك وجعل السيارة تتدحرج دون أن تحدث صوتًا. وانعطف إلى فناء خلفي وسط منازل مبنية من الطوب الطيني ومكونة من طابقين وأوقف السيارة. توقفنا بالسيارة بجوار أطفال ينامون في الخلاء. كانت أسرَّتهم مُرَّتبة على نحو جعلها تحتل مساحة

كبيرة، نام عليها الأولاد والبنات، صغارًا وكبارًا، بالطول والعرض، متقاطعين بعضهم مع بعض. كانوا أبناء الجيران.

فتح "طايع" بخفة بوابة خشبية وأغلقها برفق من خلفي. فقد كان يريد ألا يوقظ الأطفال. كنا في فناء خلفي ثانٍ أصغر. كانت هناك دراجة بخارية زرقاء اللون بجوار باب أحد المنازل. بدا في الركن الخلفي تمامًا باب آخر، الباب المؤدي لشقة "طايع".

مشينا في ممر مظلم. ساد الظلام الدامس ولم أرَ شيئًا. فقد كانت الإضاءة تالفة. أخذني "طايع" من يدي وذهب بي نحو سلم مؤدٍ إلى أعلى. كان السلم منعرجًا جهة اليمين. لاح بصيص من ضوء النهار وبعد ذلك صرنا نقف في الهواء الطلق أمام باب منزله.

فتحه "طايع" وقال بالإنجليزية:

- أهلًا بكِ في المنزل.

لم يكن قد حكى لي أنه يسكن في سطح أحد المنازل. في شرفة السطح! كان من الضروري أن يكون هذا الأمر مفاجأة بالنسبة لي! كانت هناك منضدة وكراسي في المنتصف، وحجرتان يمينًا، والمطبخ يسارًا. خلافًا لذلك، ما من شيء سوى السماء، الهواء الطلق. فتح "طايع" إحدى الحجرات. غرفة، احتل التليفزيون المساحة الكبرى منها بسبب حجمه وكان جهاز التكييف فيها يصدر صوت ضجيج. أوضح "طايع" أننا سوف ننام اليوم في هذه الغرفة، لأن الجو في الشرفة يكون ساخنًا بشدة في

النهار. لكن خلافًا لذلك سوف نبيت بالخارج. أسفل سماء مصر. أسفل نجوم الكون.

صرنا بمفردنا للمرة الأولى. نحن الاثنان فقط. أدركت في تلك اللحظة فقط أننا متزوجان ونخص بعضنا بعضًا. سنقف أمام بعضنا عراة. وماذا بعد؟ كان واقفًا عندئذ وما من شيء فوقي سوى سماء، هواء طلق.

وبعد ذلك، قال "طايع":

- الآن هذا يعد منزلك أيضًا.

فجأة، أصبح لديَّ منزل في مصر. في البر الغربي في "الأقصر". في مملكة الموتى من قدماء المصريين، على مقربة شديدة من المعابد ووادي الملوك.

جلسنا في الشرفة وتجاذبنا أطراف الحديث. أظن أن كلينا كنا مرتبكين. لاحظتُ الرمل الذي تراكم على جدار المنزل وتكوَّم في الأركان. رمل، رمل في كل مكان. لم يكن مثل الثلج الذي ذاب في الشمس. حكى لي "طايع" كيف يتجول، يكون هنا وبعد ذلك هناك من جديد، إلى حيث تحمله الرياح. أحبُ الشواطئ الرملية وأحبُ الصحراء. لكنني كنت مضطرة للاعتياد على وجود رمل في المنزل، في الغرفة، أسفل الفراش.

خلعتُ حذائي. نهض "طايع" واقفًا وقال:

- يمكنكِ أن تذهبي أولًا إلى دورة المياه.

لا بد وأنه قد فهم نظرتي، ثم أحضر أحد جلابيبه وألقى بها لي.

- ارتدي هذا هنا.

كان مقاس الجلباب أكبر من مقاسي بكثير وأطول بكثير على وجه الخصوص. كنت مضطرة لأن أرفعه لكي أستطيع أن أسير وأنا أرتديه.

سمعت كيف دبَّ النشاط في الحياة من حولي. سمعت كيف صرخ الأطفال وكيف صرخ بعض الناس في وجوههم. استلقيت في الفراش وانتظرت "طايع". دار في رأسي أن النوم سيفوتنا في اليوم الأول من زواجنا. كنت مُتعبَة ومنتبهة بشدة رغم ذلك. كان كل شيء مثيرًا للغاية.

جلسنا من جديد على الكراسي المُنجَّدة قبالة بعضنا لدى المحامي. ومن خلفنا الشاهدان على عقد الزواج، اثنان من أبناء العمومة على كراسي مستندة إلى الحائط. لم أكد أتعرف عليهما مرة أخرى. إذ كانا يرتديان بدلتين داكنتي اللون وربطتي عنق. كان "طايع" أيضًا يرتدي بدلة، لونها أزرق سماوي. كان "طايع" قد أثار إعجابي أكثر عندما ارتدى الجلباب الأسود في حفل الزفاف.

تلا المحامي الوثيقة باللغة العربية. ثم سأل "طايع" عن شيءٍ ما. قال "طايع" (باللهجة المصرية):

- أيوة.

وهي ما تعني بالألمانية «نعم». لم يوجه لي أي سؤال. نهضنا جميعًا واقفين من أجل الإمضاء. وقَّع "طايع" من اليمين إلى اليسار. وأنا من اليسار إلى اليمين. التقى توقيعانا في المنتصف.

عندئذ صرنا متزوجين بالطريقة الصحيحة. حتى وإن كان من دون التعبير عن الإيجاب ومن دون عبارة «حتى يفرقكما الموت» ودون عبارة

«يحق للزوجين الآن أن يقبلا بعضهما بعضًا» ومن دون تبادل الخواتم. عندئذ خطر ببالي أننا ليس لدينا خواتم! لقد نسينا هذا الأمر تمامًا.

في الطريق إلى المطعم المجاور لمعبد "الرامسيوم"، حيثما أردنا أن نحتفل بالتوقيع، قلت لـ"طايع" إننا قد نسينا أن نشتري خواتم. اكتفى بقول:

- بكرة، إن شاء الله.

كان الطقس في اليوم التالي حارًا بشكل بالغ. خمسون درجة مئوية في الظل بالتأكيد. كان الجو بالنسبة للجميع حارًا جدًا أكثر من اللازم. بقينا طوال اليوم في المنزل. حتى أنني غفرت لجهاز التكييف أن صوته كان عاليًا للغاية.

شعرت بالجوع بعد غروب الشمس. كانت الثلاجة خاوية تمامًا إلا من بضع زجاجات مياه معدنية، وموادي الفيلمية التي يجب تخزينها في الثلاجة في البلدان الحارة. لم أجد في خزانات الطعام أيضًا شيئًا يمكن أكله. لم أكن أتوقع أن أجد مكرونة سباجيتي لكن على الأقل أرزًا. لكنني لم أجد شيئًا! لا شيء على الإطلاق! قلت هذا لـ"طايع".

توجه إلى سور الشرفة وصرخ نحو أسفل حيث الفناء الخلفي. ثم سمعته يتحدث مع شخص ما. أدركت صوت زوجة أخيه. كانت تسكن في الشقة السفلية. كانت الدراجة البخارية الزرقاء المتوقفة أمام الباب تخص زوجها شقيق "طايع". كان زوجها حارسًا في معبد "رمسيس الأكبر".

بعد ذلك بقليل، طرق أحدهم على الباب عند نهاية السلم. ألقى "طايع" على جسده العاري جلبابًا، وأغلق باب الغرفة بسبب جهاز

التكييف. سمعته يتحدث ثم ينادي بأنني ينبغي أن أفتح الباب. جاء ومعه صينية كبيرة عليها سلطانيات وأوانٍ وأطباق بها أرز ودجاج محمر وقِدر به فاصولياء بنية اللون وصلصات مختلفة وخبز. أحببت الفاصولياء البنية! فهمت عندئذ أنه لم تكن هناك أطعمة مُخزَّنة. كما أنني لن أحتاج أن أطبخ مع زوجة أخ مثل هذه. لكن "طايع" وعدني بأن يعد الطعام من أجلي منذ ذلك الحين فصاعدًا.

بعد ذلك بيومين، وقع أول خلافاتنا الزوجية. عرفت فيما بعد أنه لم يكن هناك مفر منه. لكن في الواقع، كانت مجرد مشاجرة بسبب الغيرة. فنظرًا لكوني مصورة فوتوغرافية، كنت أحمل دائمًا معي كاميرا أو اثنتين. وأينما وُجِدتُ، أصور الناس. جلسنا في هذا الصباح مع أحد أبناء عمومته في مقهى من مقاهي الشوارع. صوَّرت ابني العم وهما يتحادثان حديثًا ممتعًا، وعندما أحضر الصبي لهما القهوة. من حولنا حركة نشيطة، صياح، صوت أبواق سيارات. تعالت من المقاهي موسيقى عربية. رفعتُ الكاميرا، مرارًا وتكرارًا، التقطتُ صورًا خاطفة. سيدة متدثرة باللون الأسود تجر في يدها فتاة صغيرة ترتدي تنورة قصيرة ملونة بألوان زاهية. رجل معه حزمة من الصحف على رأسه، اشترى ابن العم واحدةً منها. عربة يجرها حمار وبها جبل من العشب وبالأعلى تمامًا كان هناك فلاح. وأكثر من ذلك بكثير.

بمجرد أن صرنا في المنزل، بدأت المشاجرة. لماذا صورت هذا الصبي؟! لماذا صوَّرت كل أبناء عمومته؟! لماذا صوَّرت كل رجال العالم؟! بدا أن "طايع" قد نسي أنني صورت أيضًا الآلهة على جدران المعابد، التي وددت

عندئذ أن أستغيث بها. تطور الأمر لدرجة أنه نسي نفسه وصرخ في وجهي باللغة العربية. ربما كان من الأفضل أنني لم أفهم شيئًا. لم أغضب منه. لكنني لم أكن أفضل فقط أن يصرخ أحد في وجهي. ولذلك تملك مني الغضب أيضًا. وصرخت في وجهه بلهجة مدينة برن. سألني ما الذي قلته. ما إن تمالكنا أنفسنا، ضحكنا. منذ ذلك الوقت، صرت أتجنب الرجال عندما ألتقط صورًا فوتوغرافية. لم أكن أُفضِّل أيضًا لو احتفى "طايع" بنساء العالم كافة وبفتيات صغيرات. حتى أنني كنتُ في بعض الأحيان أترك كاميراتي في المنزل.

ذهبنا في عصر ذلك اليوم إلى "الأقصر" لنشتري خاتمي زواجنا.

كان ينبغي ألا يكونا عاديين. تمنيت خاتمين ذهبيين مرصعين بحجر كريم. قررنا أن يختار "طايع" خاتمي وأنا أختار خاتمه. كان ينبغي أن يكون الحجر وحده متشابهًا في الخاتمين. لم يكن القرار سهلًا علينا. كان "طايع" يريد أن يهرب من حين لآخر باختيار خاتم من الفيروز. أصررتُ على حجر اللازورد. اتخذنا قرارنا بعد كثير من عبارات «لا، هذا لا يعجبني، هذا كبير جدًا بالنسبة لي، الحجر صغير جدًا أكثر مما ينبغي». اشترى لي "طايع" أكثر خاتم أعجبني واشتريت له أكثر خاتم أعجبه.

اتصلت به إحدى شقيقاته عندما كنا لا نزال في "الأقصر". كان لـ"طايع" خمس شقيقات، بالإضافة إلى ثلاثة أشقاء. دعتنا شقيقته لتناول الشاي. كانت تريد بالتأكيد أن ترى زوجته الجديدة.

كانت شقيقته تسكن في القرية الجديدة بالقرب من النيل، في منزل من طابقين وبه حديقة ممتلئة بأشجار الليمون. اكتشفتُ أنا وشقيقته

ضاحكتين أن كلتينا لديها فجوة الأسنان نفسها في منتصف الأسنان الأمامية. كانت والدة زوجها موجودة هناك أيضًا. امرأة عجوز بدينة! تتشح باللون الأسود، إذ كانت تلف قطعة قماش سوداء كبيرة حول رأسها وكتفيها. عند إلقاء التحية عليَّ، ضمتني إلى ثدييها الكبيرين بقوة بالغة، وجلست قبالتي في أثناء شرب الشاي. وفجأة، عندما نظرتُ باتجاهها، دفعتْ غطاء رأسها جانبًا؛ ظهر الذهب الذي كانت ترتديه بصورة تخطف الأبصار! ليس فقط أقراطًا كبيرة متدلية من أذنيها وإنما أيضًا سلاسل، الكثير منها! أغلقت من جديد على الفور الغطاء أعلى حُليِّها. يبدو تمامًا أنها كانت ترغب في إظهار ثروتها لي.

يا له من أسف بالغ أنني لم أستطع أن أتجاذب أطراف الحديث مع السيدات. إذ إنهن لم يكنَّ يُجِدن لا الإنجليزية ولا الفرنسية. وهناك أسئلة لم يكن من الممكن طرحها بالإشارة بالأيدي أو الأقدام. كنت لا أجيد التحدث بالعربية سوى بقول "نعم" و"لا" و"من فضلك" و"شكرًا" و"نهارك سعيد" و"كيف حالك؟" و"مبروك"، وأن أذكر الأعداد من واحد إلى عشرة وبالعكس مرة أخرى. كم وددت أيضًا أن أرى مزيدًا من غرف معيشتهن. نادرًا جدًا ما كنت أذهب أبعد من غرفة الاستقبال الموجودة مباشرةً بجوار باب المنزل.

ذهبنا في ذلك المساء إلى العم "محمد" الذي لم يحضر حفل الزفاف. لقد غادر منزله، الذي كان يسكن فيه مع أسرته وأسرة ابنه الأكبر، فقط لكي يذهب إلى مصنع "الألابستر" الخاص به الواقع أمام المنزل مباشرةً. يمكن من مصنعه رؤية قطعان الأغنام تعود من المرعى في المساء، يمكن

رؤية العربات، التي تجرها الحمير، تقف عند مكان ملء الماء، يمكن إطلاق البصر بعيدًا، أعلى المعابد الجنائزية لـ"رمسيس الثاني" و"مرنبتاح" و"رمسيس الثالث". كما ظهر فندق "المرسم" وتمثالا "ممنون". ولاح مباشرةً تقاطع الشارع المتفرع إلى وادي الملكات وقرية العمال "دير المدينة" والذي توجد فيه مصلحة الآثار المصرية وشرطة الآثار. كما ظهرت ليلًا أضواء "الأقصر".

لم يتحدث العم "محمد" كثيرًا. كان مسلمًا متدينًا، يصلي خمس مرات في اليوم ولا يشرب بيرة قبل أداء الصلاة الأخيرة وإنما يشرب فقط ماءً وشايًا. عندما دخلت إلى غرفة المبيعات، ظهر أمام عيني على الفور تمثال "أمنحتب الثالث". كان ارتفاعه حوالي سبعين سنتيمترًا. كنت أعرف أنه ليس أصليًا لكنه بدا كأنه يعود إلى عصرٍ قديم. أظهرته لـ"طايع" وقلت إنني أريد أن أشتريه. قال:

- لا ينبغي أن تشتريه. صحيح أنه ليس عتيقًا لكنه من حجر عتيق أصلي. سوف تتعرضين لمشكلات في الجمارك.

جاء رجل يمتطي حمارًا أبيض اللون. نزل من عليه وجلس على أحد الكراسي البلاستيكية الحمراء المحيطة بنا، بينما كنت أجلس إلى جوار العم "محمد". انتظر الحمار من خلفه بأدب. سألته عن اسم الحيوان، لا أدري لماذا. اسمه "كاديلاك".

لم تكن هناك مياه جارية في منزل العم "محمد" ولا أيضًا في المنازل المحيطة. إذ يتم ملء الماء في براميل بالاستعانة بعربات تجرها الحمير في أماكن تعبئة الماء عند طرف الأرض الخصبة. غالبًا ما يفعل الأطفال ذلك،

فهذا الأمر بالنسبة لهم لعبة. إذ يمتطي الصبية البراميل ويدفعون عرباتهم، التي تجرها الحمير، في سباق جري نحو أماكن ملء الماء. ويحثون حيواناتهم على القيام بأفضل أداء بينما يهتفون ويصرخون. بمجرد أن تمتلئ البراميل، يترك الصبية الحمير تسلك طريقها في هدوء. عندما تحضر الفتيات الماء، يسير الأمر على نحو أكثر لطفًا. حيث تضع الفتيات أشقاءهن الأصغر سنًا على البرميل أو يجلسن معهم أعلى العربة.

أغلب هذه البراميل زرقاء اللون وتبرز وسط لون رمل الصحراء. كما تعد حزم الحشائش الضخمة الخضراء، التي كثيرًا ما تختفي الحمير أسفلها تمامًا بينما يتم إحضارها من الأرض الخصبة إلى المنازل، بقع ألوان نادرة الوجود في هذه المنطقة القاحلة، مثل ثمار الطماطم الحمراء التي يمر بها التجار. عندما تحمل سيدة مرتدية اللون الأسود ثمار الطماطم في سلة كبيرة وتصعد بها الهضبة ذات اللون الرملي، تكون هذه هي رتوش اللون الوحيدة على نطاق واسع.

انطلق من المسجد القريب صوت الأذان الأخير عاليًا. اغترف العم "محمد" الماء من إبريق مجهز وغسل قدميه، ويديه، وذراعيه، ووجهه. ثم فرش سجادة الصلاة بجوار مصنع "الألابستر" الخاص به باتجاه "مكة"، وأدى الصلاة، ثم شربنا معه البيرة.

ذهبنا بالسيارة إلى الصحراء خلف معبد مدينة "هابو". أراد "طايع" أن يريني ديرًا مسيحيًا. مررنا بأحد المساجد. كانت أحذية المصلين بالخارج أمام الباب. كلما رأيت أحذية أمام أحد المساجد، سألت نفسي

كيف يعثر كل شخص على حذائه من جديد بينما يغادر الجميع المسجد في الوقت نفسه.

جاء معنا أحد أبناء العمومة أيضًا. ذهبنا بالسيارة إلى فناء الدير وذهب معي "طايع" إلى البوابة المؤدية إلى غرفة مظلمة. سأل "طايع" إحدى الراهبات هل يجوز لي أن ألتقط صورًا فوتوغرافية بالداخل. ثم جلس "طايع" وابن عمه في ظل سور الدير وأخذا يدخنان.

كان ديرًا صغيرًا مكونًا من طابق واحد. أضاءت شموعٌ ذات نور مرتعش موضوعة على الأرض صورَ القديسين في أقواس الكنيسة والتجويفات في جدرانها. ساد ظلام بالغ لم يسمح بالتقاط صور فوتوغرافية. ربما كان عليَّ أن أفتح فلاش الكاميرا لكن الفلاش يفسد الأجواء. عندما ارتديت حذائي من جديد في الدهليز، الذي كانت تباع فيه صور القديسين وتماثيلهم كأنه متجر لبيع الهدايا التذكارية، سمعت من الخارج صوت صراخ مخيف. اقترب رجال هتفوا بصوتٍ عالٍ وساروا بخطوات راكضة ودخلوا من الباب متدافعين. حمل الرجال على أكتافهم نعشًا مغطى بقماش ذي ألوان زاهية. ركضوا مرورًا بي متوجهين إلى المزار المقدس الذي تفقدته للتو. رمقوني بنظرات غاضبة وهم يمرون وظلوا يصرخون.

ذهبتُ إلى "طايع" وحكيت له عن النظرات الصارمة للرجال. ضحك هو وابن عمه، فعندما وصل هؤلاء الرجال ومعهم النعش، حكى لهم "طايع" أن زوجته تلتقط صورًا فوتوغرافية بالداخل. لذلك نظروا لي بهذه الطريقة. إذ كانوا متعجبين من مظهر زوجة "طايع". لم تكن

النظرات غاضبة. بدت لي هكذا فقط. كانت الأعين اللامعة والألم الصارخ المرتسم في وجوه الرجال من ضمن طقوس حمل النعش.

كانوا مسلمين يحملون نعش امرأة مسيحية. لقد شاهدت أيضًا كيف يحتفل المسلمون واليهود معًا مع المسيحيين بيوم الإثنين الموافق لشم النسيم في أرجاء مصر كافة ويجلسون في كل مكان في الشارع ويتناولون السمك الذي يعد رمزًا للمسيح.

أغضبني لوقتٍ طويل أنني لم أستطع أن ألتقط صورًا فوتوغرافية لهؤلاء الرجال ومعهم النعش، لأن الدير كان مظلمًا أكثر مما ينبغي. عندما اشترينا في يوم آخر في "الأقصر" إناء تحمير كبير أسود، لأن "طايع" كان يريد حتمًا أن يطهو الطعام من أجلي، سمعت في الشارع من جديد صوت صراخ الرجال هذا. بضع قفزات وصرت أقف بالخارج. لكن "طايع" كان سريعًا كذلك وانتزع من يدي الكاميرا، التي كانت موضوعة على وضع التقاط صور مسلسلة، ووضعها بالأسفل.

عندئذ رأيت، دون أن يكون مسموحًا لي أن ألتقط صورًا فوتوغرافية، النعش المغطى بقماش ذي ألوان زاهية وهو يمضي في الشمس المتوهجة مرورًا بي. على أكتاف رجال، صوبوا رؤوسهم بحدة نحو السماء وأخذوا يصرخون ويولولون. النعش المتمايل أعلى رؤوسهم. الوجوه كأنها يعتصرها ألم بالغ، بعيون متوهجة وإيماءات منتشية. ومن خلفهم حشد كامل من رجال يصرخون كذلك ويرتدون جلابيب ترفرف في فوضى. لكن لا أحد يلتقط في مصر صورًا فوتوغرافية لشخص ميت. كان عليَّ أن أراقب الأمر مكتوفة الأيدي وأتعذب من داخلي. صور! صور! صور!

3

جدي.. لص المقابر

انتزعنا صراخ التليفون بوحشية من النوم. لقد أصيب أحد الأعمام بوعكة صحية وكان علينا أن نمضي على الفور. لا بد وأن هناك أمرًا جادًا، فقد بدا "طايع" قلقًا للغاية. قاد "طايع" السيارة أسرع مما اعتاد مرورًا بمعبد "الرامسيوم" وانعطف بعد حوالي مائة متر بحدة نحو اليمين في طريق الشاطئ الرملي المؤدي إلى قرية لصوص المقابر الأسطورية، والتي كنت أرى أضواءها من "الأقصر" عندما قضيت الليلة بأكملها في الشرفة بسبب الخنفساء. حتى هذا الوقت، كانت قرية لصوص المقابر هذه تعد منطقة جذب سياحي لي، لها حكاية أسطورية عظيمة. كل من يذهب بالسيارة إلى وادي الملوك أو إلى المعابد الجنائزية يمر بهذه القرية. وربما حتى يتوقف عند أحد هذه البيوت الملونة بألوان زاهية لكي يشتري زهرية من الرخام الأبيض أو قطعة فنية تذكارًا. ربما "باستيت"، تلك الإلهة المُصوَّرة على هيئة قطة، أو على الأقل جعران.

توقفنا أمام أحد المنازل المبنية من الطوب الطيني. كانت سيارة العم "نوبي" متوقفة هناك أيضًا.

كان باب المنزل مفتوحًا. توجه "طايع" بخطوات سريعة عبر الردهة نحو أحد الأبواب. ثم فتحه بخفة وأغلقه من خلفنا مرة ثانية في هدوء. أول ما وقعت عليه عيناي كان السرير الذي استلقى فيه العم. جسد ضخم

لرجل ما. كان مستلقيًا على جانبه الأيسر وقد أدار ظهره لنا. خطر ببالي حينها التمثال النصفي لـ"رمسيس الأكبر" الملقى على الأرض في معبد "الرامسيوم" دون رأسه الإلهي.

ألقى "طايع" التحية على السيدات اللواتي ارتدين ملابس باللون الأسود ووقفن على انفراد وقبَّلهن وتحدث معهن هامسًا. دفع "طايع" بي أمامه وهمس:

- إنها زوجتي.

حينها قبلَّتني النساء أيضًا. لم ألحظ إلا عندئذ المقعد الممتد بامتداد الحائط والذي جلس عليه رجال عابسون جادون ومحدقون في ظهر العم. أومأنا لهم في صمت وجلسنا بجوارهم.

بين حين وآخر، كان يخرج رجل أو اثنان في هدوء ويدخل آخرون في هدوء كذلك. تحرَّك العم واستدار وصار عندئذ مستلقيًا على ظهره وهو يتأوه بصوتٍ منخفض. جاءت إحدى النساء بمنديل مبلل ومسحت له العرق المتصبب على وجهه. سألت نفسي هل سيموت الآن.

نهض العم "نوبي" واقفًا وأشار بإشارة لـ"طايع" وهو يمر. ودعنا النساء وشددتُ أيضًا على أذرعهن بحنان.

بالخارج تحدث العم "نوبي" مع "طايع" وارتسمت الجدية على وجهيهما. قال لي "طايع" بعد ذلك إن العم "نوبي" دعانا إلى منزله لتناول الشاي. سرنا بالسيارة خلف سيارته عائدين إلى الطريق. لكن في المفترق التالي أدى الطريق من جديد إلى قرية لصوص المقابر. هل كان

العم "نوبي" أيضًا يسكن في هذه القرية، أعلى مقبرة أحد موظفي قدماء المصريين رفيعي المقام؟ لم أستطع أن أسأل "طايع" من جديد عن أي شيء، لأنه أخذ يحكي لي عندئذ عن حكاية العم المريض الذي عانى في الليلة الماضية نوبة قلبية وكان سيُنقل إلى القاهرة بالطائرة حيث أفضل مستشفى في البلاد.

أوقفنا السيارة بجوار سيارة العم "نوبي". قيل إن جد "طايع" أمر ببناء هذا المنزل، هنا وُلِد "طايع" أيضًا. كما كانت جدته لا تزال تسكن في هذا المنزل، بصحبة عائلة العم "نوبي" الذي كان أصغر أبنائها.

نظرت لي سيدة قصيرة القامة مفعمة بالحيوية ذات وجه نحيل مُجعَّد بحرارة وعينين ماكرتين بشكل مضحك. اضطررت لأن أنحني قليلًا لكي أقبِّلها وألقي عليها التحية. أمسكت السيدة بكلتا يديَّ وكانت لا ترغب تقريبًا في أن تتركهما ثانيةً وكانت تبتسم لي باستمرار في أثناء ذلك.

اصطحبونا من المدخل، الذي بدا ضخمًا، إلى غرفة الجلوس. كان الجو في هذه الغرفة، التي بلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار تقريبًا، باردًا للغاية حتى من دون جهاز تكييف، فالمنازل المبنية من الطوب الطيني تعزل الحرارة. كانت مصاريع النافذة مغلقة بسبب الشمس ولذلك ساد الظلام حتى أضاء العم "نوبي" النور. جلسنا غائصين في المقاعد الوثيرة على أريكة ممتدة في ثلاثة جوانب في الغرفة ومغطاة بقطيفة ذات لون رملي. من الخارج، لم يكن من الممكن تخيل وجود مثل هذه الحياة في هذه المنازل القديمة التي ترجع لمائتي عام. تلألأت في وسط الغرفة طاولة صالون زجاجية كبيرة وكان هناك بجوار الباب دولاب حائط به تليفزيون مدمج.

على الجدران صور عائلية لحفلات زفاف وأطفال وبينها أيضًا صورة باللونين الأبيض والأسود كانت باهتة بعض الشيء.

أحضرت زوجة العم "نوبي" الشاي. كانت ذات جمال باهر، كانت أطول وأنحف من زوجها. وقد ارتدت تنورة طويلة بها نقوش ورود وربطت شعرها الطويل الأسود إلى الخلف. كانت أسنانها ناصعة البياض تومض عندما تضحك بحرارة ودفء. جلست قبالتنا بجوار والدة العم "نوبي" التي كادت أن تختفي في المقعد الكبير وكانت تبتسم لي عندما لم تكن تحكي شيئًا بصوتها الرقيق.

قبل أن نستأذن منصرفين، كان من المسموح لي أيضًا أن أرى المطبخ. خزانات مدمجة وموقد مسطح سيراميك. نسيتُ أن أرى هل كانت هناك غسالة أطباق أم لا. كان في المنزل بأكمله مياه جارية باردة ودافئة. لكن هنا أيضًا، في هذا المطبخ العصري، كانت الجدران القديمة غير المستوية والخشنة المبنية من الطوب الطيني تحقق تباينًا خاصًا.

تمنيتُ لو أجلس في المطعم المجاور لمعبد "الرامسيوم" في مكان يمكنني منه رؤية المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر". لكن "طايع" رأى أن الجو في هذا الجانب يكون ساخنًا في النهار. وأراد أن يذهب إلى الحديقة الخلفية، غير أن السياح كانوا يشغلون كل الأماكن هناك. ولذا ذهبنا إلى الداخل، للمرة الأولى، حيث جلس أبناء العمومة أيضًا. عندما أمسكت بالكرسي لكي أجلس، رأيت على الجدار مرة أخرى الصورة الباهتة الموجودة في منزل العم "نوبي". ذهبت إلى هناك لكي أراها عن قرب.

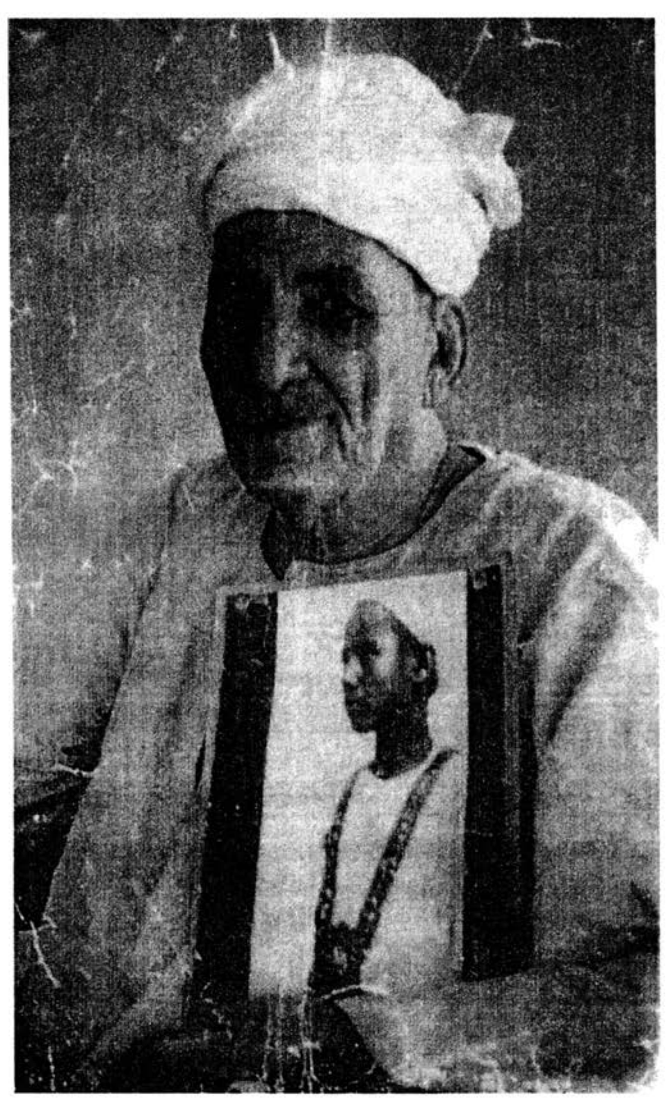
ظهر في الصورة رجل مصري عجوز ذو ابتسامة غامضة مثل ابتسامة "الموناليزا" وكان يضم صورة فوتوغرافية كبيرة إلى صدره. كانت صورة شاب مصري يظهر من الجانب ويرتسم على وجهه البريء تعبير وقور. كانت قطعة حلي الصدر الفرعونية ذات الشكل الفني مُعلَّقةً حول عنقه. وبالجوار كان هناك تقرير صحفي مُعلَّق، لونه مائل إلى الصفار قليلًا وموضوع في إطار وبه أيضًا هذه الصورة. من صحيفة ألمانية ترجع إلى عام 1992:

«يبلغ عمر الشيخ "حسين عبد الرسول" المنتمي لعائلة لصوص المقابر الشهيرة ذات السمعة السيئة، الآن اثنين وثمانين عامًا. إنه يحتفظ بصورة، التقطها له "هوارد كارتر". ظهر فيها "حسين" الذي كان عمره آنذاك اثني عشر عامًا وهو يرتدي حول عنقه قطعة حلي خاصة بـ"توت عنخ آمون". كان "حسين" موجودًا عندما اكتشف عالم الآثار البريطاني "هوارد كارتر" في عام 1922 في وادي الملوك أهم اكتشاف أثري في العصور كافة وعثر على المقبرة السليمة للملك الصغير "توت عنخ آمون" الذي قُتل عن عمر ناهز ثمانية عشر عامًا».

قرأت مرة ثانية: الشيخ "حسين عبد الرسول" المنتمي لعائلة لصوص المقابر الشهيرة ذات السمعة السيئة!

- إنه جدي. الآن صار جدكِ أنتِ أيضًا!

قالها "طايع" الذي كان قد جاء لي لأنه رأى أنني أقرأ المقال.



"حسين عبد الرسول" مع صورة لشبابه يظهر فيها يرتدي مجوهرات من مقبرة توت عنخ آمون

نظرتُ لـ"طايع". لا، حدَّقت فيه. لا أدري كم من الوقت لم أنطق بكلمة. عندئذ فقط تحققت: إن "طايع محمد حسين عبد الرسول" حفيد الشيخ "حسين عبد الرسول" الذي كان موجودًا عند العثور على "توت عنخ آمون".

منذ أن صرت في مصر، انقلبت الأحداث. الآن توقف العالم. لذلك انقلبت أفكاري. حاولتُ أن أرتبها من جديد. أسئلة كثيرة جدًا! بأي منها أبدأ؟

جلس "طايع" من جديد إلى الطاولة بجوار أبناء العمومة. ظللتُ واقفة أمام الصورة ونظرت في عيني الجد، في عينيه العتيقتين. هذه النظرة جاءت من ماضٍ عميق. كانت النظرة نفسها التي فتنتني في "طايع" عندما نظرتُ في عينيه للمرة الأولى.

كان والد "طايع" الابن البكر للشيخ "حسين" الذي كان موجودًا عند العثور على "توت عنخ آمون". اسمه "محمد". وصار "طايع"، بوصفه أول ابن لـ"محمد"، الآن آخر سليل مباشر لعائلة "عبد الرسول". لكن إن كنت أريد أن أعرف شيئًا أدق عن تاريخ العائلة، فعليَّ أن أسأل العم "نوبي". فبوصفه أصغر أبناء الشيخ "حسين"، كان يعتبر المتحدث الصحفي - إن جاز التعبير - عندما تود الصحف أو التليفزيون معرفة شيء عن عائلة "عبد الرسول" وعن قرية لصوص المقابر. ولذلك ذهبنا بالسيارة إلى العم "نوبي" في مصنع "الألابستر" الخاص به.

قدَّم أحد موظفيه لنا شايًا ساخنًا حلوًا في أكواب صغيرة. كانت الأسئلة تُلِّح عليَّ لكننا تعرضنا للمقاطعة عند الحديث مرة أخرى. إذ رنَّ جرس تليفون العم "نوبي" المحمول في الجيب الجانبي من جهة اليمين لجلبابه.

نهض العم "نوبي" واقفًا وأخذ يعدو ذهابًا وإيابًا في أثناء الحديث. انتظرت بصبر حتى جلس من جديد ودسَّ التليفون في جلبابه. وبعد ذلك حكى لي تاريخ عائلة "عبد الرسول" حسبما تناقلته الألسن في العائلة.

كانت عائلة "عبد الرسول" أول من استقر في عالم المقابر هذا. كان هذا قبل خمسمائة عام. والآن صارت أكبر عائلات "القرنة". هاجر ثلاثة أشقاء آنذاك إليها. كان أكبرهم رجلًا تقيًا والأوسط رجلًا صالحًا والثالث محتالًا. كانوا يطحنون الأحجار الجيرية في السلسلة الجبلية ويبيعونها بوصفها سمادًا حتى تصل القاهرة، تجارة جيدة. كانت عائلة "عبد الرسول" حتى قبل مائتي عام تعيش في المقابر أسفل الأرض. ثم بنوا لأنفسهم المنازل التي ما زالوا يعيشون فيها اليوم. كانوا فيما سبق لصوص مقابر. قال العم "نوبي" بشيء من التلطف:

- كانوا يتاجرون آنذاك في تحف أثرية أصلية مصرية. الآن صار لديهم مصانع رخام أبيض وفنادق ومطاعم. كان الشيخ "حسين" قد افتتح المطعم المجاور لمعبد "الرامسيوم". وقد أصبح المطعم الآن ملكًا لأبنائه.

سألت بعد ذلك عن الصورة وقطعة حُلي "توت عنخ آمون" الموجودة حول عنق "حسين" ذي الاثني عشر عامًا الذي كان موجودًا عندما اكتشف "كارتر" المقبرة. صمت العم "نوبي". نظرتُ إليه مشدودة الأعصاب لكنه لم يقل شيئًا. صمت "طايع" أيضًا. نظر كلاهما أمامه. قال العم "نوبي" دون أن يرفع بصره:

- لقد أهداه "كارتر" قطعة الحُلي هذه.

ثم صمت من جديد.

- "كارتر" أهداه قطعة الحُلي هذه؟

صمْت.

- وأين قطعة الحُلي هذه الآن؟

صمْت مرة أخرى. ثم قال "طايع" مخترقًا الصمت:

- لم تعد لدينا.

هل باعوها؟ هل استخدموها مهرًا يُقدَّم عند الزواج؟ تجنبوا الرد على أسئلتي. كان الرد التقليدي: "لا نعرف، لقد مرَّ وقت طويل على ذلك". بينما كانت الإجابة بسيطة للغاية: إنها في المتحف المصري في القاهرة.

وصلت حافلة بها سياح إلى مصنع "الألابستر". انسحبت أنا و"طايع" وذهبنا بالسيارة إلى محطة الوقود، إذ لم يعد لدينا بنزين تقريبًا في خزان وقود السيارة، ووددنا أن نحاول مرة أخرى أن نحصل على بنزين في "القرنة". لكن لم يكن لديهم بعد أي بنزين مثلما كان الحال منذ ثلاثة أيام. ولذلك مضينا بالسيارة على جسر النيل إلى "الأقصر" لنحصل على الوقود.

عندما دلفنا بالسيارة إلى الكورنيش، مرورًا بالمعبد، بين عربات الحنطور، قال "طايع" فجأة لي:

- العم "نوبي" قال لكِ الحقيقة الكاملة.

كان لديَّ هذا الإحساس بالضبط. قال "طايع" دون أن يشيح ببصره عن الطريق:

- لقد أظهرت عائلة "عبد الرسول" لـ"كارتر" أين تقع مقبرة "توت عنخ آمون".

حدَّقتُ في "طايع". لاح أمام عينيَّ بشكلٍ آلي القناع الذهبي لـ"توت عنخ آمون". قيل إن عائلة "عبد الرسول" قد عرفوا أين تقع مقبرة "توت عنخ آمون" وأظهروا لـ"كارتر" أين هي. بدأت أفكاري تدور. حاولتُ أن أتذكر كل شيء سبق وأن قرأته عن اكتشاف "توت عنخ آمون".

حدث الاكتشاف في غضون ثلاثة أيام. إذ جاء "كارتر" إلى "الأقصر" في الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1922 واستعان بعماله في الأول من نوفمبر وبدأ أعمال الحفر. حكى "كارتر" تاريخ الكشف الأثري كما يلي: ظهر "كارتر" بالقرب من موضع التنقيب في الرابع من نوفمبر. "استقبلوني بنبأ أنه تم العثور على درجة سلم منحوتة في الصخر أسفل الكوخ الأول الذي كانوا قد بدأوا به".

لكن قبل اكتشاف "توت عنخ آمون"، كانت هناك نسخ أخرى أيضًا. فقد حكى رجل مصري عجوز في "الأقصر" للصحفي الأمريكي "أرنولد براكمان" أن "كارتر" لم يكن يستحق الشهرة الضخمة وإنما استحقها جندي بريطاني اشترى لفافة بردي من فلاح مصري إبان الحرب العالمية الأولى. لم يتمكن الجندي من قراءة الحروف الهيروغليفية، لكن قيل إن "كارتر" اقتنى هذه البردية واستطاع أن يقرأها. كانت البردية تحدد موقع مقبرة "توت عنخ آمون" بدقة. حتى أن هذه المخطوطة تضمنت قائمة بمحتويات المقبرة.

تحكي قصة أخرى عن عصفور كناري، قيل إنه دلَّ "كارتر" على مقبرة "توت عنخ آمون". حيث جاء "كارتر" إلى مصر في الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1922 ومعه عصفور كناري أصفر وعلَّق القفص في «قلعة "كارتر"»، أي في منزله، على فرع الشجرة التي كان يربط فيها دائمًا حماره أيضًا. كان سكان البلد المحليون يقولون: «هذا الطائر يجلب الحظ». عندما عثر "كارتر" بالفعل بعد أيام قليلة على مقبرة "توت عنخ آمون"، كان رأيهم أن "الطائر الذهبي دلَّ "كارتر" على المقبرة!". لكن بعد افتتاح المقبرة بقليل، سمع الناس صوت صراخ. فقد زحف ثعبان كوبرا طوله متران على الشجرة وتسلل إلى قفص العصفور. رأى المصريون في ذلك نذير شؤم وكانوا شبه مقتنعين: "لقد التهم ثعبان التاج الفرعوني الطائر الذهبي. إن ثعبان "الصل الفرعوني" المقدس الخاص بالملك ثأر من الطائر، لأنه أفشى سر المقبرة!".

حكى "كارتر" نفسه لوكيله قصة مختلفة تمامًا في أثناء رحلته الناجحة لإلقاء محاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية. كان حمَّال ماء شاب، أجره زهيد لكن لم يكن من الممكن أن تنتقص الشمس الحارقة من همته وحيويته، يحاكي الفتية اليافعين ويعبث بعصاه في الرمل في كل دقيقة لا يعمل فيها. اصطدم فجأة بشيء صلب وواصل الحفر بحماس وكشف عن وجود درجة سلم حجرية. غطى الشاب في عجالة درجة السلم بالرمل لكي لا يلاحظ «المنافسون» شيئًا واندفع راكضًا إلى "هوارد كارتر" وحكى له لاهثًا عن اكتشافه.

هل كان "كارتر" يقصد بحمَّال الماء الشاب هذا، الذي قيل إنه عثر على درجة السلم الأولى المؤدية إلى مقبرة "توت عنخ آمون"، "حسين عبد الرسول" الذي كان عمره آنذاك اثني عشر عامًا؟ الجد؟ هل وضع "كارتر" قطعة حُلي صدر الحاكم الفرعوني حول عنقه كبادرة امتنان والتقط هذه الصورة؟ إن ترتيب أمر مثل هذه الصورة كان آنذاك أمرًا فريدًا حقًا بين علماء الآثار.

كانت لدى "كارتر" في الواقع كل الأسباب التي تجعله ممتنًا لعائلة "عبد الرسول" وعماله. فقد حكى عن يوم الرابع من نوفمبر عام 1922 الأسطوري هذا قائلًا: "بعد سنوات من عمل غير مجدٍ إلى حدٍ ما، وجدت نفسي وحدي، بغض النظر عن عمالي من أهل البلد الأصليين، على أعتاب اكتشاف ربما يكون الأعظم". كان "كارتر" وحده مع عماله من أهل البلد الأصليين، الذين لم تُذكر أسماؤهم في أثناء الاكتشاف الذي تم في وادي الملوك.

وصلنا إلى محطة الوقود. بينما ملأ "طايع" البنزين، قررتُ أن أترك في حقيبة السفر مخطوطتي التي بدأت الكتابة فيها عن "أبناء الآلهة". إذ وددت أن أقتفي أثر سر عائلة "عبد الرسول" وأستكشف حقيقة "هوارد كارتر" واكتشاف "توت عنخ آمون". فبدأت أطرح أسئلة كلما سنحت الفرصة وأقرأ كل ما يصل إليَّ عن وادي الملوك. لقد بدأت روح الصحفية تخفق في داخلي بهدوء.

4

ذئاب وثعابين وعقارب

حلَّ الليل. كانت الكهرباء قد انقطعت عن القرية بأكملها. لم أرَ سوى نجوم وظلال المعابد وأشجار النخيل وأجساد ترتدي الجلباب من حولي. عندما كانوا يشعلون سيجارة، كانت وجوههم تلمع في ضوء القداحات.

شهدنا عند غروب الشمس عاصفة رملية قوية. صارت القرية والسلسة الجبلية خلفها مطموسين واختفيا في الرمال المتحركة على هيئة دوامة. ارتقت أطلال المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر" وحدها كأنها أشباح في الضوء المنتشر نحو غروب الشمس. كانت المناظر الطبيعية ترجع بالزمن إلى الفترة بين الأسر الفرعونية ووقت قدوم عائلة "عبد الرسول" عندما لم يكن ثمة شيء هنا سوى رمال وأطلال معابد.

جلستُ في الظلام وسط أحفاد «لصوص المقابر المزعوم عنهم السمعة السيئة في مصر» الذين صاروا عندئذ أقاربي، وبصورة لا إرادية، خطرتْ ببالي صورٌ من حكاية ماضيهم الأسطورية. كيف جاء أسلافهم على الطريق التجاري القديم من القاهرة. عبروا النيل عند "الأقصر" في زوارق بصحبة جِمالِهم وخيولهم. واصلوا السير عبر الحقول الخضراء، غادروا الطرق المألوفة الموجودة بعد تمثالي "ممنون"، توغلوا في قلب الوادي، الذي تهب عليه الرياح، بين الدير البحري ودير المدينة، في هذه الناحية الخالية من الماء ومن الظل، في هذه المنطقة ذات القوانين الخاصة بها والحدود غير

المرئية والمداخل الخفية إلى العالم السفلي. عالم من قصور أسفل الأرض ذات أبعاد ضخمة. بفناءات ودهاليز وغرف انتظار وغرف دفن وأروقة ذات أركان وعواميد. هنا توجد مقابر أهم موظفي بلاط قدماء المصريين الذين حملوا ألقابًا شرفية عدة؛ المشرف الأعلى على الخزانة، وقضاة، ومشرفين على الكهنة، وكتبة ملكيين، وموظفي خزانة "طيبة".

جدران وأسقف، يتراوح ارتفاعها من ثلاثة إلى ثمانية أمتار، حافلة برسومات طقوس دينية، بجوارها نصوص أضحيات وصلوات للآلهة "رع-حوراختي" و"آمون" و"تحوت" و"أوزيريس" وآلهة أخرى. كهنة يرتدون ملابس من فراء النمور ويصلون. ثيران تُقدَّم أضاحي. نساء نائحات ينثرن الرماد على رؤوسهن ويبكين.

يسوق إله الموت "أنوبيس"، الذي يتخذ رأسه هيئة رأس حيوان "ابن آوى"، الموتى أمام ميزان ذي كفتين، توزن عليه أعمالهم. "أعطيت الجائع خبزًا والظمآن ماءً ولحمًا وخمرًا وملابس لمن لا يملك شيئًا". تقف الإلهة "ماعت" إلهة العدالة والحقيقة، ورمزها الإلهي عبارة عن ريشة، والإله "تحوت" إله الكتابة ذو رأس على هيئة رأس طائر "أبو منجل" بجوار كفتي الميزان. يزن "أنوبيس" القلب ويسجل "تحوت" النتيجة. ويجلس الإله "سوبك"، الإله المتخذ شكل تمساح، بجوارهم وينتظر أن يلتهم الأشرار.

يطلب المعفو عنهم من الماردين الذين يحملون سكاكين في كفوفهم أن يسمحوا لهم بعبور البوابة إلى الآخرة. ترحب بهم في العالم السفلي الإلهة "حتحور" إلهة السماء التي تحمل قرص الشمس الأحمر بين قرني بقرة. سطعت بجوار ذلك مشاهد من الحياة اليومية وأوصاف تفصيلية للحياة

اليومية. رجال ذوو لحى خفيفة وشعر صدر أشقر يجمعون طيورًا وأسماك. نساء يرتدين ملابس ضيقة، عازفات على العود عاريات.

بقدر ما كانت الحياة داخل مساكنهم ملونة، كانت البيئة المحيطة بهم قاحلة. سلسلة جبلية صامتة مقفرة، لا يسكنها سوى ذئاب وثعابين وعقارب. كان هؤلاء الرجال، الذين نزحوا آنذاك مع زوجاتهم وأبنائهم، رجالًا أقوياء، تعلو وجوههم ملامح حادة وذوي أكتاف عريضة. أكبر وأقوى من الفلاحين - أي المزارعين المصريين - وكان لون بشرتهم أفتح.

يقال إن من استقروا هنا كانوا ثلاثة أشقاء. توجد في العالم بأسره أساطير تبدأ بثلاثة أشقاء. كانت أسماؤهم "حرب" و"غابة" و"عطية". ظلت أسماؤهم، كما يُقال، خالدةً في التجمعات السكنية الثلاثة "الحروبات" و"الغابات" و"العطيات". كان الابن الأكبر في أسطورة عائلة "عبد الرسول" رجلًا تقيًا للغاية، شيخًا، والثاني رجلًا صالحًا، وأصغر الأشقاء محتالًا. جاءوا لكي يطحنوا الأحجار الجيرية ويبيعوها سمادًا للفلاحين. لكن حكاية السماد لم تكن تتناسب مع هذا البلد الذي يعد فيه السماد هبةً من النيل ويعد الفلاحون فيه فقراءً للغاية بدرجة لا تسمح لهم بشرائه. لم أقتنع بهذه الحكاية. هل أراد "نوبي" أن يرضيني بهذه الحكاية الأسطورية؟

هل كان أمر "البحث عن أحجار والعثور على ذهب" حكاية خرافية؟ ترى هل كان لدى المهاجرين خريطة للوادي مرسوم بها مواضع المقابر؟ إن المعرفة بمدينة الموتى في عهد قدماء المصريين لم تدخل طي النسيان أو تضيع أبدًا. إذ إنها كانت مُدوَّنة على برديات ومحفوظة في مكتبات الأديرة

كما كانت الألسنة تتناقلها. عندما جاء المؤرخ اليوناني "ديودور" قرابة عام 59 قبل الميلاد إلى وادي الملوك، لم يستطع أن يزور سوى المقابر العشر التي كانت مفتوحة آنذاك. غير أنه كتب أن الملاحظات التي دوَّنها الكهنة تضمنت قائمة بها سبع وأربعون مقبرة، وهو ما اقترب حقًا من العدد الفعلي. يبدو أن الكهنة كانوا يمتلكون أيضًا سجلات دقيقة. كما أن عالم الجغرافيا "سترابو" تحدث عن "قرابة أربعين قبرًا ملكيًا منحوتًا في كهوف صخرية ومبنيًا على نحوٍ رائع ويستحق الزيارة"، على الأرجح أنه استند إلى معلومات مشابهة.

إن استقرار الأشقاء الثلاثة في السكن حدث في عهد حكم المماليك لمصر. ترجع أصول المماليك إلى المحاربين العبيد، الذين صاروا منذ القرن التاسع صفوة المحاربين وحراسًا شخصيين للسلاطين. كان يتم شراؤهم وتدريبهم في سن الطفولة أو المراهقة من أسواق الرقيق في تركيا والبلقان والقوقاز. استولى عبيد الملوك هؤلاء على الحكم في عام 1250 وحكموا مصر، التي كانت في وقتٍ لاحق أيضًا تحت حكم الإمبراطورية العثمانية، حتى انتصر عليهم "نابليون" عند سفح الأهرامات، فانتهت أسرة حاكمة من العبيد لا مثيل لها في تاريخ العالم. لقد ازدهر الوجه البحري في قرون حكمهم الاستبدادي فامتلأ هواء القاهرة برائحة البخور والأفيون والتوابل غالية الثمن. وتطورت الفنون وجلبت التجارة الرخاء حتى وإن كان هذا للطبقة العليا فحسب.

لكن صعيد مصر غرق في طي النسيان منعزلًا عن العالم وخارج التاريخ. فأخذ الرمل يغطي مقدسات قدماء المصريين أكثر وأكثر وسادت

بين أعمدة معبد "الأقصر" حياة ريفية بها خراف وماعز. واقتصر المسافرون، الذين يزورون مصر، على زيارة "الإسكندرية" والعاصمة القاهرة، وكانت الأهرامات تثير إعجابهم على كل حال. وكان الإقدام على الذهاب إلى مناطق أخرى أمرًا محفوفًا بالمجازفة والخطورة.



منطقة في غرب طيبة

دار في رأسي سؤال: هل مارست عائلة "عبد الرسول" التجارة مع القاهرة؟ ربما أنهم قد انضموا للقوافل التجارية في "الأقصر" والتي كانت تأتي من "النوبة" مُحمَّلة بالأبنوس والعاج وفراء فهود وذيول زرافات وقرود وريش طاووس، ونساء من أجل سوق الرقيق في الشرق، مختبئات أسفل مظلات كالستائر. كانت القاهرة نقطة التقاء القوافل القادمة من إفريقيا وآسيا والتجار من الجزائر وتونس وبغداد ومن طرق التجارة الكبرى انطلاقًا

إلى الهند والصين. هل كانت عائلة "عبد الرسول" تقايض هنا الأحجار الكريمة والذهب المستخرج من وادي الملوك في مقابل جِمال بيضاء وخيول عربية سوداء وفتيات في مقتبل الشباب من أجل أبنائهم الذكور؟

عادت الإنارة الكهربائية في القرية من جديد. بحثتُ في وجوه الرجال عن ملامح المماليك. لم أستطع بالطبع أن أسألهم هل ترجع أصولهم إلى عبيد أتراك، فربما جرحهم هذا. وربما أنهم لم يكونوا سيعترفون بهذا أيضًا. لم تكن بنية أفراد عائلة "عبد الرسول" أطول وأقوى من الفلاحين المصريين فحسب، وإنما كان لون بشرتهم أفتح أيضًا، كانوا يتسمون بسمات شخصية مختلفة عن الفلاحين. تجاهلت التفكير في المماليك. إذ يقال إن كثيرًا منهم كانوا ذوي عيون زرقاء لكن هنا كنت أنا الوحيدة ذات العيون الزرقاء. كان من الأفضل أن أتحلى بالصمت.

في المنزل، في شرفة السطح الخاصة بنا، لم يجلب الليل هواءً باردًا ولم تذق عيناي طعم النوم. ما زالت لديَّ أسئلة كثيرة لـ"طايع". لكنني لم أتخلص من شعور أنه لا يُفضِّل الحديث عن ماضي عائلته. على كل حال، لم يعد بإمكاني حينها أن أسأله، فقد كان في سبات عميق بالفعل. حدَّقتُ في سماء مصر وبحثت في النجوم عن إجابات.

ذهبنا في صباح اليوم التالي إلى مطعم "هابو" لتناول الإفطار، أمام معبد "مدينة هابو"، أي "بيت ملايين السنين" الخاص بـ"رمسيس الثالث". خلف هذه الجدران، خططت إحدى المحظيات لقتل الملك بالاستعانة بطواشي الحرملك، لأنها كانت تريد أن تجعل ابنها حاكمًا فرعونيًا. تم اكتشاف «مؤامرة الحرملك» وتم إرغام السيدة المنتمية

للحرملك على الانتحار. كما مات "رمسيس الثالث" قبل عشيقته. إلا أنه من غير المعروف هل كانت وفاته طبيعية أم أنه تعرض للتسميم.

بينما ظل "رمسيس" على واجهة المعبد الجنائزي ممسكًا بشعر أعدائه لكي يقتلهم ضربًا، كنا نستمتع بما نتناوله من أومليت وطماطم وزيتون والجبن المصري الأبيض الطازج. عندما بدأ في التدفق تيار السياح الذين احتلوا المطعم باحثين عن مشروبات منعشة، لجأنا إلى الصحراء، إذ أراد "طايع" أن يريني معبدًا صغيرًا غير معروف. سألته في الطريق ما معنى اسم "عبد الرسول". وهكذا سمعت حكاية أسطورية أخرى عن أصل العائلة.

- لقد سمى الجد الأول نفسه «الرسول»؛ أي النبي. ثم أطلق الأحفاد على أنفسهم اسم «عبد رسول». وبمرور الوقت نشأ اسم «عبد الرسول».

امتدت من حولنا الصحراء، ما من شوارع، مجرد رمال وأحجار. سألت:

- أي أن أصل عائلة "عبد الرسول" يرجع إلى أحد الأنبياء؟

- كان اسم الجد الأول "الرسول".

كرر "طايع" حديثه قائلًا:

- الرسول! أي نبي. ألا تعرفين ما معنى نبي؟

كنت أعرف معنى النبي. لكن هل كان أصلهم يرجع حقًا إلى أحد الأنبياء؟ لا أحد يُوصَف هنا باستهتار بأنه نبي. فالخوف من الإساءة للذات الإلهية بالغ جدًا.

سألت "طايع" أمام بوابة المعبد الحديدية المغلقة عن مسقط رأس هذا النبي. ولكي لا يضطر لأن يقول شيئًا، أجاب:

- لا أدري. من مكان بعيد جدًا!

أي أن نبيًا قد انتقل «من مكان بعيد جدًا» إلى مصر. استوطن في عالم الآلهة الفرعوني، في منطقة لم يكن بها بقيد الحياة سوى ذئاب الصحراء وثعابين وخفافيش وعقارب. يُقال إن أحد الأشقاء الثلاثة، الذين كانوا يبيعون الأحجار الجيرية باعتبارها سمادًا، كان رجلًا تقيًا للغاية. هل كان هو هذا النبي؟ لكن الشقيق الأصغر كان محتالًا. هل كان إذًا لص مقابر؟ لقد قال "طايع" وأيضًا العم "نوبي" لي مرارًا وتكرارًا: "لا، لم تكن عائلة "عبد الرسول" لصوص مقابر!". وأضافوا أنهم على العكس من ذلك كانوا يحرسون المقابر دائمًا من عصابات اللصوص والسارقين ممن كانوا يخوضون معارك عنيفة معهم.

هل جاء نبي من مكان بعيد جدًا لكي يحفظ المقابر من اللصوص؟ يمكن أن يطلق على النبي أيضًا الرسول. هل تم إرساله هو وأبناؤه الذكور فقط من أجل حراسة مدينة الموتى؟ هل احتفظوا بسبب ذلك ربما بإحدى خرائط المقابر هذه أو كانوا يعرفون الرواية الشفهية عنها؟ وحصلوا على أجر كان ذهبًا وأحجارًا كريمة لكنهم أخذوا منها لأنفسهم القدر الذي كانوا يحتاجونه فحسب؟ كان النبي ومن بعد وفاته الشيخ الموجود عندئذ، أي شيخ العشيرة، من يُحدِّد هذا القدر.

«رسل»، هكذا سمَّى الإغريق أيضًا المصلين في معابد قدماء المصريين. لم تقتصر صلاحيات كبير الرسل على المجال الروحاني. فقد ورد في موسوعة

تاريخ الأديان المصري أنه كان يدير شؤون المعابد أيضًا. ربما كان الجد الأول لعائلة "عبد الرسول" رسولًا من هذا القبيل. فسمَّى أبناؤه وأحفاده أنفسهم «نسل الرسول»؛ لأنهم تولوا الإشراف على عالم الموتى، على عالم الآلهة هذا الذي تعرفوا عليه من الصور المرسومة على جدران المقابر التي كانوا يعيشون فيها.

تؤكد أوائل التقارير المكتوبة عن وادي الملوك أن عائلة "عبد الرسول" اضطروا لخوض نزاعات من أجل هذه المقابر. وترجع هذه التقارير إلى مصدر موثوق به. فقد دلَّ أحد أجداد عائلة "عبد الرسول" القس وعالم الأنثروبولوجيا الإنجليكاني "ريتشارد بوكوك" على الطريق في وادي الملوك في عام 1743. وصف "ريتشارد بوكوك" كيف مرَّ عليه شيخ "القرنة" واصطحبه عند القارب وذهب به إلى بيته واستأجر له خيولًا وقاده إلى وادي الملوك. كان يعدُّ رجل أعمال عمل في مجال السياحة في القرن الثامن عشر. تسلق الإنجليز المتحمسون المقابر على أضواء الشموع. وعندما هبطوا، كانوا متعبين ويبحثون عن الراحة وأرادوا أن يستمتعوا بالمشروبات المرطبة التي أحضروها معهم، أصبح الشيخ وهو إنسان «مهذب وسلس المعاملة» قلقًا وحثهم على الرحيل. فقد اعتراه الخوف من أن يأتي رجال من الأعداء عبر الممر الجبلي إلى وادي الملوك ويزعجوا السياح.

عن هذا كتب "بوبوك": «أظن أنه بدا خائفًا من أن يستغل هؤلاء الناس الفرصة ويتجمهرون لو أطلنا البقاء هناك». كان وادي الملوك مكانًا غير آمن للغاية لإطالة البقاء فيه. وعندما زار "بوبوك" تمثالي "ممنون" في اليوم التالي، حثَّه الشيخ عدة مرات لكي يعود سريعًا، حيث قال إن هناك

أعداءً قريبين جدًا من هذا المكان. عندما عاد "بوبوك" مساءً إلى السفينة، رأى حشدًا من ناس متوعدين يحاصرونها؛ قالوا إنه لو لم يغادر على الفور، فسوف يشنون هجومًا على القارب في الليل.

تساءل "بوبوك" متكهنًا: هل كانوا يؤمنون بأن الأوروبيين لديهم قدرة خارقة على اكتشاف الكنوز واستخراجها بالقوى السحرية، أم أنهم شعروا ببساطة تامة بالغيرة من الهدايا التي قدمها لشيخ "القرنة"؟ لقد كتب شيخ "القرنة"، على كل حال، خطابًا للسلطات العليا بشأن الواقعة وأوصى "بوبوك" بإلحاح بالغ أن يسافر بأسرع ما يمكن.

لقد بلغ الأمر أن روى الرحالة الإسكتلندي "جيمس بروس"، الذي زار وادي الملوك عام 1769 بحثًا عن منابع النيل، عن «حجافل اللصوص». «تعيش أعداد كبيرة من اللصوص، تُذكّر إلى حدٍ كبير بالغجر لدينا، في جحور الجبال الموجودة أعلى "طيبة". جميعهم خارجون عن القانون ومعرضون لتنفيذ عقوبة الإعدام إذا وصلوا إلى أي مكان آخر». لقد حاول أحد الحكام السابقين دون جدوى أن يقضي عليهم. حيث تم إلقاء حزم يابسة من الأغصان الجافة في الكهوف وإشعال النار فيها. «هكذا لقي أغلبهم حتفه. لكن منذ ذلك الحين، ازداد عددهم مرة أخرى ولم يغيروا عاداتهم».

نسخ "بروس" عند زيارته للمقابر تماثيل لعازفي القيثارة. غير أن عمله انتهى بصورة مفاجئة. فعندما لاحظ القادة نيته لأن يقضي الليل في المقبرة كي يستكمل أبحاثه في صباح اليوم التالي، حدثت ثورة. «قذفوا مشاعلهم على أكبر تمثال لعازفي القيثارة محدثين ضوضاء كبيرة بعلامات تشير إلى السخط، وفروا راكضين من الكهف وتركوني أنا وعمالي في الظلام

وأخذوا يطلقون طوال الطريق نبوءة مُروِّعة عن كل المصائب التي سوف تحل بنا بمجرد أن يخرجوا من الكهف».

كان من شأن "بروس" أن يدرك فيما بعد أن تحذيرهم لم يأتِ من فراغ، فعندما امتطى الخيل وهبط به الوادي في جنح الظلام المتزايد، هاجمه لصوص كانوا متربصين به وقذفوا عليه أحجارًا من الصخور. نجح "بروس" بالاستعانة ببندقية الخرطوش الخاصة به وببندقية خادمه أن يردهم في أعقابهم. إلا أنه عندما وصل إلى قاربه، رأى أنه من الحكمة أن يبحر بأقصى سرعة ولم يحاول أن يكرر زيارته.



5

"فندية" وأرض الطين الأسود

كنت في الغرفة أُرتِّب صوري، و"طايع" بالخارج يحضر الطعام. كنت على وشك الانتهاء عندما فتحتُ درجًا يخص "طايع" ويقع بجوار أحد أدراجي. لا أدري لماذا فتحته. فأنا لا أفعل حقًا مثل هذه الأشياء في المعتاد. لم يكن الأمر مجرد فضول، فقد جذبني هذا الدرج بشكلٍ سحري. بالأعلى فوق كومة من الورق، كانت هناك صورة عائلية قديمة؛ أقدم من صورة الجد عندما كان شابًا ويرتدي قطعة حُليٍّ "توت عنخ آمون" حول عنقه. ظهرت في وسط الصورة سيدة عجوز تجلس وقد وقف بجوارها على اليمين رجل عجوز، وعلى اليسار سيدة شابة تحمل طفلًا صغيرًا على ذراعها. تأثرتُ من جدية المرأة المصرية الممتلئة بالوقار الواقفة في وسط الصورة ومن سنها الكبيرة.

ذهبتُ إلى "طايع" بالصورة دون أن أرفع بصري عنها، كان على وشك أن يشوي الحمام الذي كنا قد اشتريناه من السوق في الصباح. ألقى "طايع" نظرة خاطفة على الصورة وقلَّب في البداية الطيور الصغيرة العارية بحيث تستلقي على بطنها بدلًا من ظهرها وهي مفرودة الذراعين والساقين. ثم أشار بملقط الشواء إلى وسط الصورة قائلًا:

- إنها جدتي.

وقال على سبيل التصحيح:

- جدة جدة جدة جدة جدتي. اسمها "فندية".



عائلة عبد الرسول نحو عام 1907:

فندية وابنها أحمد وابنته مع طفل

ظهرت "فندية" في الصورة جالسةً بأريحية وهدوء أمام مدخل شقتها القابعة تحت الأرض. انعكس في وجهها عصر حافل بالأحداث لكنه خلّف بالكاد آثارًا في وجهها الذي كشف عن أعماقها. كانت هناك قطعة قماش

ملفوفة بشكلٍ غير محكم حول رأسها. وقد تدلى من أذنيها قرط ذهبي. سمح فستانها التقليدي الطويل بإلقاء نظرة على ثدييها المسطحين. كان ذراعاها تمتلئان بالعروق مثل كلتا العصوين الطويلتين اللتين أمسكت بهما أمامها دون أن تتكئ عليهما. كانتا على الأرجح رمزًا لقوتها ووقارها. كانت الجدة ترتدي حذاءً مضفرًا من سعف النخيل. وقد نظرت نظرةً ثاقبةً إلى الماضي الممتد لحياتها الطويلة. يُقال إن عمرها كان مائة عام عند التقاط هذه الصورة.

هل تذكرتْ طفولتها الخالية من الهموم وسط أنقاض المعابد الجنائزية التي تصور جدرانها دائمًا انتصار قدماء المصريين على شعوب اندثرت منذ زمن بعيد، وأداءهم صلوات إلى الآلهة التي لم يعد يؤمن أحد بها؟ ألعاب الغميضة بين أرجل تماثيل الحكام الضخمة؟ ألعاب التسلق على ظهر تمثال "رمسيس الأكبر" ورأسه الذي كان حينها لا يزال ملقى في الرمال؟

كان "طايع" قد اشترى من السوق أربع حمامات حية لكل منا. وقد حملتها على ركبتي في طريق العودة إلى المنزل في علبة كرتونية بها ثقوب ينفذ منها الهواء. كان علينا أن نذهب بها في البداية إلى زوجة أخيه لتذبحها، لأن أحدًا منا نحن الاثنين لم يكن باستطاعته أن يلوي أعناق الحمامات وينتف ريشها. ثماني حمامات، بدا هذا لي كثيرًا جدًا أكثر مما ينبغي، لكن الآن عندما صارت الحمامات موضوعة على الشواية من دون ريش، بدت كالعدم. حكى لي "طايع" عن "فندية" بينما أخذنا نقرقش عظام الحمامات الصغيرة في تلذذ ونشرب كأسًا من النبيذ.

حياة مدهشة. لم يكن بإمكان "طايع" أن يتذكر عدد الأبناء الذين أنجبتهم "فندية". فحسبما يبدو، يكاد أصل "القرنة" بأكملها يرجع إليها. كانت حياتها تمتلئ بجلب الماء وإعداد الخبز ونتف ريش الحمام والأوز؛ شأنها في ذلك شأن النساء كافة في عصرها. وبالطبع الإنجاب والطاعة، لوالدة الزوج أكثر من الزوج. لكن كان من المعروف أيضًا أن "فندية" كانت داية ومُعالِجة. فكان من الممكن أن يلجأ لها أصحاب الهموم والمشكلات جميعًا. حيث كانت تجيد دائمًا إسداء النصيحة.

بينما أخذ "طايع" يحكي، تخيلتها أمامي: "فندية" تمتطي ظهر جمل، في ليلة باردة، قبالة النيل. إنه فصل الشتاء، فقد تدثرت "فندية" بأغطية.. عبرت "فندية" النيل في زورق، ليس هناك ضوء، فقط نجوم فوقها. أسرعتْ عبر الأزقة المظلمة في "الأقصر" لتساعد طفلًا في الخروج إلى الحياة..

كانت "فندية" تحظى بالتوقير والاحترام البالغ في القبيلة بأكملها، في القرية بأكملها، وصولًا إلى "الأقصر" وأبعد من ذلك. عاشت قرابة مائة وعشرين عامًا هنا. أطلقوا عليها اسم «أم الحربات»؛ أي أم المقابر الملكية.

ظهر في الصورة، على يمين "فندية"، ابنها البكر "أحمد". كان حينها شيخ العائلة. كان ممسكًا بكلتا يديه بعصا أمامه مثلما يمسك الإله بصولجانه، منتصب القامة وشامخًا مثل الإله "بتاح" إله الحرفيين؛ أي «إله كل الآلهة» و«أب كل الآباء». وقد نظر ابنها إلى الكاميرا مباشرةً وهو مدرك لوقاره. كان معروفًا عنه أنه أنجب ستة أبناء من الذكور.

وقفت على يسار "فندية" في الصورة إحدى بنات "أحمد" بشكلٍ جذاب وكانت تحمل طفلها على ذراعها. كان غطاؤها يكشف وجهها أكثر مما يغطيه بينما تشعر بالامتنان أن هناك صورة ملتقطة لها. كانت إحدى الحفيدات الكثيرات، وابنها أحد أحفاد "فندية" الذكور الذين لا حصر لهم. ظهر في الصورة أربعة أجيال. كانت بالتأكيد واحدة من أوائل الصور الفوتوغرافية المُلتقطة للعائلة. وربما أنها أيضًا الصورة الوحيدة التي ظهرت فيها "فندية".

التقطت هذه الصورة عام 1907 ولم تكن عائلة "عبد الرسول" على علم بها حتى عثرت عليها عالمة الآثار الإنجليزية "كارولين سيمبسون" عام 2004 في مرجع علمي عن تاريخ الأقباط في أثناء تفتيشها وسط مكتبات بيع الكتب القديمة في القاهرة، ولحسن الحظ أن "كارولين سيمبسون" أعادت الصورة إلى "القرنة" وإلا لكانت الصورة قد دخلت في طي النسيان إلى الأبد.

"فندية" امرأة قوية في قلب عصر عظيم. كانت قد عايشت كيف كان الآباء يضعون الحمولات على الجِمال سرًا ولا يعودون مرة أخرى إلا بعد عدة أسابيع. كما عاصرت "فندية" الاكتشافات الكبرى كافة في "الأقصر". وكانت تعرف جميع خبراء التنقيب وعلماء الآثار، الذين جاءوا إلى وادي الملوك، من "جيوفاني باتيستا بلزوني" إلى "هوارد كارتر". لكنها لم ترَ الإله الذهبي فقط، أي الملك الصغير "توت عنخ آمون".

كانت "فندية" تبلغ من العمر عشرة أعوام عندما غزا العلماء الفرنسيون، بصحبة جنود "نابليون"، وادي الملوك من أجل إجراء قياس

لمساحته واستكشافه. راقب السكان المحليون الحدث بارتياب. لم ترَ النساء الفرنسيات، إذ كانت هناك أوامر موجهة لهن بألا يُظهِرن أنفسهن للأغراب. بينما كان الصبية يركضون خلف الفرنسيين في توسل. كانت "فندية" والفتيات الأخريات يعرفن أماكن للاختباء، يستطعن منها مراقبة علية القوم والجنود دون أن يراهنَّ أحد.

عندما انسحبت البعثة الاستكشافية من جديد، ظل الناس يتحدثون طويلًا عن الفرنسيين. كان الجميع مسرورين من عودة الوادي لهم مرة أخرى. إلا أن سيطرتهم المطلقة على وادي الملوك لمدة ثلاثمائة عام قاربت على الانتهاء حتمًا ودون مفر من ذلك. فقد ألقى تحول سياسي جذري بظلاله على مصر بأكملها وبدأ يلقي ظلاله على المثوى الأخير لقدماء المصريين العظماء.

كانت "فندية" في الخامسة عشرة من عمرها عندما نصَّب ضابط المرتزقة التركي سابقًا "محمد علي" نفسه بدرجة باشا ونائبًا لوالي مصر، وتولى زمام الحكم في عام 1805. كان "محمد علي" يريد أن يقود البلد، الذي كان تابعًا للإمبراطورية العثمانية حتى ذلك الحين، نحو مستقبل عصري مستقل. وكان على الأمم الأوروبية أن تدعمه بفنييها وخبرائها. فقد أغراهم بأن قدم لهم وعدًا بأنه يحق لهم أخذ ما يحلو لهم. بعبارة أخرى: لقد أهدى "محمد علي باشا" كنوز قدماء المصريين للغرب.

هكذا بدأ نهب الأوروبيين لمصر وإرثها بصورة ممنهجة. وقد لعبت أقوى الدول؛ وهي فرنسا وإنجلترا والنمسا وبروسيا، الدور الرئيسي في ذلك. فتم استئجار وكلاء وإلزامهم أن يحققوا سبقًا على منافسيهم بكل السبل. ما

كان على الوكلاء سوى إدراك طريقة استخدام البارود وكان عليهم أن يعرفوا كيفية تحريك أحمال ثقيلة بالاستعانة بالرافعات وبكرات رفع الأثقال. كما كان لزامًا عليهم أن يعرفوا كيفية التعامل مع الديناميت من أجل نسف مداخل المقابر ومع البندقية من أجل القضاء على المنافسين. إذ كانوا يذهبون بانتظام لاقتناص الممتلكات التي خلَّفها قدماء المصريين.

دخل الفرنسيون والبريطانيون، في المقام الأول، في سباق على التحف المصرية الأصلية. وهكذا نشأت منافسة شرسة بين القنصل العام البريطاني "هنري سولت"؛ كان رجلًا يملك زمام أمره ولم يكن يغادر القاهرة تقريبًا، وكان يبحث عن مساعدين آخرين يدفع لهم مقابلًا ماديًا جيدًا. والقنصل العام الفرنسي "برناردينو دروفيتي" الذي كان رجلًا مفعمًا بالنشاط ولم يكن يكل من مطاردة الآثار بنفسه في أرجاء مصر كافة.

منذ تعيين "هنري سولت" في منصب القنصل البريطاني العام في سنة 1815، شارك بشكل قانوني وغير قانوني في صفقات بيع الأعمال الفنية وبحث في مجال المصريات وموَّل عديدًا من أعمال الحفر والتنقيب في مصر و"النوبة". واستغل في ذلك منصبه بوصفه قنصلًا عامًا. فدبَّر أمر كثير من الأعمال الفنية القيمة من أجل المتحف البريطاني، ولكنه زوَّد في المقام الأول حصيلة ما جمعه من أعمال فنية، باعها للندن وكذلك لمتحف "اللوفر" في باريس عندما رفض المتحف البريطاني دفع ثمن باهظ في مقابلها.

قدَّم منافسه الكبير "برناردينو دروفيتي"، الذي كان ضابطًا سابقًا في حملات "نابليون" في مصر، الدعم لـ"محمد علي باشا" بوصفه القنصل العام لفرنسا وأعاد تنظيم جيشه، بالإضافة إلى أمور أخرى فعلها. كما

استغل منصبه في مصر لجمع كنوز الفن والتنقيب عنها. وفي سبيل ذلك، قام بتشغيل مجموعة كاملة من الوكلاء الذين كانوا يقتفون أثر التحف الأثرية في البلد كلها. لم يكن الوكلاء يتورعون أيضًا عن استخدام الديناميت. لقد كلَّف "برناردينو دروفيتي" رجاله بأمور عديدة من بينها نسف التمثال النصفي لـ"رمسيس الأكبر" في معبد "الرامسيوم" في "الأقصر" لكي يُسهِّل نقله إلى متحف "اللوفر" في باريس. إلا أن "جيوفاني باتيستا بلزوني" الوكيل الأكثر نجاحًا، الذي تعاون مع "هنري سولت"، سبقهم في ذلك.

وُلِد "جيوفاني باتيستا بلزوني" في مدينة "بادوفا" في إيطاليا. قضى "بلزوني" الجزء الأكبر من سنوات شبابه في روما حيثما كان يتأهب لأن يصبح راهبًا. إلا أن الاضطرابات الناجمة عن غزو الجيش الفرنسي لروما غيَّرت مجرى حياته. فمنذ ذلك الحين، صار "بلزوني" يحيا حياته في ترحال وكان ينتوي السفر دائمًا. وكان قد بدأ بالفعل في الانشغال بعلم "الهيدروليكا" و"الميكانيكا". استخدم "بلزوني" هذه المعرفة، في بادئ الأمر، في لندن عندما عمل بهلوانًا في السيرك والمسرح. وبسبب قوته البدنية غير العادية، أصبح "بلزوني" معروفًا بـ"الرجل القوي". كان الجمهور يصرخ من فرط الاستمتاع عندما كان الشخص، الذي كان يستعرض قوته البدنية باعتباره "شمشون البتاجوني"، يمشي متبخترًا على خشبة المسرح بينما يكون النصف الأعلى من جسده عاريًا. كان "بلزوني" يحمل على كتفيه سقالة من الحديد وفوقها اثنا عشر بهلوانًا متكدسين إلى أعلى على هيئة هرم. وذلك رغم أنه لم يكن يستطيع أن يثبت هذا الشكل الهرمي

بيديه، فقد كان يلوِّح بالإضافة إلى ذلك بأعلام صغيرة. ظل "بلزوني" يجتهد طوال تسع سنوات بتقديم عروض مثيرة رائعة من هذا القبيل، وكانت زوجته "سارة" ترافقه دومًا.

وصل "بلزوني" إلى "الإسكندرية"، التي تفشَّى الطاعون فيها، في عام 1815 وكانت معه فكرة تخص أحد أنظمة الري، أراد أن يعرضها على "محمد علي باشا". كان "بلزوني" يتوقع أن تجعله فكرة الساقية ثريًا. إذ كان من المفترض أن تُحدِث رافعة ذات عجلة أفقية، يدور بها ثور وحيد، الأثر نفسه الذي يُحدِثه في المعتاد أربعة ثيران. عندما تم عرض الاختراع على "محمد علي باشا" في القاهرة، خطر بباله الفكرة المضحكة أن يُبعِد الثور عن العجلة وأن يستبدله بخمسة عشر رجلًا. كان خادم "بلزوني" الأيرلندي "جيمس كيرتن" واحدًا منهم. بعد لفة واحدة، وثب الجميع وتركوا "جيمس" المسكين وحده. فارتدت العجلة، التي لم تتوازن بفعل الوزن الزائد لكتل الماء، بشدة وقذفت "جيمس" بالخارج فانكسرت ساقه. كان هذا نذير شؤم، وعدل الباشا عن الأمر برمته.

حدث التحول في حياة "بلزوني" بسبب لقائه بالمستشرق السويسري "يوهان لودفيج بوركهارت". كان "بوركهارت" قد أطلق على نفسه اسم "الشيخ إبراهيم بن عبد الله" لكي يحرز تقدمًا في رحلاته بصورة أفضل، وأيضًا بدافع الاهتمام بالثقافة العربية. حتى أنه اعتنق الدين الإسلامي رغم أن أسرته الأرستقراطية في مدينة "بازل" قد أنكرت هذا الأمر فيما بعد. كان "بوركهارت" أول أوروبي يزور مدينة "البتراء" الصخرية، التي تقع داخل حدود الأردن حاليًا، كما زار معبد "أبو سمبل" في الصحراء النوبية.

استأجر القنصل العام البريطاني "هنري سولت" "بلزوني" القوي بناءً على نصيحة من "بوركهارت" وزوَّده بخطابات توصية وبمال كافٍ من أجل مشروع تقني ضخم؛ إذ كان عليه أن ينقل من "الأقصر" الرأس الضخم والمصنوع من الجرانيت لتمثال "رمسيس" الإلهي ويذهب به إلى "الإسكندرية"، باعتباره هدية للمتحف البريطاني في لندن.



6
"بلزوني" العملاق وأهل "القرنة"

نزل "جيوفاني باتيستا بلزوني" - ذلك الرجل العملاق الذي بلغ طوله مترين تقريبًا - بشكل استعراضي مسرحي ومتعجرف من القارب إلى ضفة النيل، وهو يرتدي ملابس كأنه رجل مصري وقد أطلق لحيته سوداء اللون، وكانت بصحبته زوجته "سارة" وخادمه "جيمس" ومترجم شفهي قبطي. مشهد مسرحي مثير للإعجاب؛ إذ جاءوا جميعًا لإخراج رأس "رمسيس الأكبر" من معبده الجنائزي وإرساله إلى المتحف في لندن.

كانت أفكار "بلزوني" تنصب على التمثال النصفي الضخم الذي انتوى أن ينقله بعيدًا. «كان الوجه متوجهًا صوب السماء وبدا مبتسمًا لي كأنه يتطلع مسرورًا للانتقال إلى إنجلترا». لم تكن الأبعاد الضخمة للرأس، وإنما بهاؤه، ما فاق توقعات "بلزوني" كافة. فقرَّر بشكلٍ عفوي أن يأمر بإحضار متاعه كافة من قارب النيل وأثث لنفسه مكانًا للإقامة في معبد "الرامسيوم" لكي لا يضطر لأن يهدر وقتًا دون داعٍ في أثناء العمل. انتقلت معه زوجته "سارة" أيضًا، حسبما روى هو قائلًا: "لأن السيدة "بلزوني" كانت قد اعتادت على الحرمان من بعض الأشياء في أثناء السفر، وهي لم تكن لها متطلبات كثيرة في مكان الإقامة، شأنها في ذلك شأني بالضبط".

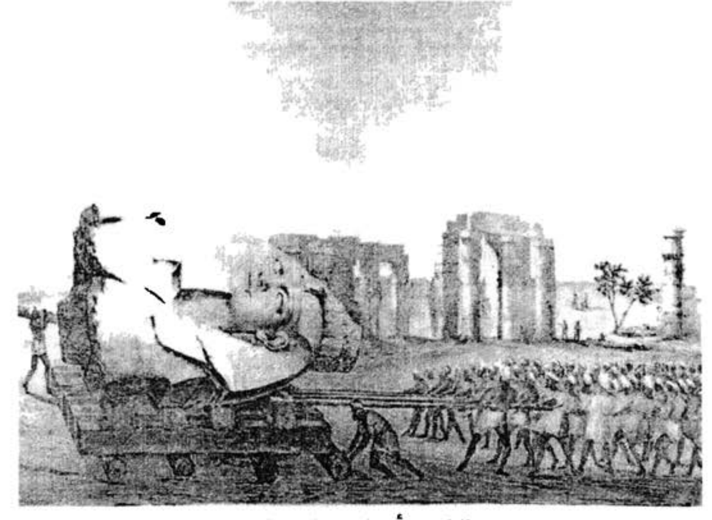
لقد جاء "بلزوني" بتوصية من "محمد علي" والي مصر وبخطاب مكتوب إلى المسئولين المحليين، ألزمهم فيه بدعمه بالأيدي العاملة اللازمة. إلا أن الحصول على مساعدة من الحكام الأتراك للمناطق المصرية تطلَّب وسائل إقناع كثيرة وهدايا وحيلًا، وكثيرًا جدًا جدًا من الصبر.

توجه "بلزوني" إلى رئيس مركز "أرمنت" لكي يحصل منه على أمر موجه إلى واليه في "القرنة" لكي يكون من الممكن إتاحة ثمانين رجلًا عربيًا لنقل الرأس. استقبله الحاكم التركي باللياقة الدبلوماسية المعهودة، إلا أنه لم يكن مستعدًا بأي حال من الأحوال لتلبية رغبات الزائر. حيث أكد له مرارًا وتكرارًا أنه سيفعل كل ما في وسعه من أجل حث الرجال على العمل، لكن حينها كان كل الرجال للأسف مسخرين للعمل في الحقول من أجل الباشا. فقال رئيس المركز لـ"بلزوني" إنه ينبغي عليه ألا يبدأ في مشروعه إلا بعد انتهاء موسم فيضان النيل. اعترض "بلزوني" قائلًا إنه يعلم أن عديدًا من الرجال العرب سيكونون سعداء بالتأكيد عند إيجاد عمل، فرد عليه الحاكم أن هؤلاء قد يفضِّلون أن يجوعوا عن أن يؤدوا عملًا شاقًا مثل نقل التمثال النصفي. وفي الختام، رد عليه هذا الموظف قائلًا: "غدًا، غدًا سوف أرى إذا كنا سنستطيع أن نجد رجالًا".

جاء صباح اليوم التالي، لكن لم يكن هناك رجال. حاول "بلزوني" أن يقنع الرجال العرب، الذين كانوا لا يعملون، بأن يعملوا. لكنهم لم يجرؤوا على مساعدته دون الحصول على تصريح رسمي بذلك. رغم أنه كان من الأفضل لهم أن يتقاضوا مالًا. في النهاية، دفع "بلزوني" لعمال اليومية زيادة تُقدَّر بمقدار النصف عن الأجر الذي يتقاضونه عند عملهم في فلاحة

الأرض. بعد بضعة أيام، أرسل رئيس المركز أخيرًا بضعة رجال إلا أن عددهم كان قليلًا جدًا. غير أن فلاحي "القرنة" عندما رأوا ذلك، جاءوا أيضًا وعزموا على تقديم المساعدة.

كان "بلزوني" قد أحضر من القاهرة أربع عشرة دعامة خشبية من أجل عملية النقل وفي سبيل بناء إطار لنقل الرأس، ذلك بالإضافة إلى أربعة حبال من سعف النخيل وأربع بكرات نقل. لم يكن معه معدات أكثر من ذلك. ولم يتأتَّ له الحصول على بكرة لرفع الأثقال. وعندما انتهى أحد النجارين من صناعة عربة على شكل سيارة من الدعامات الخشبية، صار من الممكن أن تبدأ العملية.



رمسيس الثاني يبدأ رحلته إلى المتحف البريطاني

تَوافد الناس من كل حدب وصوب على القرية الصحراوية بأكملها لكي يعايشوا المشهد. لم يكن الفلاحون يصدقون أنه يمكن نقل هذا الرأس من موضعه. لكن عندما ارتفعت قمة رأس "رمسيس الأكبر" شيئًا فشيئًا من الرمل، انفجروا في صراخٍ عالٍ ورأوا أن تلك المعجزة من عمل الشيطان وليست نتيجة لجهدهم. فقد رأوا أن "بلزوني" أخذ يدون ملاحظات وكانوا على قناعة أن معه تميمة ذات قوة سحرية. تم نصب التمثال النصفي بالاستعانة بأربع عتلات رفع حتى صار من الممكن أن يتم دفع العربة أسفله من أحد الجوانب. تم رفع الرأس ببطء وحذر على الإطار وتم ربطه بالحبال بإحكام. وقف رجال على جانبي العربة ومعهم رافعات من أجل تثبيت التمثال النصفي المتأرجح. شدَّ الرجال الحبال الأربعة، بينما أخذ آخرون يضعون البكرات بعد ذلك. في المساء، كان التمثال قد قطع مسافة بضعة أمتار. فأرسل "بلزوني" رسولًا إلى القاهرة يحمل نبأ أن الرأس الضخم بدأ الرحلة إلى إنجلترا.

إلا أن "بلزوني" صار منهك القوى. "لم يسبق لي في حياتي قط أن شاهدت شمسًا حارقةً بهذا القدر. كان أكثر فصول السنة حرارةً وبدا أن الهواء يحترق". تدهورت حالة "بلزوني" الصحية في المساء. فاستلقى وأصيب بالغثيان. في اليوم التالي، عجز "بلزوني" عن الوقوف على قدميه واضطر لتأجيل العمل. كما أصبح مجبرًا في الأيام التالية أن يوقف العمل مرارًا وتكرارًا بسبب شعوره بالدوار وصار الدم يسيل مندفعًا من فمه وأنفه. اضطر "بلزوني" لإرسال غلامه الأيرلندي إلى القاهرة، فقد صارت قدرته على الصمود خائرة بسبب صراعه مع المناخ. كان من المثير للدهشة

أن حال زوجته "سارة" كان جيدًا طوال الوقت حسبما ورد في ملاحظة دوَّنها "بلزوني". حيث إنها أقامت لدى سيدات في مساكن القرية المقامة عند المقابر. كان الجو هناك باردًا بدرجة مقبولة. استطاعت "سارة" أن تتفاهم معهن بالكلمات، التي كانت قد تعلَّمتها في أثناء رحلتها إلى القاهرة، وبالإشارات بالأيدي، والأقدام، وبالضحكات.

فجَّر "بلزوني" قاعدة تمثالين في سبيل إخراج التمثال العملاق من المعبد بنجاح. إذ كان يتخوف من أن يبدأ فيضان النيل السنوي عما قريب ويصبح البلد بأكمله حتى الضفة مغمورًا بالماء. كان الطريق، الذي اضطروا للسير فيه، غير ممهد تمامًا وتغمره المياه كذلك في حال وجود الفيضان. وكان التمثال النصفي سيغرق ولن يصبح من الممكن انتشاله إلا في العام التالي. أما لو عبروا هذا الجزء الممهد في اليوم التالي، فسوف يتجاوزون الخطر. تفقَّد "بلزوني" الموضع في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وأفزعه أنه اكتشف أن أحدًا من الفلاحين - خلافًا للنجار والحراس - لم يأتِ إلى العمل. اتضح في وقتٍ لاحق أن رئيس المركز كان قد أصدر أمرًا بإنهاء المشروع بشكل مباغت. يقال إن "بلزوني" كان يريد أن يطلق النار عليه لكنه لم يفعل ذلك وإنما أهداه مسدسين، فأصبح من الممكن استكمال عملية النقل في اليوم التالي.

رغم كل المصاعب، وصل "بلزوني" إلى ما لم ينجح فيه جنود "نابليون" أو رجال "دروفيتي" من قبله، حيث نقل التمثال النصفي لـ"رمسيس الأكبر"، الذي يبلغ وزنه سبعة أطنان من الجرانيت، لمسافة

تبعد أربعة كيلومترات عن النيل. ووصل الرجال إلى الضفة في خمسة عشر يومًا فقط.

منح "بلزوني" كل عامل بقشيشًا بالإضافة إلى الأجر المتفق عليه مما أسعدهم بشكل غير عادي. كتب "بلزوني" عن هذا قائلًا: "لم تكن المشقة تضاهي أي عمل آخر. كان جرُّ حمولة ثقيلة كهذه، ووزن الدعامات الخشبية التي اضطروا لاستخدامها بوصفها رافعات، والاستبدال المستمر للبكرات في ظل ارتفاع بالغ لدرجات الحرارة والغبار، تعدُّ مجهودات لم يكن من الممكن لأي أوروبي أن يتحمَّلها. إن عدم تناولهم لأي طعام أو شراب طوال اليوم بسبب شهر رمضان يعد أمرًا مؤثرًا بشكلٍ خاص. لا أستطيع أن أتصور حقًا كيف استطاعوا أن يتحملوا مرور الأيام على هذا النحو وطريقة العمل غير المألوفة لهم تمامًا".

تُرى من كانوا الرجال الذين عملوا معه؟ في بداية العمل تبَّرم "بلزوني" من عمال اليومية لديه بقوله: "تقتصر طرق العمل، التي يتمكن منها الفلاحون، على جر حبل أو الجلوس عند طرف إحدى الرافعات لإحداث توازن في الحمولة". واشتكى "بلزوني" من عدم اكتراث الفلاحين ونقص قدراتهم؛ شأنه في ذلك شأن كثير من خبراء التنقيب قبله وبعده. إلا أن رفض الفلاحين لأداء العمل معه كان دائمًا سلاحًا يوجهونه ضد الأعمال التي يبغضونها. فما الذي كان سيثير اهتمامهم في المساعدة في نقل كنوزهم إلى أوروبا البعيدة؟ لقد وصف "بلزوني" أهل "القرنة" بأنهم مرتابون تجاه الأغراب للغاية وغيورون، وأنهم حريصون جدًا على أن يخفوا

اكتشافاتهم الأثرية قدر الإمكان. كان الكتمان هو القانون الأسمى، حتى فيما بينهم، رغم أن الجميع كانوا يعرفون كل شيء تقريبًا عن الجميع.

فاق أهل "القرنة" جميع العرب الآخرين في الحيل الوفيرة ومناورات الخداع، وما من أحد في مصر يتصف بالاستقلالية أكثر منهم. إنهم يتفاخرون بأنهم آخر من خضع لنِير الفرنسيين وأن رجالهم استطاعوا بعد الخضوع للفرنسيين أن يطالبوا بثمن مقابل كل عملهم، وكانوا يحصلون على ما يطلبونه. لم يكن أهل "القرنة" يرغبون في تلقي أوامر من أي شخص؛ لا من المماليك ولا من الباشا. وقد فرضت عليهم كل الحكومات التي تولَّت الحكم في مصر أقسى عقوبات وطاردتهم كأنهم وحوش ضارية. كانت مساكنهم ومخابئهم منيعة، إن جاز القول. جاء حديث "بلزوني" عن الفلاحين أو عن أهل "القرنة" مشابهًا لما قاله أغلب الكتاب الأوروبيين. لم يذكر "بلزوني" أبدًا اسم "عبد الرسول". لكن لا بد وأنه عرفه، إذ لم يمر أي شخص في "القرنة" على هذا الاسم مرور الكرام. يمكن على الأرجح افتراض أن شيخ "القرنة"، الذي أجاد القراءة والكتابة، والذي جمعه العمل مرارًا وتكرارًا بـ"بلزوني"، كان كبير عائلة "عبد الرسول". كان أفراد عائلة "عبد الرسول" في هذا المكان خبراءً في كل ما يتعلق بأعمال الحفر والتنقيب. وكانوا أندادًا لـ"بلزوني" في الضخامة والبراعة ويعرفون ما يختبئ في المكان من أسرار. كانوا يوازون الشخص القادم من لندن، الذي كان يستعرض قوته البدنية والذي اقتحم منطقتهم، وفاقوا "بلزوني" في الطموح. لقد حظي "بلزوني" بالاحترام بسبب نقل التمثال العملاق والذهاب به إلى البر الغربي وبالتأكيد أيضًا

بسبب تودد زوجته لنساء "القرنة" الذي كان في ذاك الوقت أمرًا غير معتاد على الإطلاق.

عندئذ صار التمثال النصفي لـ"رمسيس" على ضفة النيل وبانتظار السفينة من أجل نقله. كان لدى "بلزوني" وقتٌ لأن يتفرغ لمشاريعه الخاصة المتمثلة في تكوين مجموعة القطع الأثرية الخاصة. تعرَّف "بلزوني" في اليوم التالي بالفعل على حيل أهل "القرنة" الكثيرة. حيث طلب من أحدهم أن يقوده لمكان تابوت حجري، كان "دروفيتي" قد رآه بالفعل لكن لم يستطع أن يستخرجه. خلع من رافقه من أهل "القرنة" ملابسهم فأصبحوا نصف عرايا وهبطوا إلى متاهة ذات ممرات تحت الأرض وهم يحملون شموعًا. وكانوا يضطرون في بعض الأحيان لأن يزحفوا مثل التماسيح. فقد "بلزوني" القدرة على تحديد الاتجاهات بسبب وجوده على مسافة عميقة، وسلَّم أمره للشخصين اللذين كانا يرشدانه. ساروا جميعًا عبر كهوف مقابر، وفوق جماجم وعظام. في النهاية، صار الممر ضيقًا جدًا لدرجة أن "بلزوني" الضخم لم يستطع أن يواصل السير فيه. بينما واصل مترجم "بلزوني" وأحد المرشدين الزحف. صارت أصواتهما المغمغمة تبتعد. ثم سمع "بلزوني" فجأة صوت انفجار عالٍ ومترجمه يصرخ: "يا إلهي! أنا تائه". بعد ذلك، ساد صمت عميق. أراد "بلزوني" أن يعود. لكن اتضح له أن المرشد، الذي واصل معه، لم يسبق له قط أن زار هذه الكهوف ولا يعرف الطريق. وصارت الشموع الأخيرة على وشك النفاد. لقد ضلَّ كلاهما الطريق في مسارات مسدودة. ثم

سمع "بلزوني" أصواتًا بعيدة، تتبعها حتى خرج إلى الهواء الطلق، وجد نفسه واقفًا أمام مترجمه.

حكى له المترجم عن القصة الحقيقية الكاملة لهذه البعثة الاستكشافية. إذ كان المرشد الثاني قد سقط في حفرة وسمع الرجال بالخارج صياح المترجم. ففتحوا على الفور ممرًا سريًا مباشرًا، كانوا قد أغلقوه بالفعل بأنفسهم، وأنقذوا الشخص الذي سقط. لم يكن الطريق الملتوي بأكمله عبر المتاهة ذات الممرات والكهوف سوى حيلة؛ إذ كان ينبغي ألا يعرف "بلزوني" أين يقع التابوت الحجري بالضبط وأن يمكن استخراجه مباشرةً بسهولة تامة. عن هذا كتب "بلزوني" قائلًا: "أرادوا أن يحصلوا على ثمن إضافي مقابل هذا السر". وقد فوَّت الفرصة عليهم سقوط الرجل التابع لهم. ومن جديد، خرج "بلزوني" من أحد اختبارات القوة منتصرًا. وازداد الاحترام، الذي حظي به الرجل الإيطالي، بشكل ملحوظ.

بدأ رجال "بلزوني" من أهل "القرنة" في استخراج التابوت الحجري. لكن عندئذ مالت كفة الميزان الدبلوماسي مرة أخرى؛ إذ كان القنصل الفرنسي "دروفيتي" قد أمر بإرسال هدايا لرئيس المركز، فذهب بعدها رئيس المركز إلى "القرنة" وأمر بالقبض على عمال "بلزوني" كأنهم لصوص والزج بهم في السجن. وقال إن التابوت الحجري قد بيع بالفعل للفرنسيين ولا يمتلك أي شخص آخر حقًا فيه.

أصبح طريق "بلزوني" مسدودًا. بينما ظل التمثال النصفي لـ"رمسيس" موضوعًا على ضفة النيل، لأن "بلزوني" لم يعثر على سفينة لينقله، حزم "بلزوني" أمتعته وسافر مع "سارة" نحو أعالي النيل إلى

"أبو سمبل"، أي إلى المعبد الذي جذب "بوركهارت" نظره إليه. وحاول "بلزوني" بلا طائل الكشف عن المعبد.

عندما عاد "بلزوني" مرة أخرى، قضى من جديد وقتًا كثيرًا في "القرنة". كان سكان "القرنة" البالغ عددهم قرابة ثلاثمائة نسمة لا يزالون يسكنون عندئذ في مداخل كهوف المقابر المفتوحة. وكانت هناك جدران من تراب وطين تفصل بين غرف معيشتهم وبين أبقارهم، وجمالهم، وجواميسهم، وأغنامهم، وماعزهم، وكلابهم، ودجاجهم، وحمامهم. شعر "بلزوني" عندهم كأنه يقيم في بيته، فكان يعرف كل زاوية وكل ساكن وكانوا يعرفونه هم أيضًا. كما اهتم "بلزوني" بظروف معيشتهم. جذب انتباهه أنهم ليس لديهم مسجد، ولا يريدون - حسبما بدا له - بناء مسجد، رغم الأحجار الكثيرة المتوافرة لديهم. لاحظ "بلزوني" أن من يقومون بأعمال الحفر والتنقيب من سكان "القرنة" ينقسمون إلى فئتين: "أصحاب الخبرة والمعرفة الخاصة يقومون بأعمال البحث لحسابهم الشخصي وهناك ثمانية أو عشرة مساعدين ممن يُشغِّلونهم باعتبارهم موظفين". وبينما كان العمال يؤدون العمل، كان "بلزوني" يُفتِّش في المقابر. وعندما لا يرغب في عبور النهر مساءً لكي يعود إلى مكان إقامته في معبد "الأقصر"، كان يلتمس المبيت عند سكان الكهوف. فكانوا يذبحون من أجله دجاجة ويطهونها في فرن صغير مُوقد بأخشاب توابيت قدماء المصريين. ويجلسون القرفصاء حوله ويحكون عما عثروا عليه وعن اكتشافاتهم. "عُرِضَت عليَّ قطع مختلفة لكي أشتريها وكثيرًا ما كنت أعتبر نفسي سعيدًا لأنني قضيت الليل معهم". كان "بلزوني" يدفع "أسعارًا عادلة" وكان باستطاعته حتى

في بعض الأحيان إقناعهم أنه سيكون من الأفضل لهم أن يعملوا لصالحه، فالأجر الثابت يضمن الحصول على دخل حتى في الأيام التي لا توجد فيها اكتشافات أثرية.

عندها تركه أهل "القرنة" أخيرًا يتوغل في أعماق المقابر حيث توجد المومياوات. في حين لم يُظهِروا للسياح الآخرين، الذين كانوا يريدون شراء تحف أثرية أصلية، شيئًا آخر أكثر من مداخل الكهوف. "صار معي الآن تصريحٌ بالذهاب إلى أي كهف به مومياوات". ذات مرة اضطر "بلزوني" إلى الزحف عبر ممر طويل مزدحم وضيق. كان الممر ممتلئًا بمومياوات ولم يستطع "بلزوني" أن يواصل الحركة دون أن يلتقي بوجه أحد الموتى من قدماء المصريين. "كان الغرض من نشاطي البحثي أن أسرق البرديات من المصريين. عثرتُ على بعض منها مخبأة في القفص الصدري، أسفل أذرعهم، على السيقان، أو مغطاة أسفل شرائط الأقمشة التي كانت المومياوات ملفوفة بها". كان الهواء الثقيل والخانق يجعل "بلزوني" على وشك فقدان الوعي في كثير من الأحيان.

إلا أن وكيلين تابعين لـ"دروفيتي" في مدينة "طيبة" وضعا الصعاب في طريق "بلزوني" عندما سمعا عن نجاحاته التي حققها في جمع بضعة آثار نفيسة للغاية. فهمس قائدهم، الذي كان جنديًا فرنسيًا هاربًا من الجيش، في أذن "بلزوني" قائلًا إنه سوف يُقطَع عنقه إن استمر في مشروعاته. كما جمع الوكيلان رجال "القرنة" وأوضحا لهم في حضور "بلزوني" أن رئيس مركز "أرمنت" سوف يأمر بضربهم ضربًا مبرحًا لو باعوا تحفًا أثرية أصلية للإنجليز من الآن وصاعدًا.

"أدركت أنني يجب عليَّ أن أستعد لمقاومة عنيفة ولبعض الصعاب. وأخذتُ أمارس أعمالي الأخرى بعد أن ارتاحت السيدة "بلزوني" للإقامة في منزل شخص عربي في "الأقصر" ".

لا يتطرق تقرير "بلزوني" إلى كيف وأين سكنت زوجته، لكنها نفسها روت هذا الأمر. إذ تتضمن النسخة الإنجليزية من تقرير "بلزوني" الشهير عن مصر ملحقًا بسيطًا بعنوان "تقرير السيدة "بلزوني" غير المهم عن نساء مصر و"النوبة" وسوريا". في حقيقة الأمر، كان التقرير إنجازًا رائدًا. فبينما باشر "بلزوني" أعماله في الحفر وعمليات الاقتناء، انخرطت "سارة" وسط المصريات ووجدت في كل مكانٍ سبيلًا للدخول إلى غرف النساء. أخذت "سارة" تتحدث وتراقب وتدوِّن ملاحظات عن العلاقات الأسرية والفرح والصراعات والعادات المنزلية ومصائر النساء، وهو ما لم يسبق لأي امرأة أوروبية أخرى أن فعلته. وكانت "سارة" تحمل مسدسين أسفل ملابسها النسائية من أجل الاستعداد للمواقف الصعبة، سواءً عند وجودها إلى جانب زوجها "السيد باء" - مثلما كانت تُطلق على "بلزوني" - أو بمفردها.

أقامت زوجة "بلزوني" في "الأقصر" في مكان مخصص للحريم، إن جاز التعبير؛ أي في غرفة تخص النساء فقط، تقع فوق أحد الأسطح في الهواء الطلق. كانت ثمار التمر تُجفَّف من حولها في الشمس. وكان الأثاث عبارة عن موقد بسيط به ثلاث طوبات وعليه قِدر وبجواره جرَّة ماء. لقد عاشت زوجة مالك المنزل مع بناتها الأربع ووالدة زوجها في هذا المنزل الواقع فوق السطح. دعت السيدات زوجة "بلزوني" لأن تتناول الطعام معهن. لكن زوجة "بلزوني" عندما رأت كيف قامت زوجة مالك المنزل

بتقطيع اللحم بأسنانها لكي تقسمه إلى قطع صغيرة، لم تبتلع منه قضمة واحدة رغم ما كابدته من مشقة بعد رحلة سفر طويلة. كانت النساء من المناطق المجاورة يأتين وقد ملأهن الفضول ليرين زوجة "بلزوني" ويتحسسن ملابسها ويسمعن حكايتها. تزوج مالك المنزل من سيدة أخرى. لم يمر هذا الأمر بسلاسة. فقد نشأ صراع مرير بين كلتا الزوجتين. واضطرت "سارة" لأن تنحاز إلى إحداهما واعتراها حتى شعور بالخوف من أن يدس أحد السم لها. فسعت لأن تجهز وتغطي ركنًا لها في المنزل. واستجلبت حُصُرًا من السوق، وأثثت بذلك لنفسها غرفة صغيرة خاصة بها ذات جدران وسقف. "شعرتُ فيها بالرضا كأنني في قصر في أوروبا".

لكن بعد ذلك أصابتها حمى شديدة وشعرت بأنها وحيدة للغاية أكثر من أي وقت مضى. ومما زاد من صعوبة الأمر أن عاودتها من جديد نوبة من مرض الرمد الحبيبي، الذي داهم "بلزوني" أيضًا عندما كان يعمل في "القرنة". فأخذت الدموع تنهمر من عينيها. ولم تعد تستطيع أن تتحمل الضوء. عندئذ عاملتها النساء بشكلٍ أحسن وأسدين لها نصيحة ألا تغسل عينها كل صباح بالماء. أحضرن لها صبغة معدة من كحول وأعشاب، وقلن لها إن هذا لو لم يأتِ بنتيجة مفيدة في غضون عشرة أيام فإن هذا الألم سوف يستغرق عشرين يومًا أو أربعين يومًا.

"كنت في وضع لا أُحسَد عليه. شعرتُ أنني بائسة. وظننت أنني سأظل فاقدة للبصر للأبد. كانت المرحلة الأخيرة مُروِّعة بشكلٍ خاص. فقد صارت جفوني واهنة ولم أعد أستطيع أن أرفعها". ثم جاءت الجارات وأعددن بخارًا من ماء الثوم. واستطاعت "سارة" أن تستعيد الرؤية بعد أربعين يومًا.

في تلك الأثناء، ظل "السيد باء" يواجه صعوبات ومشكلات في نقل رأس "رمسيس". حيث زعم جميع ملاك السفن فجأة أن أي قارب سوف ينفلق بسبب وزن الكتلة الصخرية. ولم يستطع "بلزوني" في النهاية أن يستأجر قاربًا إلا بمقابل مادي ضخم. إذ كان عليه أن يستغل موسم فيضان النيل وإلا كان سيضطر أن ينتظر إلى العام المقبل. وهكذا وصل رأس "رمسيس الأكبر" إلى "الإسكندرية" بسلام.

دوَّن "بلزوني" ملاحظةً بفخر قائلًا: "لقد جمعتُ في "الأقصر" كثيرًا جدًا من القطع الفنية في تلك الأثناء لدرجة أنني ملأت بها سفينة في حجم سفينة العام الماضي نفسها". لكن عندئذ صدرت تعليمات من أعلى سلطة؛ أي من أمين خزانة الصعيد الذي كان في الوقت نفسه زوج ابنة باشا مصر، وقد شملت التعليمات ضفتي النيل في "طيبة" ونصت على عدم السماح للإنجليز بأي حالٍ من الأحوال بأن يحصلوا على آثار أخرى، وعدم السماح للعرب بأن يعملوا لديهم أو أن يبيعوا لهم شيئًا. فأبلغ شيخ "القرنة" "بلزوني" بذلك الأمر. "شعر الرجل الطيب، الذي كان منحازًا لنا حقًا، بأسف بالغ من ذلك لكنه كان مضطرًا لأن يمتثل للتعليمات". ومرة أخرى، كان وكيلا "دروفيتي" السبب في صدور تلك التعليمات بحجة أنهما نفسيهما لا يستطيعان العثور على أية آثار أو شراءها. وبحجة أن الإنجليز، الذين انقضوا على كل شيء واشتروا تقريبًا القطع الفنية كافة في "القرنة"، هم المتسببون في ذلك. حينها، دافع "بلزوني" عن نفسه بقوله إن جميع القطع الفنية التي عُرِضت عليه كانت تطوعًا.

ذهب أمين الخزانة بنفسه إلى "طيبة" وتفقد الأطلال. كان يستهدف بزيارته تلك شيخ "القرنة" في المقام الأول؛ إذ كان يعرف عنه أنه صديق "بلزوني". فطلب منه أن يحضر ليلًا مومياء لم يتم فتحها. وفي صباح اليوم التالي، كانت المومياء جاهزة أسفل إحدى أشجار النخيل في "القرنة". إلا أن أمين الخزانة سعى إلى بث الخوف في نفوس أهل "القرنة"، فأمر بربط الشيخ مشدودًا على حمار خشبي وتنفيذ عقوبة الجلد عليه أمام أعين أهل القرية جميعًا.

في ظل هذه الظروف، أوقف "بلزوني" أعماله عندئذ لكي يبدأ من جديد في انتشال معبد "أبو سمبل" من الرمال. "بعد أن جمعنا القطع، التي عثرنا عليها في أحد المواضع، وشيَّدنا جدارًا واقيًا من الطين وغطينا كل شيء بالتراب الأسود، تركنا شيخًا عربيًا ليقوم بالحراسة وارتحلنا إلى "أسوان" ".

عندما عاد "بلزوني" بعد عام إلى مدينة "طيبة"، وجد وكلاء "دروفيتي" يمارسون العمل. ومن ثمَّ باشر مشروعه القديم الخاص بالتنقيب في وادي الملوك. إذ كان قد وضع هذه الخطة فيما سبق بالفعل عندما أخذ ينتظر القارب ليتمكن من نقل التمثال النصفي لـ"رمسيس" إلى "الإسكندرية". وكان "بلزوني" قد زار عندئذ مقبرة "أمنحتب الثالث" التي اكتشفتها البعثة الاستكشافية لـ"نابليون". وفي طريق العودة إلى "القرنة"، اكتشف "بلزوني" في كومة الحصى عن طريق الصدفة مقبرة الملك "آي" الذي تولى مقاليد الحكم بعد "توت عنخ آمون".

في البداية، عثر "بلزوني" على مقبرة صغيرة بها ثماني مومياوات بالقرب من مقبرة الملك "آي". وبهذا بدأت سلسلة مذهلة للغاية من

الاكتشافات. حيث أمر "بلزوني" ببدء الحفر والتنقيب في مواضع مختلفة في وادي الملوك في الوقت نفسه. بعد ثلاثة أيام، اكتشف "بلزوني" مقبرة الأمير ابن "رمسيس التاسع". واكتشف في اليوم نفسه مقبرة غير مزخرفة تخص شخصية ما مجهولة وبها مومياوتان عاريتان لامرأتين لديهما شعر أشقر. وبعد يومين، مقبرة "رمسيس الأول"، وبعد ستة أيام، أي في السادس عشر من أكتوبر، تحققت ذروة نجاحه والمتمثلة في اكتشاف المقبرة الضخمة والمُلوَّنة بالكامل الخاصة بالملك "سيتي الأول".

أرجع بعض الناس نجاح "بلزوني" إلى أنه كانت لديه نظرة ثاقبة تمامًا لـ"الأراضي الممتلئة بالاكتشافات الأثرية". ويقال إنه استند إلى افتراض أنه ما زالت هناك كثيرٌ من المقابر الكامنة أسفل كتل الأحجار والأطلال التي تتفكك دائمًا من قمم الجبال. ومن ناحية أخرى، يقال إنه عثر داخل المقابر على كميات كبيرة من المعدات المتراكمة في أكوام ضخمة في مواضع مختلفة من وادي الملوك. وأنه اكتشف في وقت قصير مقابر كثيرة مهمة هكذا بفضل تأملاته الدقيقة وسلوكه المنهجي.

لكن نجاحات "بلزوني" في التنقيب في وقتٍ قصير ذكرتني بحكايات "طايع" و"نوبي" عن الاكتشاف الخاص بـ"توت عنخ آمون". هل ساعدت عائلة "عبد الرسول" "بلزوني" في تحقيق نجاحاته؟ استبعدت هذه الفكرة من جديد على الفور. لكنها لم تفارقني ثانيةً.

وددتُ أن أقتفي أثر "بلزوني". في البداية، أراني "طايع" الوادي الغربي. كان بانتظارنا عند مدخل الوادي "محمد" الحارس ومعه مفتاح مقبرة الملك "آي". كان هو أيضًا ابن عم "طايع" لكنه واحدٌ ممن لا يسمح

لي سوى بمصافحتهم. سرنا معًا كيلومترين حتى نهاية الوادي الصحراوي. كان الوادي أكثر سطوة وروعة من وادي الملوك؛ إذ أحاطت به جدران صخرية ارتفاعها مائة متر قائمة ومتشققة. تمتع الوادي بجمال ساحر. كانت إلهة الوادي ذات حضور طاغٍ. إنها إلهة الأفعى "التي تحب الصمت وحاكمة الغرب والإلهة الحارسة للموتى".

أُطلِق على الوادي الغربي اسم "وادي القرود" أيضًا؛ حيث يجلس اثنا عشر قردًا ضخمًا على الجدار الأيمن في غرفة دفن الملك "آي". أراني "محمد" عند قبو مدخل المقبرة الموضع الذي دوَّن فيه "بلزوني" اسمه بلونٍ أسود وخلَّد فيه ذاته.

ذهب "طايع" وابن عمه إلى الخارج لكي يدخنا. صرتُ عندئذ وحدي في الغرفة التي لم يعد فيها المكان هو المكان ولا الزمان هو الزمان. حيث يصطحب الآلهة التسعة البدائية "رع - حوراختي" و"أتوم" و"شو" و"تفنوت" و"جب" و"نوت" و"أوزيريس" و"إيزيس" و"حورس" والملك "آي" في زورق إلى العالم الآخر، إلى واقع آخر، تكمن قوته في استمراريته.

على الجدار الأيمن، يلقي الملك "آي" والملك "كا" التحية على الآلهة "حتحور" و"نوت" و"أوزيريس". بينما يظهر إله الشمس على هيئة جعران. وبالأسفل الاثنا عشر قردًا الذين قيل إنهم يعبِّرون عن سعادتهم من عودة شروق الشمس. وفي منتصف المقبرة، يوجد تابوت مصنوع من حجر الجرانيت.

في طريق العودة عبر أكوام الحصى، تركت "طايع" و"محمد" يسبقانني وبقيت خلفهما على مسافة بعيدة. حيث وددت أن أجعل هذا الوادي

الصحراوي الموحش يترك أثرًا في نفسي لكي تندمج انفعالاتي مع "بلزوني" والعصر الذي عاش فيه. عندئذ أدركتُ فجأة ما الذي جعلني أتشكك في نجاحات "بلزوني". فقد سرت حينها في شارع عريض من الزلط عبر الوادي الطويل. لكن قبل مائتي عام، كان هناك على أقصى تقدير طريق ضيق مخصص للحمير. ومن المؤكد أن "بلزوني" كان معه مرشد من أهل البلد، أراه مقبرة "أمنحتب الثالث". فالمقبرة تقع في شارع جانبي لا يبعد كثيرًا عن مدخل الوادي. لكن مقبرة الملك "آي" لا تقع في هذا الطريق، فهي تقع على مسافة كيلومترين في الخلف. فكيف عثر عليها إذًا؟

أراد "طايع" أن يطهو في هذا المساء أحد الأطعمة المفضلة لي. كنت أحب أن يطهو "طايع" الطعام وأحب طريقته في الطهي والطعام الذي يطهيه. أراد "طايع" أن يشتري المكونات في "الأقصر". لم أرد بعد الساعات التي قضيتها في وادي الإلهة "التي تحب الصمت" أن أذهب بالسيارة إلى المدينة عبر جسر النيل الحديث. فقد رأيت أن الأنسب لمزاجي أن نعبر الماء بقارب. ولذلك أوقفنا السيارة بجوار الجِمال بالقرب من المعدية وعبرنا "الطريق الإلهي" في أحد القوارب المُلوَّنة بألوان زاهية.

"الأقصر"، مدينة المائة باب، مدينة التناقضات الصارخة، التي يتلاحم فيها الماضي الفرعوني والحاضر المعاصر. ويمتلئ الهواء بروائح التوابل الطيبة وروث الخيول ورائحة البنزين القوية. عبرنا الكورنيش باتجاه موقف سيارات الأجرة، بين الحافلات السياحية والسيارات التي تطلق أصوات أبواقها والعربات المُسرِعة التي تجرها الخيول. من بعيد لوَّح لنا سائق أجرة بيده؛ من جديد أحد أبناء عمومة "طايع".

بعد أن تبادلا القبلات وقدما لبعضهما سجائر، مضينا عبر أطلال معابد الشمس المضيئة في أزقة ضيقة وممتلئة بالغبار ومظلمة، انحشرت فيها سيدات يرتدين ملابس سوداء ويحملن سلالًا على رؤوسهن، وكذلك عربات تجرها حمير. سرنا بطريقة متعرجة وسط أكشاك في السوق بها ثمار برتقال وخضراوات وأسماك ووصلنا إلى محل الجزارة الصغير الذي يبيع أفضل لحم خراف في "الأقصر". هذا ما أكده لي "طايع" وصدَّق عليه ابن عمه سائق سيارة الأجرة.

عندما عدنا إلى المنزل، أخذت أراقب كيف قطَّع "طايع" اللحم ووزعه في إناء الطهي الأسود. غطَى "طايع" اللحم بكمية وفيرة من زيت الزيتون والبصل والثوم وأضاف إليهم بطاطس وتوابل. عندما اختفى هذا الطعام المصري الأصيل في الفرن لمدة ساعة، وجدتُ أن الفرصة مواتية لأن أحكي له عن تأملاتي وافتراضاتي عن "بلزوني" ونحن نشرب كأسًا من النبيذ المصري الأبيض. أصغى "طايع" لي دون أن ينطق بكلمة في بادئ الأمر. ثم قال:

- كان "بلزوني" أكبر محتال!

وما أثار دهشتي أنه أضاف بكل بديهية قائلًا:

- كان كل خبراء التنقيب يأتون لعائلة "عبد الرسول" ويسألونهم أين تقع المقابر. وكان أفراد عائلة "عبد الرسول" يرشدونهم إليها.

انقطع الحديث عندما نقل التليفزيون مباراة كرة قدم لفريق الكرة المصري المُفضَّل لـ"طايع". فأصبحتُ وحيدة مرة أخرى مع تأملاتي. لكنني صرت متأكدة أن "طايع" يخفي شيئًا مهمًا للغاية.

في صباح اليوم التالي، ذهبنا إلى وادي الملوك وأراني "طايع" أين تقع اكتشافات "بلزوني". يقع الاكتشاف الأول، أي مقبرة الأمير ابن "رمسيس التاسع"، في أقصى الطرف الشمالي، في وادٍ جانبي لم يكن أحد قد وطأه في ذلك الحين قط، ولم يكتشف أحد قبل "بلزوني" أية مقبرة له. ويقع الاكتشاف الثاني، الذي قام به "بلزوني" في اليوم نفسه أيضًا، في وادٍ جانبي كذلك لكنه كان في الطرف الواقع أقصى جنوب الوادي. أما مقبرة "رمسيس الأول" فهي في المنتصف لكنها أيضًا في جانب صغير من الوادي، متفرع من الوادي الرئيس. بينما تقع مقبرة "سيتي الأول" بالجوار مباشرةً. كيف تمكن "بلزوني" من معرفة أماكن هذه المقابر؟

"ذهبتُ وحدي إلى هناك وظللت طوال اليوم أضع ملاحظات، أكدتْ نتيجتها على ما أدركته من أن الآمال المعقودة في القيام بأعمال تنقيب ناجحة كانت في محلها". شدَّد "بلزوني" على أنه استخدم خبرته الشخصية فحسب، بوصفها مبدأً ووسيلةً للاسترشاد في أثناء قيامه بأعمال التنقيب الخاصة به، وهي الخبرة التي كان قد جمعها في أثناء عمله المتواصل لوقتٍ طويل في "القرنة". "اكتشفت في تلك الأثناء أن

المصريين شيَّدوا المداخل المؤدية إلى المقابر على نحوٍ خاص تمامًا وأنا مدين بالفضل في هذه الملاحظة إلى اكتشافات عديدة".

تقدَّم "بلزوني" لرئيس المركز برغبته في أن يتم السماح له بالتنقيب في وادي الملوك، وحصل منه على فرمان موجه لشيوخ "القرنة" ليضعوا عشرين رجلًا تحت تصرف "بلزوني". أجرى "بلزوني" عملية بحث واسعة في الوادي الغربي ولم يكتشف بعدها سوى موضع واحد أشار إلى وجود مقبرة مغلقة. كانت المقبرة غير بعيدة عن مقبرة الملك "آي". وأعطى "بلزوني" للرجال الأمر ببدء العمل. عثر الرجال تحت سطح الأرض بقليل على بضع كتل صخرية كبيرة كانت قد تدحرجت، على ما يبدو، إلى هناك بعد إغلاق المقبرة. ورأى "بلزوني" بعد إزاحة الأحجار ممرًا مؤديًا إلى داخل الصخرة. صار الرجال منهكين وكان عليهم أن يقطعوا مسافة ستة كيلومترات للعودة إلى المنزل. فتركهم "بلزوني" ينصرفون.

في اليوم التالي، اصطدموا بجدار راسخ البنيان. وبعدها بيوم، صمم "بلزوني" ما يشبه المِدق واخترق به الجدار في أحد المواقع. أخذوا يوسعون ثقب المدخل ووجدوا أنفسهم على درجة سلم. كان هناك على الطرف السفلي منها أربع مومياوات موضوعة في توابيتها. بعدها بمسافة قليلة، كانت هناك أربع مومياوات أخرى. "شعرتُ برضا بالغ عن نتيجة أبحاثي حيث عثرت على مومياوات سليمة في حالتها الأصلية. لكن هذا لم يتوافق مع الهدف الذي أبقيته في نفسي، فقد راودني الأمل أن أعثر على بعض من المقتنيات الجنائزية التي كانت تُوضع مع الملوك عند دفنهم وكذلك على قطع حُلي لأنني كنت على مقربة شديدة من أماكن دفن الملوك".

نقل "بلزوني" مع رجاله القليلين البحث إلى وادي الملوك. وبدأ في أعمال التنقيب في السادس من أكتوبر، وفتح المقبرة الأولى بالفعل في التاسع من أكتوبر. "كنت آمل أن أستطيع العثور على اكتشافات أخرى، لأنني جعلت مجموعات مختلفة من الفلاحين يعملون في عدة مواضع. فقد منحني هذا النجاح الأول شعورًا بالشجاعة كما أراني أنني كنت على ما يبدو محقًا في تصوراتي عن الموضع المحتمل للمقابر الملكية". استطاع "بلزوني" في اليوم نفسه أن يدخل إلى المقبرة الثانية. إذ كانت أعمال التنقيب قد بدأت قبل ثلاثة أيام. كانت مقبرة شخص مجهول. "عثرنا في الركن على مومياوتين، كانتا عاريتين، دون أغطية أو توابيت. كانتا مومياوتين تخصان سيدتين لديهما شعرٍ طويلٍ لا يزال في حالة جيدة. لكن عندما يجذبه أحدٌ قليلًا، كان ينفصل بسهولة تامة عن الرأس".

بعد ذلك بيوم، تلقى "بلزوني" زيارة من ثلاثة رجال من السادة. تفقد "بلزوني" معهم "طيبة" وأماكن المقابر في "القرنة". ووصل إلى "بلزوني" قرابة الظهيرة خبرٌ مفاده أنه تم فتح إحدى المقابر من جديد، فسلكوا الطريق المباشر فوق الصخور لكي يصلوا أسرع إلى وادي الملوك. هبط "بلزوني" عبر الممر إلى الأعماق ثم نزل إحدى درجات السلم حيث وجد غرفة بها رسومات جميلة. أشار "بلزوني" إلى زائريه بإشارة ما فجاءوا على إثرها إلى غرفة الدفن. وعثروا على تابوت من حجر الجرانيت، به مومياوتان. كان هذا هو قبر "رمسيس الأول".

بعد بضعة أيام، أي في السادس عشر من أكتوبر، واصل أعماله في التنقيب. فقد أمر "بلزوني" بالحفر في الأرض الموجودة عند سفح تل

منحدر بشدة. وعلى الفور امتلأت الحفر الصغيرة في الأرض بمطر غزير. كان من الصعب مجرد تخيل أن قدماء المصريين استطاعوا أن يشيِّدوا في هذا الموضع منشآت ضخمة وفاخرة. "بسبب أبحاثي السابقة، كان لديَّ سبب وجيه لكي أفترض وجود مقبرة في هذا المكان بالذات. إلا أن جميع الفلاحين، الذين كانوا معتادين على أعمال الحفر والتنقيب، كانوا يعتقدون أن هذا الموضع لا يضم بين طياته أي اكتشافات، لأن موقع المقبرة يختلف عن المواقع الأخرى كافة". أمر "بلزوني" بمواصلة العمل. وقرابة ظهيرة يوم الثامن عشر من أكتوبر، وصل العمال إلى المدخل الذي كان مختبئًا بمسافة خمسة أمتار أسفل سطح الأرض. "عندما لاحظ الفلاحون أن هناك مقبرة كبيرة ومترامية الأطراف قد لاحت أمامهم، بدأوا في الاحتجاج. وزعموا أنهم لن يتقدموا لأن حفرة المدخل كانت ممتدة حتى أعلى بكتل حجرية ثقيلة وكانت مسدودة بذلك. هبطتُ واستكشفتُ الموقع وأشرتُ إلى الموضع الذي كان من الممكن مواصلة الحفر فيه".

في اليوم نفسه، فتح "بلزوني" أيضًا مقبرة "سيتي الأول". كانت ضخمة ومُلوَّنة بالكامل ومحتفظة بحالتها بشكلٍ رائع. وقد غطت مشاهد من "كتاب الموتى" وكتاب "البقرة السماوية" كل جدار وكل عامود فيها.

أدت درجة سلم منحدرة ومزخرفة إلى ممر بالأسفل. اتحدت أرواح الموتى مع مومياواتها الراقدة على سرير على هيئة أفعى في غرفة بها أربعة أعمدة. أطلق "بلزوني" على دهليز غرفة الدفن اسم «قاعة الجمال»؛ إذ تتأتى هناك رؤية ملوك وآلهة مختلفين في نقوشات باهرة على الجدران.

كان التابوت الحجري لـ"سيتي الأول" المصنوع من أجود أنواع "الألابستر" موجودًا في منتصف غرفة الدفن.

كان فارغًا! لكن "بلزوني" لم يكترث بذلك. فقد دفعه جانبًا وواصل الحفر. فأسفل التابوت، كان يكمن السر الكبير لـ"سيتي الأول" والذي ظل مُخبَّأً بقبضة حديدية حتى ذلك الوقت. كان "بلزوني" يعرف ذلك! فقد كتب قائلًا: "كان التابوت موجودًا في الطرف العلوي لدرجة سلم في منتصف القاعة؛ كانت القاعة مرتبطة بممر أسفل الأرض ممتد لمسافة تسعين مترًا". افترض "بلزوني" أن هذا الممر كان مستخدمًا من أجل الوصول إلى المقبرة عبر مدخل آخر. "لا يمكن أن يكون هذا قد حدث بعد وفاة الإنسان المدفون هنا، فعند نهاية السلم، أي أسفل التابوت مباشرةً، كان هناك جدار يقطع الاتصال بين المقبرة والممر الموجود أسفل الأرض. وكانت بضع كتل حجرية كبيرة موضوعة في مستوى رصيف غرفة الدفن نفسه أسفل التابوت لكي لا يلاحظ أحدٌ أنه توجد هناك أي سلالم أو ممر أسفل الأرض". كان الممر مُغطًّى بالركام. جرف "بلزوني" وعماله ثلاثين مترًا منه حتى وصلوا إلى درجة سلم. لكن مجموعة الأحجار تحوَّلت من الحجر الجيري إلى نوع من حجر "الأردواز" الأسود الذي يتفتت من أي لمسة.

عند درجة السلم هذه، رفض عمال "بلزوني" بشكلٍ نهائي مواصلة الحفر. إذ كانوا قد رفضوا هذا من البداية بسبب اعتقادهم أنه لا يمكن العثور على شيء في هذا الموضع. ورفضوا في المرة الثانية بسبب الأحجار الكبيرة التي سدت السرداب. والآن رفضوا لمرة ثالثة بسبب الممر الكامن

أسفل الأرض والمختبئ أسفل كتل الحجارة التي كان التابوت الحجري موجودًا عليها.

لم يتحدث "بلزوني" في ذلك، لأن هذا كان السبب في أنه اضطر للاستسلام.

لكن عائلة "عبد الرسول" تناقلوا ذلك الأمر. من جيل إلى جيل.

ظلت هذه الحكاية المتناقلة تتمتع بالحيوية لدرجة أن تقدم الشيخ "علي عبد الرسول" ابن عم "حسين"، الذي كان موجودًا عند اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون"، في عام 1960 بطلب لإدارة مصلحة الآثار في القاهرة من أجل الحصول على ترخيص بالحفر هناك، وحصل عليه. واصل الشيخ "علي" الحفر في الموضع نفسه بالضبط الذي تراجع فيه "بلزوني". واضطر الشيخ "علي" كذلك أن يتخلى عن حلمه بالعثور على كنز الملك "سيتي الأول" بعد مسافة مائة وستة وثلاثين مترًا بسبب نقص المال ولأسباب أمنية. كان هذا الكنز هو حلم "بلزوني" أيضًا. وكان هذا الأمر ما أخفاه عني "طايع" آنذاك في أثناء تناولنا وجبة العشاء عندما تحدثنا عن "بلزوني".

وهكذا ظل لغز الممر الموجود أسفل التابوت الحجري لـ"سيتي الأول" بلا حل.



هل أظهرت عائلة "عبد الرسول" لـ"بلزوني" أين تقع المقابر؟ أنا شبه متأكدة تمامًا من أن هذا حدث في مقبرة الملك "آي" الموجودة في وادي

القرود، فقد شرح "بلزوني" بوضوح أنه "مدين في هذا الاكتشاف للحظ وحده وليس لبحث متعمد". لكنه كان مصابًا في تلك الأيام على وجه التحديد بالتهاب العينين الشديد وكان بالكاد يستطيع الرؤية.

كيف عرف "بلزوني" بأمر مقبرة "سيتي الأول"؟ وفي المقام الأول بأمر هذا الممر الواقع أسفل الأرض؟ لماذا توقع "بلزوني" وجود كنز؟ هل أفشى له أحدهم هذا السر؟ لم يكن من المخطط أن يكتشف "بلزوني" هذه المقبرة. وكانت المقبرة هي آخر اكتشافاته في وادي الملوك. حيث لم تسمح له عائلة "عبد الرسول" بالعثور على شيء آخر. لقد قال "بلزوني" نفسه: "أنا على اقتناع راسخ أنه لا توجد في وادي "بيبان الملوك" مقابر أخرى بخلاف المقابر التي تم الإعلان عنها في اكتشافاتي التي تمت قبل وقت قريب. فقبل أن أغادر هذا المكان، كنت قد حشدت كل قواي المتواضعة لإيجاد مقبرة أخرى لكن لم يحالفني النجاح في ذلك".

لكن مقبرة "سيتي الأول" عوَّضته عن كل مشقة كلفته إياها أبحاثه حتى ذلك الوقت. "لقد وصلت إلى الرغبة في أن أطلق على هذا اليوم الذي صادفني فيه الحظ أنه أحد أجمل أيام حياتي، وأنا لا أعني بذلك أن القدر قد جعلني رجلًا ثريًا. كما أنني لا أعتبر أن جميع الرجال الأغنياء يتمتعون بالسعادة في الوقت نفسه. غير أن الحظ قد منحني شعورًا بالرضا، شعورًا استثنائيًا بالسرور، لا يمكن شراؤه بالثروة، فهو شعور بالسرور بتحقيق اكتشاف، بحث الناس عنه طويلًا بلا طائل، وكذلك شعور بالارتياح والرضا بسبب التمكن من تقديم أثر خالد كامل وغير معروف حتى ذلك الوقت ويرجع للعصور المصرية القديمة. عمل فني، يفوق كماله الآخاذ كل

ما كان معروفًا حتى ذلك الوقت؛ سواء بسبب طريقة تشييده أو بسبب درجة احتفاظه بحالته الأصلية".

أخذ "بلزوني" و"دروفيتي" يتصارعان حول مواقع الحفر والتنقيب في مصر كأنهما اثنان من رجال العصابات. وخسر "بلزوني" هذا الصراع. إذ لم يعد يستطيع أن يواصل الحفر بنفسه واقتصر على الشراء وقضى أغلب الوقت في مقبرة "سيتي الأول" من أجل إعداد نسخ مُقلَّدة طبق الأصل مصبوبة في قوالب وعمل رسومات.

في السادس والعشرين من ديسمبر عام 1818، أطبق ثلاثون رجلًا مسلحًا من بلطجية "دروفيتي" الحصار على "بلزوني" في معبد "الكرنك"، وكان بصحبته عندئذ اثنان من رجاله من أهل "القرنة". فجاء سكان "الكرنك" مسرعين. "شعر هؤلاء العرب المتوحشون - حسبما كنا نسميهم - بالارتياع من سلوك هؤلاء الأوروبيين وتدخلوا لصالحي". لكن فجأة وقف "دروفيتي" أمام "بلزوني" وهو يشهر سلاحًا. في اللحظة نفسها، انطلقت خلف "بلزوني" رصاصة من أحد المسدسات. كانت رسالة واضحة. لقد حان وقت الانصراف. أرادت "سارة" أن تسافر على الفور لكن "بلزوني" احتاج شهرًا للتجهيز لنقل جميع آثاره، التي اقتناها والتي عثر عليها. بعد فترة وجيزة، غادر "جيوفاني باتيستا بلزوني" مصر إلى الأبد وأخلى الساحة لقنصل فرنسا السابق "برناردينو دروفيتي".



التابوت الحجري لسيتي الأول موضع إعجاب في لندن

تم استقبال "دروفيتي" في لندن استقبال الأبطال. إذ إنه لم يكتشف في مصر مقابر قدماء المصريين واستخرج معبد "أبو سمبل" من قلب الرمال فحسب، وإنما اكتشف أيضًا المدخل المؤدي إلى غرف الدفن في هرم "خفرع". وأصبح التقرير المكتوب عن حياته في مصر من أكثر الأعمال مبيعًا. كما جذب معرضه بما فيه من اكتشافات أثرية ونسخة مُقلَّدة طبق الأصل لمقبرة "سيتي الأول" أعدادًا كبيرة من الجمهور ومثَّل نجاحًا كذلك من الناحية التجارية. لكن "بلزوني" انطلق بعيدًا مرة أخرى. فقد وضع أمواله كافة في بعثة استكشافية من أجل اكتشاف أسرار نهر النيجر وذَهَبِ مدينة "تمبوكتو" الأسطوري. ورافقته "سارة" حتى الأراضي المغربية فحسب. بينما واصل هو السفر وحده. ولقي "بلزوني" حتفه في قرية "جواتو" الواقعة في مملكة "بنين" سابقًا في الثالث من ديسمبر عام 1823 إثر إصابته بمرض "الدوسنتاريا". فأصبحت "سارة" فقيرة ولم تستطع أن تنتزع معاشًا صغيرًا من الدولة البريطانية إلا في عام 1851. وتوفيت "سارة" عن عمر ناهز سبعة وثمانين عامًا.

من بين المغامرين وخبراء التنقيب وعلماء الآثار العظام كافة، لم يعرف أحدٌ أهل "القرنة" وملوك وادي الملوك معرفة جيدة وعاش معهم عن قرب هكذا مثلما فعل "جيوفاني باتيستا بلزوني" وزوجته "سارة".



7

"شامبليون" و"ليبسيوس"..
جمع القطع الأثرية من أجل الوطن

جلسنا في المطعم المجاور للمعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر" الذي بدا بإضاءته المسائية كأن هناك احتفالات مقدسة لا تزال تقام داخله. كان أحد أبناء عمومة "طايع" قد عاد لتوه من القاهرة وأخذ يحكي باللغة العربية أخبارًا جديدة عن المدينة الكبيرة. جلستُ في أثناء ذلك بجوار "طايع"، واتكأت بظهري على كتفه اليسرى، ونظرت باتجاه الأطلال المضيئة. انتقلتُ بالزمن إلى الوراء عندما كانت رأس تمثال "رمسيس الأكبر" لا تزال مُلقاة على الأرض بجوار الأعمدة ولم تكن موضوعة بعد في المتحف البريطاني، عندما كانت كل هذه المعابد والمقابر الموجودة في وادي الملوك تخص عائلة "عبد الرسول" وحدها. لقد تغلب أفراد عائلة "عبد الرسول" على اللصوص وكانوا يطلقون الرصاص عليهم. لكن ما الذي دار في نفوسهم عندما توغل أولئك الناس في مملكتهم التي توارثوها؟ أولئك الذين أخذوا معهم بسهولة ما أرادوه باسم العلم وباسم حكوماتهم الأوروبية. تُرَى ماذا كان شعور أفراد عائلة "عبد الرسول" آنذاك؟

بعد عشر سنوات من رحيل "بلزوني" عن وادي الملوك، أصبح ملوك الوادي في مواجهة حاكمي فرنسا وإيطاليا، الملك الفرنسي "شارل العاشر"، و"ليوبولد الثاني" دوق "توسكاني" الأكبر. حيث أرسل كلا

البلدين بعثة استكشافية علمية مشتركة إلى مصر. تمتع الوفد بحماية الوالي المصري "محمد علي باشا"، ورافقه ضباط تابعون لـ"محمد علي".

كان هؤلاء الضباط عبارة عن مجموعة من ضباط الصف التابعين للباشا "محمد علي". كان الاختيار يقع على الأتراك فقط لأداء هذه المهمة. وضابط واحد منهم كان قادرًا على أن يطارد قرية كاملة من الفلاحين. كان لدى كل قنصل أجنبي ضابط كهذا، ولم يكن القنصل يخطو خطوة تقريبًا من دونه، فهذا الضابط حارسه الشرفي ورمز لسيادته التي لا يمكن المساس بها. وعند مغادرة أي قنصل لمنصبه، كان الضابط يمتطي أمامه ظهر أحد الخيول ويحمل عصا فضية كبيرة ويبعد الناس والحيوانات عن طريق القنصل؛ إما بعبارات يقولها أو بضربات يوجهها.

تخيلت كيف هبط أعضاء البعثة الاستكشافية البالغ عددهم ثلاثة عشر فردًا في عام 1828 من مراكبهم النيلية بهيبة ووقار. وفي مقدمتهم الفرنسي "جان فرانسوا شامبليون" الذي ألقى في سن السابعة عشرة أولى محاضراته عن اللغة الهيروغليفية، وعكف على فك رموزها لمدة عشرين عامًا، وقدم أهم اكتشافاته بسبب حجر رشيد. كان "شامبليون" على دراية كبيرة بالظروف المحيطة بأعمال الحفر والتنقيب في مصر، فقد اشترى مؤخرًا لمتحف "اللوفر" مجموعة التحف الأثرية الخاصة بـ"دروفيتي" وكذلك المجموعة الخاصة بالإنجليزي "هنري سالت" عدو "دروفيتي" اللدود. مضى بجوار "شامبليون" عالم المصريات الإيطالي "إيبوليتو روزليني" ومن خلفهما مباشرةً الرسام "جوسيب أنجيليلي"

وحشد كامل من رسامين ومهندسين معماريين وباحثين في علم الطبيعة وأحد الأطباء.

خطا مجموعة العلماء بتمهل وأخذوا ينظرون مرة أخرى عبر النيل باتجاه المعابد التي زاروها. ثم امتطوا ظهور الحيوانات بصعوبة وبتكلف كبير وانطلقوا نحو عالم الموتى.

حدث ضخم! كأن هناك سيركًا قادمًا لتقديم عروضه في القرية! فقد أسرع الجميع إلى تمثالي "ممنون" لكي يروا الأوروبيين. وقفت السيدات على بعد مسافة معقولة وهن يحملن أطفالًا صغارًا على أذرعهن أو يمسكن بهم في أيديهن. بالتأكيد كانت "فندية" واحدة منهن، إذ لم يفت أي شخص هذا المشهد. وضعت السيدات المتزوجات أغطية رؤوسهن على وجوههن لكي يستطعن أن يتهامسن ويضحكن من خلفها. ولم تظهر منهن سوى أعينهن الداكنة. تطلعت النساء لمعرفة كيف يبدو هؤلاء الرجال. وشعرن بإحباط كبير من أن الرجال ارتدوا ملابس تشبه ملابس باشوات الشرق. وقف العلماء أمام تمثالي "ممنون" وهم يرتدون أثوابًا فضفاضة وسراويل حمراء تشبه سراويل البحارة، وعمامات رأس. بدوا صغار القامة للغاية، ورفعوا أبصارهم نحو التمثالين في حماس.

اتخذ كبار الزوار من مقبرة "رمسيس الرابع" مركزًا لهم في وادي الملوك. كان على واجهتها الإلهتان "إيزيس" و"نيفتيس" اللتان تقدسان قرص الشمس. وفي قرص الشمس، يظهر إله الشمس في هيئته الصباحية على شكل حشرة جعران، وفي هيئته الليلية على شكل إله ذي رأس كبش. كان وادي الملوك هو المكان اللائق بـ"شامبليون" و"روزليني". فأخيرًا

رأيا بأعينهما ما لم يتمكنا حتى ذلك الوقت من دراسته سوى عن طريق نسخ مقلدة. وكان "شامبليون" قد أدرك مبكرًا بالفعل أن النقوشات الموجودة على مقابر الملوك لا تدور - مثلما افترض البعض - حول حياة قدماء المصريين وأعمالهم البطولية، وإنما تدور فقط حول وجود حياة أخرى للملك بعد وفاته.

قارن "شامبليون" حجم المعابد في مصر بـ"كاتدرائية نوتردام" في باريس، وقارنها "روزليني" بـ"كاتدرائية القديس بطرس" في روما. جمع الفرنسي "شامبليون" تحفًا أصلية لمتحف "اللوفر"، وجمع الإيطالي "روزليني" تحفًا أصلية للمتحف المصري في مدينة "تورينو". إذ إن الرجلين لم يأتيا إلى هنا من أجل المشاهدة والدراسة فحسب. فقد حصلا على إذن من "محمد علي" بأن يأخذا ما يروق لهما. واستغلا هذا الإذن بلا أدنى حرج. لدرجة أن "شامبليون" قطع أجزاءً من زخرفة جدار مقبرة "سيتي الأول" لكي يعيد جمعها مرة أخرى في متحف "اللوفر". كانت هذه الأجزاء تتضمن مشاهد عديدة، من بينها مشهد تُلقي فيه الإلهة "حتحور" التحية على الملك "سيتي" وتقدم له طوقًا مطرزًا باللآلئ. وقد أُضيفت إلى فستان الإلهة "حتحور" أمنيات للملك مكتوبة باللغة الهيروغليفية.

أغضب هذا الأمر الرسام وعالم المصريات "جوزيف بونومي"، الذي شارك في حملات تنقيب مختلفة بدأت من حملة "بيرتون" وحتى حملة "ليبسيوس"، وعاش في "القرنة" من عام 1824 إلى عام 1832، فكتب إلى "شامبليون" قائلًا: "أيها السيد، لقد عرفت أن بعض الناس وصلوا هنا إلى "القرنة" بناءً على تعليماتك لكي يزيلوا بعض الصور من المقبرة الموجودة

في وادي "بيبان الملوك" والتي فتحها "بلزوني" بدعم مالي من القنصل الإنجليزي المتوفى السيد "سالت". لو كانت هذه هي نيتك الحقيقية، فإنني أعتبر واجبي بصفتي مواطنًا إنجليزيًا وعاشقًا للحضارات القديمة أن ألجأ إلى كل حُجَّة لكي أثنيك عن هذا المشروع الهزلي".

رد "شامبليون" على "بونومي" قائلًا: "أؤكد لك أنني سوف أسعد في يوم من الأيام برؤية بعض النقوش البارزة البديعة من مقبرة "سيتي الأول" في المتحف الفرنسي. سيكون هذا الأمر الإمكانية الوحيدة لحماية النقوش من الدمار وشيك الحدوث. وعند تنفيذ المشروع، سوف أتصرف باعتباري عاشقًا حقيقيًا للحضارة القديمة، فأنا أريد أن أزيل النقوش من أجل الحفاظ عليها فقط، وليس من أجل بيعها".

عندما غادر أفراد البعثة الاستكشافية الفرنسية التوسكانية مصر، بعد ما يزيد عن عام، ومعهم آلاف الأغراض الموضوعة في صناديق ممتلئة عن آخرها، أراد "شامبليون" أن يكون أول من دشن مبادرة لحماية المعالم الثقافية المصرية. فنادى قائلًا: "إن تدمير المنشآت الأثرية في مصر أمر محظور، وكذلك تصدير الآثار من مصر. يجب تسليم كل ما يتم العثور عليه من تحف إلى القاهرة".

طلب "شامبليون" من مصر بعد ذلك على الفور مسلة "رمسيس الأكبر" أيضًا والموجودة في معبد "آمون" في "الأقصر" من أجل تشييد نصب تذكاري يليق بجيش "نابليون" في باريس. أكد "محمد علي باشا" على تقديم كل مساعدة في سبيل نقل المسلة، التي بلغ وزنها مائتين

وخمسين طنًا، إلى باريس. استغرقت الرحلة عامين. واليوم توجد المسلة في ميدان "الكونكورد".

𓂀

في خضم النزاعات الكبرى التي خاضتها القوى الأوروبية من أجل الحصول على التماثيل الضخمة والمسلات وأوراق البردي ومن أجل تحقيق مجد في عالم المستكشفين، كانت هناك دولة لم تخض السباق بعد؛ ألا وهي ألمانيا. ولكن في عام 1840، تبوأ ملك جديد مثقف ذو طموحات حضارية مقاليد الحكم في "بروسيا" ذو النجم الصاعد وهو الملك "فيلهلم الرابع" الذي أحضر إلى البلاط الملكي قامات فكرية مثل "ألكسندر فون هومبولت" وأراد أن يقود برلين إلى مرحلة ازدهار جديدة على غرار ما حدث في العصور القديمة وعصر النهضة. وبدأت في عام 1841 بالفعل أعمال بناء المتحف الجديد في جزيرة المتاحف في برلين. مثَّلت مجموعة الفنان "جوسيب باسالاكوا" القادم من مدينة "ترييستي"، والتي تم شراؤها بالفعل من أجل مدينة برلين، الأساس للقسم المصري الذي تم تخطيطه في المتحف. غير أنها لم تكن مبهرة بالمقارنة بكنوز متحف "اللوفر" والمتحف البريطاني.

كان "كارل ريشارد ليبسيوس" بمثابة ورقة رابحة أخرى ضمن خطط "بروسيا". كان "ليبسيوس" يصغر "شامبليون" بعشرين عامًا وسار على خطاه فأكمل وصحح تفسيرات "شامبليون" للغة الهيروغليفية. حيث درس المصادر المكتوبة الموجودة في مدن باريس

و"تورينو" و"بيزا" - لدى "روزليني" رفيق "شامبليون" في رحلته - وفي روما ولندن، ووضع الأساس العلمي لعلم المصريات. لقد أدرك "ليبسيوس" أن نصوص علم الآلهة المصرية بما فيها من عدد ضخم من آلهة وإلهات وشياطين وحيوانات لم تكن مجرد إبداعات من خيال قدماء المصريين الجامح. فقد سماها "شامبليون" "طقوسًا". وأدرك "ليبسيوس" أنها كانت صلوات وتعاويذ سحرية تُوضَع في فم الشخص الميت لكي يتغلب على الرحلة المحفوفة بالمخاطر في العالم السفلي ويصل إلى الحياة الأخرى. وقد وصفت هذه النصوص كل ما ينتظر الشخص الميت بعد الموت. لقد أطلق عليها "ليبسيوس" اسم "كتاب الموتى".

في عام 1842، رصد الملك "فيلهلم الرابع" الأموال المخصصة للقيام ببعثة استكشافية ملكية بروسية. وبدأ "ليبسيوس" العمل بدقة وعناية. فشكَّل مجموعة من نقاشين ورسامين ومهندسين معماريين وباحثين في مجال البناء وفنانين في تشكيل الجبس. وصارت الهيئة الدبلوماسية لـــ"بروسيا" تعمل في خدمة "ليبسيوس". فحصل عن طريق وزارة الخارجية على خطابات تضمن توفير الحماية له من السلطان في "القسطنطينية" ومن الوالي المصري "محمد علي". وتدخل الملك "فيلهلم الرابع" بنفسه في الأمر وكتب رسالة بخط يده إلى "محمد علي" وأرسل إليه زهريتين من البورسلين من صنع المصنع الملكي البروسي. وتم إخطار حكومات النمسا، وفرنسا، وبريطانيا العظمى لكي لا يعرقل وكلاؤها خطط "ليبسيوس" في قلب الحدث.

أوفى "ليبسيوس" ملكه حقه في الشكر. فوصف له في تقارير اتسمت بأقصى درجة من الخضوع والإذعان مسار البعثة الاستكشافية وعقبات الرحلة ونجاحاتها. حتى أنه كان يحكي له بين الحين والآخر - بنوع من الاستفاضة كانت أقرب إلى الدردشة الشخصية - عن انطباعات وتجارب شخصية ويومية.

وصلت البعثة في الثامن عشر من سبتمبر عام 1842 إلى "الإسكندرية". وبعد وصول أفراد البعثة إلى القاهرة مباشرةً، أدوا زيارتهم الرسمية الإلزامية.

"تقدَّم حاملو المشاعل خاصتنا نحو الأمام ثم تبعهم مترجمو القنصل وضباطنا؛ أي حرس شرف الباشا، وهم يمتطون ظهور حمير ثم جئنا نحن بعد آخرين في موكب مهيب. سرنا نمتطي ظهور الخيل عبر المدينة كلها تقريبًا، عبر الشوارع الضيقة الممتلئة بالعرب والتي أضاءتها مشاعلنا بشكلٍ بديع". استقبلهم الوالي في جو من الود. "بدا "محمد علي" بحركاته وحديثه نشيطًا وشابًا. لم يكن هناك وَهَن في قسمات وجه الرجل العجوز البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا، ولا في عينيه البراقتين".

وصف "ليبسيوس" للجمهور الموجود في وطنه المشهد الذي رآه عند إطلالته من النافذة: "مرَّ الشرق بأكمله بما فيه من شخصيات متعددة الألوان ومتنوعة وخلابة. ارتدى الفقراء مرايل زرقاء أو بيضاء مُشمَّرة لأعلى، أما الأغنياء فارتدوا أثوابًا طويلة من شتى أنواع القماش مع قفاطين حريرية، أو فساتين مصنوعة من أقمشة راقية وذات ألوان ناعمة وألوان فاتحة مع عمامات بيضاء أو حمراء أو خضراء أو سوداء أو مع الطربوش

التركي الأنيق الذي لم يكن يليق بهم. كان بينهم يونانيون يرتدون تنوراتهم المنقوشة ذات الأناقة البالغة، وشيوخ عرب متدثرون في معاطفهم الفضفاضة التي لفوها حول أجسادهم بطريقة قديمة. كان الأطفال عراة تمامًا أو شبه عراة ورؤوسهم حليقة وليس فيها سوى خصلة واحدة بارزة كأنها موجودة للإمساك بمفرق الشعر. وقد غطت النساء وجوههن التي برزت منها أعينهن السوداء من حين لآخر كأنها أشباح عبر فتحات النوافذ. سار وتسلل واندفع كل هؤلاء ومئات من شخصيات أخرى، فاقت كل وصف، سيرًا على الأقدام أو على ظهور حمير وبغال وجِمال أحادية السنام وجِمال أخرى وخيول لكن من دون عربات، فقد استخدم الناس في عهد قدماء المصريين نفسه العربات أكثر مما يحدث في العصر الحديث".

في يوم الخامس عشر من أكتوبر عام 1842، استيقظ العلماء في تمام الساعة الخامسة فجرًا لكي يتسلقوا الهرم الأكبر للمرة الأولى. فامتطوا ظهور الحيوانات حتى وصلوا إلى نهر النيل. وعبرت المجموعة، التي انضم إليها بعض الضيوف وخادمان وستة عشر حمارًا، نهر النيل في الفجر في تسعة زوارق. وتناولوا وجبة الإفطار بالقرب من الهرم في غرفة دفن يرجع تاريخها إلى خمسة آلاف عام وكان يسكنها بدو. لسوء الحظ، نسي "ليبسيوس" أهم شيء وهو النبيذ. ولحسن الحظ أحضر العلماء معهم زجاجات صغيرة، كان من الضروري أن تحل محل النبيذ نوعًا ما. على كل حال، لم يروِ رئيس البعثة هذه التفصيلة في تقريره الرسمي، وإنما رواها

المهندس المعماري "جيورج إربكام" نائب "ليبسيوس" في كتاب مذكراته الشخصية الذي روى فيه الحقائق من دون تجميلها.

𓂀

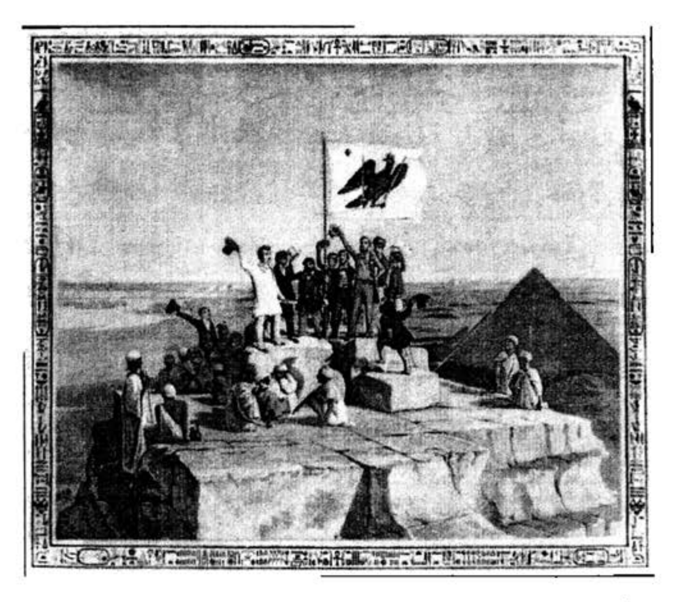
عندما وقفت مع "طايع" أمام الأهرامات، شعرت بخيبة أمل بعض الشيء. فقد تخيلتها أكبر وأضخم بكثير. ربما كان السبب في هذا أنني اعتدت بصفتي مواطنة سويسرية على رؤية جبال ارتفاعها ثلاثة آلاف متر. كان من الممنوع حينها أن يتسلق أي شخص قمة الأهرامات. شعرتُ بالسعادة من هذا الأمر. فقد كان المنظر من قمة الأهرامات في أمريكا الجنوبية، والتي تسلقتها منذ فترة، خلابًا. إلا أن النزول من القمة مرة أخرى لم يكن سهلًا، لا سيما بالنسبة للأشخاص الذين يصيبهم هذا ببعض الدوار مثلي.

كانت درجات الهرم الأكبر مرتفعة للغاية. بينما وقف "ليبسيوس" أمامها، انتظر البدو أن يرفعوا العلماء بأذرعهم القوية ذات البشرة البنية من درجة لأعلى. رافق كل فرد مشارك في تسلق الهرم ثلاثة من العرب على الأقل. حيث كان أحد العرب يدفعهم نحو أعلى بينما يجذبهم الاثنان الآخران من أذرعهم.

لم يتغير الأمر كثيرًا بعد مرور خمسة وعشرين عامًا. ففي عام 1869، رافق عالم الآثار الألماني "هاينريش بروجش" الإمبراطور النمساوي "فرانتس يوزف" الذي وُجِدَ في مصر ليشهد افتتاح قناة السويس. وعند تسلق هرم "خوفو"، رفض القيصر أن يدفعه البدو ويجذبوه. وأكد أنه

يجيد تسلق الجبال وأنه كان معروفًا في أثناء رحلات صيد حيوانات "الشامواه" في ولاية "تيرول" بأنه واحد من أفضل من يجيدون التسلق. وبالفعل وصل صاحب السمو الإمبراطوري إلى منتصف المسافة تقريبًا دون مساعدة أحد. ثم أراد أن يسلك طريق العودة، غير أن "بروجش" جعل الإمبراطور في نهاية المطاف يصل إلى القمة بمساعدة البدو.

وقف "ليبسيوس" والعلماء على قمة هرم "خوفو" وهم يرتدون ملابس احتفالية وربطات عنق "ببيون" وقبعات بينما أحاط بهم ثلاثون بدويًا يرتدون جلابيب. وفي هذا الارتفاع، الذي يسبب الشعور بالدوار، بسطوا علم "بروسيا" الملكي المثبت في عصا عالية، والذي رسموه وخيطوه بأنفسهم احتفالًا بعيد ميلاد ملكهم "فريدريش فيلهلم الرابع" وتكريمًا له. أدوا تحية العلم بأن هتفوا ثلاث مرات: "تحيا جلالته! يحيا الملك! يحيا! يحيا!". إذ كان "ليبسيوس" قد حدد عن عمد موعد الزيارة الأولى للهرم الأكبر في يوم عيد ميلاد الملك. "أردنا أن نخلد اسم ملكنا ووطننا في احتفال بهيج". فترجموا إلى اللغة الهيروغليفية أغنية مديح للملك "فيلهلم الرابع" على الطراز الفرعوني ورسموها بألوان الزيت على حجر مجهز ووضعوه عند مدخل هرم "خوفو". ثم هبطوا إلى الفتحة المنحدرة المؤدية إلى غرفة الملك. "ثم أخذنا نشدو بنشيدنا البروسي، الذي دوَّى بقوة بالغة وبصورة احتفالية في البهو الفسيح ذي الأرضية والجدران والسقف المبني بشكل عام من الجرانيت، فتردد صدى صوت معدني مدوٍ. حتى أن المرشدين المرافقين لنا حكوا فيما بعد لبقية البدو أننا اخترنا بعناية الجزء الأعمق من الهرم لكي نقيم قداسًا وصلاة جماعية بصوتٍ عالٍ فيه".



أعضاء بعثة ليبسيوس يحتفلون بعيد ميلاد الملك البروسي على هرم خوفو

في عشية الاحتفال بعيد الميلاد المجيد، أطلق "ليبسيوس" من فوق الهرم الأكبر ألعابًا نارية ضخمة أضاءت الأهرامات الأخرى ببراعة وظهرت حتى في القاهرة. "كان هرم عيد الميلاد المجيد!". في اليوم التالي، كانت هدية عيد الميلاد المجيد بانتظارهم في غرفة الملك: "غرسنا شجرة نخيل صغيرة في التابوت الحجري الخاص بالملك العجوز وزيَّناها بأضواء وهدايا صغيرة". وفي سبيل الاحتفال بـ"ليلة رأس السنة المقدسة"، ارتفعت مرة أخرى في ليلة رأس السنة "في منتصف الليل ألسنة نار ضخمة في الوقت نفسه من الأهرامات الثلاثة العظيمة، وأعلن عند سفح الأهرامات وفي نطاق واسع من البلد الإسلامي عن تغير السنة المسيحية".

وبعد انتهاء هذه المظاهر الاحتفالية بدأ العمل. عندئذ عايش "ليبسيوس" أشياء لم يكن ليفقه شيئًا عنها. فقد رأى سحابة سوداء تدنو وبدأت أمطار خفيفة في السقوط. هبَّت عاصفة وانهمرت أمطار غزيرة أصابت جميع العرب الموجودين بالذعر وذهبت بهم إلى حفرة صخرية حيثما تم نقل المطبخ. تحولت العاصفة إلى إعصار حقيقي فترنحت الخيام. وسقطت عليهم عاصفة من الثلج. وجد "ليبسيوس" مشقة في حث العرب على وضع الأغراض في الحفر الصخرية. تهدمت الخيمة المشتركة وعندما أسرع "ليبسيوس" من هناك إلى خيمته لكي يمسك بها من الداخل، تهدمت هذه الخيمة وسقطت فوقه. ثم هبَّت عليهم فجأة عاصفة جبلية كاسحة. جرفت العاصفة كل شيء: الكتب، والرسومات، والمخططات، وأدوات من كل نوع وحتى الرافعات والعتلات الحديدية. كانوا يرتدون عندئذ ملابس مبللة، دون قبعات. ونتج هذا كله عما حدث في ربع ساعة. فُقدت بعض الأشياء، وأصبح كثيرٌ من الأشياء غير صالح للاستخدام. وظل العلماء يبحثون عن أغراضهم لعدة أيام أخرى. ورغم ذلك، لم يشعر "ليبسيوس" فيما بعد بأي رغبة في نسيان هذه التجربة.

إلا أن "ليبسيوس" مرَّ بمتاعب أخرى أيضًا في مصر بالتزامن مع أعمال الحفر. إذ أخذت حشرات الجراد تلتهم كل المزروعات من حوله. والفئران: "إنها تقرض وتلعب وتصفر في خيمتي هناك، كأنها في منزلها منذ قديم الأزل، دون أن تكترث هل أنا موجود بالداخل أم لا. إنها تركض من فوقي أعلى السرير وأعلى وجهي. وبالأمس استيقظت من نومي مفزوعًا، لأنني شعرتُ على قدمي فجأة بالسن الصغير المدبب لأحد هؤلاء

الضيوف الجسورين. فانتفضتُ واقفًا بغضب وأضأتُ النور وأخذت أطرق على جميع الصناديق والأوتاد. لكنني بمجرد أن استلقيت مرة أخرى، صفَّر أحدهم في وجهي من جديد".

في واحة "الفيوم"، كان "ليبسيوس" يُشغِّل يوميًا عددًا يتراوح من أربعين إلى ستين شخصًا في أعمال الحفر والتنقيب. وقد كلفت الحكومة واحدًا من حرس شرف الباشا بمرافقتهم. كان "ليبسيوس"، الذي لم يكن يذهب إلى الفراش أبدًا دون بندقية الصيد الإنجليزية ذات الماسورة المزودجة ومسدسين خاصين به، يقوم بجولات ليلية في المعسكر ليتأكد من أن الحراس لا ينامون. وبمجرد حلول النهار، تبدأ أعمال الحفر والتنقيب. حشد المسؤول عن القرية عمالًا من المناطق المجاورة، كان يتم إحصاء عددهم في كل صباح ويتقاضون أجورهم في كل مساء. كان لزامًا على كل رجل من الرجال أن يُحضر معه مِعولًا وسلة مُضفَّرة. ولم يكن الأطفال، الذين مثلوا العدد الأكبر منهم، بحاجة لأن يحملوا معهم سوى سِلال. كان الرجال يملأون السلال ويحملها الأطفال على رؤوسهم بعيدًا في مواكب طويلة، بينما يحافظ المراقبون على النظام واستمرار العمل. كان العمال يتغنون بألحان بسيطة، سجلها "ليبسيوس" المهتم بتوثيق كل شيء برموز موسيقية أوروبية وأخذ يحللها. لم يتحمل "ليبسيوس" في كثير من الأحيان أن يسمع الأغاني من مسافة قريبة "بسبب الأصوات الصاخبة باستمرار وبلا تروٍ".

أعادوا الجِمال والحصان من "الفيوم" إلى القاهرة ولم يأخذوا معهم في الزورق المتجه إلى مدينة "طيبة" سوى الثلاثة عشر حمارًا. وسرعان ما استقروا في الجانب الغربي وسكنوا في قلعة صخرية جذابة على التل الخاص بشيخ "القرنة"، في منزل عالم الآثار الإنجليزي "جون جاردنر ويلكنسون". كان "ويلكنسون" قد شيَّد المنزل في إحدى المنشآت الخاصة بالمقابر في عام 1826 لكي يجري عملية فحص وتوثيق شاملة لمدينة "طيبة" القديمة انطلاقًا من هذا المكان. و"ويلكنسون" كذلك من أعطى المقابر أرقامًا، ما زالت سارية حتى يومنا هذا.

انبعثت في "ليبسيوس" روح الحياة من جديد نظرًا لسمو الآثار التي لا تعد ولا تحصى وبهائها. فشعر أنه منتعش مرة أخرى مثل شعوره في بداية الرحلة. إن الشتاء هو وقت الاستمتاع بالاختلاط مع الآخرين، فلم يكن يمر أسبوع دون وجود ضيوف إنجليز، وفرنسيين، ونمساويين. ولذا وضع "ليبسيوس" دفترًا للزوار أراد أن يتركه لعلماء الآثار الذين قد يسكنوا هنا في المستقبل.

تمت أعمال الحفر والفحص والوصف والرسم باجتهاد. كما تمت طباعة النقوش على الورق وإعداد خطط البناء وعمل نسخ من الجبس. بالإضافة إلى ذلك، حكى "ليبسيوس" بعض الأمور عن التفاصيل الصغيرة من الحياة اليومية. إذ إن طعامهم كان يتكوَّن من الدجاج. وعلى سبيل التغيير، كان الطباخ القبطي يذبح خروفًا من حين لآخر. لم يكن طعامهم يحتوي على كثير من الخضراوات، وكانوا يتناولون البطيخ بعد الوجبات الرئيسية. كانوا يأكلون الطعام وهم يجلسون على وسائد ويضعون ساقًا

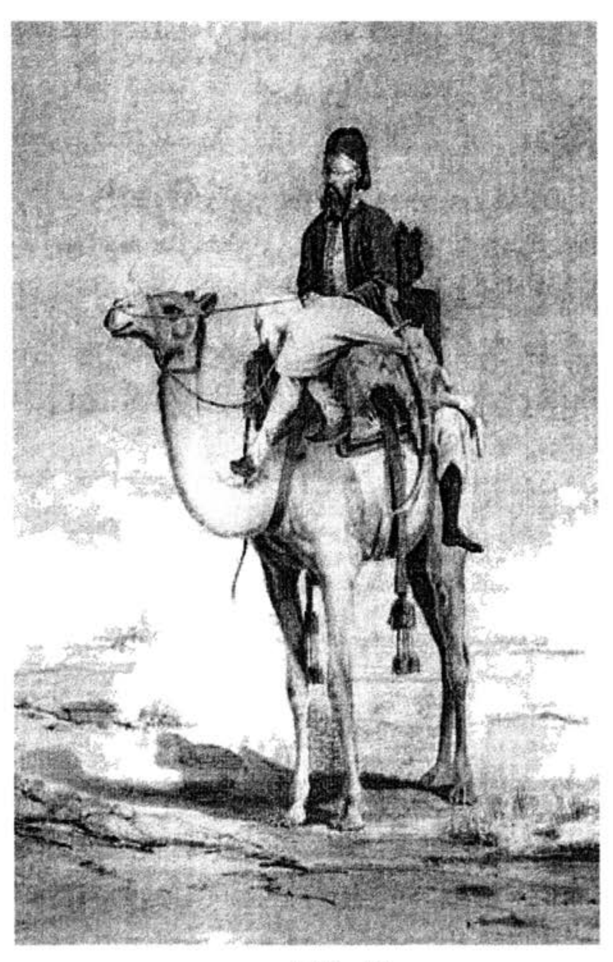
فوق ساق، عند إحدى الطاولات المنخفضة المستديرة الشائع وجودها هناك. ويرتدون سراويل خفيفة من القطن وقمصانًا فضفاضة طويلة ذات أكمام قصيرة. كان "ليبسيوس" يرتدي قبعة أوروبية من اللباد رمادية اللون وذات إطار عريض من أجل أن يكون جديرًا باحترام العرب.

اتخذ "ليبسيوس" من "عواد" - الشجاع العجوز - مرشدًا له بسبب معرفته الجيدة بالأماكن المحلية. لكن عندما أراد "ليبسيوس" ذات يوم أن يمتطي ظهر الحصان ليذهب إلى قرية في الجانب الآخر من البحيرة الجافة في مدينة "هابو"، لم يتمكن "عواد" من مرافقته إلى هناك. أجل، فقد خاف "عواد" حتى من نطق اسم تلك القرية. لم يعرف "ليبسيوس" سبب ذلك إلا فيما بعد عن طريق أشخاص آخرين. إذ كان الأمر متعلقًا بثأر دموي! فقبل سبع سنوات، ضرب أحد أفراد عائلة "عواد" رجلًا وقتله، وظلت الأسباب مجهولة. وانتقل أفراد عائلة القتيل بأكملهم إلى القرية الواقعة على الجانب الآخر من البحيرة الجافة ولم تطأ أقدامهم منذ ذلك الوقت أرض "القرنة" ثانيةً. وصار من حق أي شخص من العائلة الأخرى أن يقتل "عواد" أو أي فرد آخر من عائلته على الملأ إن ظهروا في القرية. كان قانون الثأر الدموي هو القانون السائد.

عندما عاد "ليبسيوس" من رحلته الاستطلاعية بعد أسابيع قليلة، أقبل عليه "عواد" برأس مربوط بضمادة وألقى عليه التحية بصوتٍ واهن، لقد أفلت من مخالب الموت. فقد عاد ذات مساء مع أحد أقاربه من "الأقصر" وتعرض لهجوم من عائلة القتيل. استهدف المهاجمون الشخص المرافق لـ"عواد" أكثر مما استهدفوه هو. حتى أنهم صاحوا في وجهه لينصرف

بعيدًا. تلقَّى "عواد" ضربة عنيفة فوق رأسه بسلاح حاد، كادت أن تصير ضربةً قاتلة، لأنه أراد الدفاع عن قريبه. فسقط "عواد" على الأرض مغشيًا عليه. بينما تعرض قريبه للقتل وألقيت جثته في نهر النيل. لقد راح ضحية ثأر دموي استمر لسبع سنوات. ثم ساد السلام من جديد بين العائلتين.

بعد ذلك بقليل، حزم أفراد البعثة الاستكشافية حقائبهم مرة أخرى. وقبل أن يبدأوا السفر، كتب "ليبسيوس" قائلًا: "تلقينا قبل قليل النبأ السار حيث إن تمثال الكبش الضخم الخاص بنا وباقي الآثار الإثيوبية قد وصلت إلى "الإسكندرية" بسلام. وسوف ننقل معنا من هنا أيضًا بضعة آثار مهمة، من بينها تابوت جميل مصنوع من حجر جيري أبيض اللون ذي جودة فائقة وبه نقوشات مرسومة على بعض أجزائه ويرجع تاريخه إلى المملكة القديمة، أي إلى الأيام الأولى التي تمتعت فيها "طيبة" بأهمية متزايدة". واختار "ليبسيوس" أن يأخذ من "قصر الشمس الساطعة"، الذي أمر "أمنحتب الثالث" ببنائه خلف مدينة "هابو" بالقرب من مكان البحيرة الجافة، رأس تمثال الفرعون الضخم، الذي بلغ وزنه بضع مئات من القناطير، إلى المتحف في برلين.



كارل ريشارد ليبسيوس

نجح "ليبسيوس" في معركة أخرى أيضًا: "منحتني شعورًا مضاعفًا بالسعادة؛ لأنها لم تتم سوى بجهد لا يوصف وكشفت عن أثر تذكاري لا يتأتى بسهولة العثور على نظيره في متاحفنا". فقد عثروا في فتحة عميقة

على تماثيل ملكية. "تمنيت أن أفصل هذه التماثيل التي احتلت الجدار بأكمله. لكن من أجل تحقيق هذا الغرض، كنت مضطرًا لأن أكسر الجدران المبنية من الطوب اللبن المحيطة بها ثم أنتزع الطوب اللبن الموجود خلف الجبس المزخرف طوبة تلو طوبة وبأقصى درجة من الحرص. وهكذا نجحت اليوم أخيرًا بعد عمل شاق في نقل الجبس المزخرف بأكمله، والذي بلغ سمكه إصبعًا واحدة، مع الصور السليمة تمامًا والموجودة في لوحتين مصنوعتين من ألواح خشبية ومبطنتين بفراء وكتان وورق. ونجحت كذلك في إخراجها من كهف المقبرة الضيق الذي كاد أن يكون مردومًا".

عند مغادرة "ليبسيوس" لمصر، حزم العمال المهرة المسافرون من برلين ألفًا وخمسمائة قطعة أثرية، من بينها عامود ملون بألوان زاهية مُستَخرج من مقبرة "سيتي الأول" وكذلك ثلاث غرف دفن كاملة منقولة من "الجيزة". أثارت الطريقة الوقحة، التي تصرف بها "ليبسيوس" انزعاج الدبلوماسي البروسي القائم بالأعمال في القاهرة. فأخذ يرسل تقارير إلى برلين مرارًا وتكرارًا ويذكر فيها أنه نصح "ليبسيوس" بمزيد من التحفظ. وأضاف أنه لا يجوز القيام بمثل تلك الأعمال علانيةً على وجه الخصوص في مكان يقبل الناس على زيارته كثيرًا مثل معبد "الرامسيوم" حيثما هدم "ليبسيوس" جدارًا لينقل تابوتًا حجريًا. وأضاف أن ما حدث يخالف "الأمر المهم" الصادر من الحكومة المصرية بحظر هدم الآثار. وربما كان المبعوث البروسي يُفضِّل أن يظل أمر هدم غرف الدفن في "الجيزة" و"سقارة" طي الكتمان. وإلا كان "محمد علي" سيتراجع عن السماح بتصدير أغراض البعثة الاستكشافية كافة والتي تم السماح بخروجها بالفعل.

لكن "محمد علي باشا" سمح بكل شيء وجعل الأغراض هدية لملك بروسيا. لدرجة أنه أرسل زوارق تابعة للحكومة من أجل نقل الآثار من "طيبة" إلى "الإسكندرية".

حدث هذا كله في عصرٍ منعت فيه الحكومة المصرية بشكلٍ صريح المسافرين وتجار الآثار كافة وحتى أفراد البعثات الدبلوماسية من اقتناء القطع الأثرية وتصديرها. مما أثار غضب الخصوم الإنجليز والفرنسيين في المقام الأول. وقد انتقد عالم الآثار "ألكسندر هنري ريند" هذا الأمر فيما بعد قائلًا: "هذه البعثات الاستكشافية الحكومية جعلت من قواعد المضاربة في مجال التعدين موضوعًا يتعرض له الناس بالبحث، فالأمر يدور حول تحقيق ربح ملموس في مقابل التكاليف الباهظة".

لكن أحدًا لم ينكر الخدمات العلمية التي قدمها "ليبسيوس". فقد أخذ معه من مصر خمسة عشر ألف قالب مصبوب من الجبس. كما أن "ليبسيوس" وصل في رحلاته إلى السودان، وبحث لغات إفريقية ولهجات نوبية، وقيَّد أسماء أماكن عربية، وأعد خرائط، وجمع عينات من مواد بناء لإجراء أبحاث. وما زالت أجيال من علماء المصريات تنهل حتى اليوم من نبع ما خلَّفه "ليبسيوس" من وثائق.

وكان "ليبسيوس" قد أرسل في أثناء وجوده في مصر بالفعل إلى برلين تصوراته الدقيقة عن كيفية عرض مجموعة قطعه الأثرية في المتحف الجديد بشكل لائق. ومنذ عام 2009، صار من الممكن الاستمتاع بها هناك من جديد حيث يتم عرضها بألوان بديعة وبطريقة صممها "ليبسيوس" بنفسه.

8
من مُهرِّب إلى مدير متحف

بعد خمسة أعوام من رحيل "ليبسيوس"، جاء رجل فرنسي إلى مصر وكان يقوم بتصنيع صناديق خشبية كل يوم. كانت الصناديق تُنقَل كل شهر على متن فرقطاتين تابعتين للقوات البحرية إلى "مارسيليا" ومنها إلى متحف "اللوفر" في باريس. بدأ هذا الرجل عمله بوصفه واحدًا من أكثر خبراء الحفر والتنقيب انعدامًا للضمير، ولكنه يُعد اليوم أول شخص يحافظ على كنوز الحضارة الفرعونية بشكلٍ حقيقي. وفي نهاية الأمر، سجَّل علم الآثار اسم هذا الرجل باعتباره رجلًا شريفًا، نظرًا لأنه أسس مصلحة الآثار والمتحف المصري: إنه "أوجست فرديناند فرانسوا مارييت".

تعلَّم "مارييت" رموز كتابة اللغة المصرية القديمة بنفسه وحصل بذلك على وظيفة في متحف "اللوفر"، وعمل بنسخ النقوش بوصفه مساعد باحث. تم إرسال "مارييت" في عام 1850 إلى مصر لكي يجمع مخطوطات قبطية. إلا أن البطريركية القبطية لم ترحب بذلك الأمر. فقد ظلت الأديرة آنذاك موصدة في وجه الأغراب، فقبل سنوات قليلة، سقى بعض الإنجليز الرهبان خمورًا وسرقوا المحتوى الكامل لمكتبة الدير بما فيه من مخطوطات نادرة.

وبدلًا من أن يجمع "مارييت" حفنة أوراق، اكتشف في "سقارة" المدخل المؤدي إلى متاهة، أخفى فيها البعض قبل ثلاثة آلاف عام معرضًا

كاملًا مكونًا من توابيت ثمينة يرجع تاريخها إلى الأسرة التاسعة عشرة. أي أن "مارييت" اكتشف مقبرة "سرابيوم سقارة" بما فيها من توابيت حجرية تخص ثيران "أبيس" المقدسة. وبسبب هذا الكشف الأثري، اعترف العالم بـ"مارييت" عالمًا للآثار. فأخذ يستخدم الديناميت في عمله بصورة تفتقر إلى المشروعية ودون أن تكون له خبرة ميدانية ودون أن يحصل على ترخيص بالحفر والتنقيب. كان يضلل السلطات بكل ما أُوتي من حيل وينافق ويكذب ويخادع.

تم إنشاء ورشة نجارة في مقبرة، دُفِنَت بها فيما سبق مومياوات لطيور "أبو منجل". وصارت الصناديق الخشبية تُصنَع كل يوم في هذه الورشة من أجل استخدامها في عمليات النقل. وبالإضافة إلى الاكتشافات الأثرية الكبرى مثل اكتشاف ستة تماثيل على شكل "أبو الهول" وأسدين، هرَّب "مارييت" إلى باريس أربعة وأربعين صندوقًا خشبيًا بها سبعة آلاف قطعة أثرية مُكتشَفة.

بعد وفاة الوالي "محمد علي"، صار "عباس الأول"، أحد أبنائه، واليًا. وقد سماه الشعب "الرجل القاسي". أراد "عباس الأول" أن يمنع "مارييت" من شحن الكنوز إلى باريس وطالب بأن تؤول ملكية القطع الأثرية المُكتشَفة كافة إلى حكومته. لم يتأثر "مارييت" بذلك. إذ كانت سفينة، تحمل علم فرنسا، قد شقت طريقها بالفعل لتنقل الكنوز إلى متحف "اللوفر". وفرَّ "مارييت" من الباشا عائدًا إلى باريس على متن سفينة حربية.

عندما تعرض "عباس الأول" للخنق في حوض الاستحمام على يد اثنين من خدمه، خلفه "محمد سعيد" في الحكم في عام 1854 وتمكّن "مارييت" من العودة إلى معشوقته مصر في عام 1857. استطاع "مارييت" على الفور أن يتملق الباشا الجديد. فعندما عثر أحد عماله على التابوت الذهبي لإحدى الملكات بالقرب من "طيبة"، رأى "مارييت" في هذه القطعة الأثرية النفيسة فرصةً لذلك. لكن قبل أن يتمكن "مارييت" من إحضار القطعة الأثرية المُكتشَفَة إلى القاهرة، سرقها المدير؛ أي مدير منطقة "طيبة"، وذهب بها إلى الحرملك الخاص به. ثم خطر ببال المدير كذلك أن يقدم التابوت النفيس هديةً للباشا الجديد وهذا للسبب نفسه الذي راود "مارييت". تتبع "مارييت" قارب الشحن في النيل وهو يشتعل غضبًا ونجح في أن يعترض سبيل لص التابوت. قفز "مارييت" إلى متن القارب وطالب بتسليم التابوت الذهبي. تطور الأمر إلى شجار عنيف ووجَّها اللكمات لبعضهما وكاد أحد الرجال أن يسقط في الماء. وقبل أن يتطور العراك إلى تبادل إطلاق نار، استسلم مدير المنطقة وسلَّم التابوت الذهبي لـ"مارييت".

حظي "مارييت" بمكانة كبيرة لدى "سعيد باشا" ربما بسبب التابوت الذهبي، وبغض النظر عن كون هذه القصة صحيحة بالأساس أم لا، ربما كان السبب أيضًا أن "محمد سعيد" يشعر بسبب تربيته أنه نصف فرنسي. وعندما أعرب الأمير الفرنسي الشغوف بالفن "بلون - بلون" ابن عم الإمبراطور الحاكم "نابليون الثالث" عن رغبته أن يقوم برحلة إلى مصر، عقد "سعيد باشا" العزم أن يوفر له إقامة كأنه أحد الأباطرة وأن

يوليه كل اهتمام ممكن. وأن يمنحه في المقام الأول الحق في الحصول على تحف أثرية - أو "أنتيكات" حسبما أطلق عليها أهل البلاد - كما يحلو له.

عندئذ سنحت الفرصة الكبرى لـ"مارييت". فقد كلَّفه "سعيد باشا" أن يستكشف آثارًا جديدة لا يعرفها أحد، وأن يكشف عن الآثار المدفونة تحت الرمال. حينها صارت مصر القديمة تحت سطوة "مارييت". أمر "مارييت" بالقيام بأعمال الحفر في أربعين موضعًا في الوقت نفسه. فأخذ العمال ينطلقون بين القاهرة و"أسوان" واستخدموا الجرافات وصارت المدقات تطقطق. ولم تتدفق الاكتشافات الأثرية من باطن الأرض إلا بهذه الطريقة. غير أن الأمير "بلون - بلون" تخلى فجأة عن خطته للسفر إلى مصر. ورغم ذلك، راودت الرغبة "سعيد باشا" في أن يُقدِّم الأنتيكات إلى صاحب السمو الإمبراطوري، فأرسل إليه في باريس جزءًا كبيرًا منها. لكن ظل هناك سؤال بلا إجابة: إلى أين يؤول باقي تلك الاكتشافات الأثرية؟

لقد ذهب "مارييت" بها إلى متحف "اللوفر" من أجل أن يثريه بها. لكنه عدل عن ذلك. فقد كان عندئذ مُكلَّفًا بخدمة مصر. ونجح "مارييت" في إقناع الباشا شيئًا فشيئًا أن بناء متحف كبير للحضارة المصرية القديمة في القاهرة سوف يزيد من شهرته ويغري أعدادًا لا تحصى من الزوار بالمجيء إلى القاهرة. وعيَّن الباشا "مارييت"، ذلك الرجل الفرنسي، في منصب مدير عام المتاحف ومصلحة الآثار.

منذ ذلك الوقت فصاعدًا، حاول "مارييت" بكل طاقته وبالاستعانة بكل الوسائل المتاحة له أن يُنفِّذ المرسوم الذي يقضي بحماية الآثار في مصر. فصار الأمر التالي ساريًا في المصالح الجمركية: "يُحظَر تصدير

التحف الأثرية. ويتم فتح كل الأمتعة وكل الشحنات التي تغادر مصر من أجل تفتيشها. وتتم مصادرة التحف الأثرية التي يتم العثور عليها ما لم تكن مزودة بتصريح صادر من المتحف يسمح بتصديرها".

وجد وكلاء المتاحف الأجنبية وأيضًا العلماء هذا الأمر مثيرًا للسخرية. وتم إبلاغ المسافرين إلى داخل البلاد بالحظر، غير أن من كانوا يجمعون القطع الأثرية بهدف اقتنائها وكذلك جحافل السياح لم يأخذوا الحظر على محمل الجد. فقد شعر المسافرون إلى بلاد النيل بأن هناك شيئًا ما سينقصهم إن لم يكن في حقائب سفرهم وهم في رحلة عودتهم إلى أوطانهم مومياء أو تابوت أو تمثال أو على الأقل بردية أو جعران. وعلى النقيض من ذلك، ساعدت هذه التعليمات في تحفيز المشاعر لديهم بشكل جديد ومختلف، فقد تحوَّلت عملية تخطي المسافرين للحواجز الجمركية لتصبح بمثابة مغامرة كبرى أخيرة يخوضونها.

رفع "مارييت" يديه عن منطقة واحدة فقط؛ ألا وهي وادي الملوك. فقد عرف من عالم الآثار الألماني "هاينريش بروجش" أنه لا سبيل للوصول إلى أسرار هذا المكان باللجوء إلى القوة.

جاء "هاينريش بروجش" إلى مصر للمرة الأولى في عام 1853 بناءً على أمر صدر من الملك "فريدريش فيلهلم الرابع" ملك بروسيا وعلى نفقته؛ شأنه في ذلك شأن "ليبسيوس" الذي تورط في منافسة طوال حياته من أجل تحقيق المجد ونيل المناصب. عاش "بروجش" وقتًا طويلًا لدى "مارييت" في منزله الموجود في "سقارة" بالقرب من مقبرة "سرابيوم". وصار كلا الشخصين المتناقضين صديقين وعملا معًا لسنوات. أطلق

"مارييت" على "بروجش" اسم "le Prussien de mon coeur" أي "بروسي الحبيب".

كان "بروجش" على دراية تامة بـ"القرنة". فمن أجل أبحاثه، كان قد اتخذ لنفسه مسكنًا على تل الشيخ "عبد القرنة"، على مقربة كبيرة من موضع منزل "ليبسيوس" السفلي الذي تهدَّم بعض الشيء في غضون ذلك. كان "عواد" العجوز الطيب، الذي سبق وأن كان مرشدًا لـ"ليبسيوس" قبل عشر سنوات، رفيق "بروجش" في جولاته، وكان يشعر بسعادة عارمة عندما يسمع أخبارًا عن "ليبسيوس". روى "بروجش" هذا الأمر وأشياء أخرى كثيرة في "تقارير الرحلات من مصر" وسيرته الذاتية "حياتي وجولاتي". فقد روى كيف كان يتسلل على بطنه في حرارة حارقة ليدخل إلى الممرات المردومة بالرمال في كثير من الأحيان في وادي الملوك المقفر والخالي من أي نباتات، ويتحسس طريقه في داخلها على أرض ممتلئة بالأحجار المدببة، بينما يحمل في إحدى يديه مصباحًا وفي اليد الأخرى كتابه الذي كان يدون فيه ملاحظاته، وفي فمه قلمًا، ويحيط به دومًا في ذلك المناخ الخانق الممتلئ برائحة المومياوات حشدٌ لا يُحصى من الخفافيش. حكى "بروجش" عن معابد يرجع تاريخها لعهدٍ عتيق وعن رسومات مُصوَّرة على الجدران، عن صور لناس ذوي وجوه حمراء ولحى صغيرة أسفل ذقونهم، وعن ملوك وقعوا في الأسر وتعرضوا للاستهزاء وتم تشذيب ذقونهم وتلقوا ضربات لتأديبهم. وقد استشهد "بروجش" بنصوص باللغة الهيروغليفية قائلًا: "يمتلئ قلبي ببهجةٍ كبيرة عندما

أنظر إلى أعمالك الطيبة، سوف نمنحك من أجل ذلك سنوات طويلة من شمس الصباح وسنوات شمس الغروب".

رأى "بروجش" ذات مرة بالخارج في البرية سربًا كبيرًا للغاية من طيور من كل صنف ونوع تصطاد الأسماك في نهر النيل. وعندما صار قريبًا منهم بدرجة كافية، أطلق رصاصة خرطوش وسطها وعندئذ ارتفعت مجموعة الطيور كلها عاليًا وحلَّق جيش الطيور أعلى رأسه وهي ترفرف بأجنحتها بصوتٍ عالٍ؛ مما أجبر "بروجش" على الانحناء. كما حكى "بروجش" عن الاحتفاليات المقامة بمناسبة افتتاح "قناة السويس" وعن مغامرات الإمبراطور "فرانتس يوزف" إمبراطور النمسا عند تسلق هرم "خوفو". وكذلك عن "سعيد باشا" البدين؛ ذلك الوالي ذي الوجه الضخم الذي تحيط به لحية شقراء لونها مائل إلى الاحمرار، والعينين اللتين تغمزان، والذي كان رجلًا مرحًا، ينفجر في الضحك بصوتٍ عالٍ بين الحين والآخر. وحكى "بروجش" بحنان ورقة عن مدرسته، توقف في عام 1870 عن عمله النظامي بوصفه أستاذًا جامعيًا في "جوتنجن"، لأن الوالي استدعاه إلى القاهرة لكي يدير "مدرسة اللسان المصري القديم"؛ مشروع القرن الذي كان من شأنه أن يسمح للمصريين أخيرًا أيضًا أن يتدربوا ليصبحوا خبراءً في علم المصريات. تابع "ماربيت" هذا الأمر بريبة، إذ راوده الشعور بالخوف من انتهاء احتكار الأوروبيين لهذا العلم. "بقدر ما اجتهدت في أن أبعثه على الهدوء حيال ذلك الأمر، ظل متشككًا لدرجة أنه أصدر بنفسه أوامر للعاملين في المتحف بألا يسمحوا لأي شخص من السكان المحليين بنسخ النقوش الهيروغليفية. فكان يتم إقصاؤهم ببساطة".

كتب "بروجش" عن أمور كثيرة لكنه لم يستطع أن يحكي شيئًا تقريبًا عن شقيقه "إميل". وذلك رغم أن شقيقه عمل منذ عام 1870 بأعمال الترميم في المتحف في القاهرة لدى "مارييت" صديق "هاينريش بروجش". ربما يرجع السبب في ذلك إلى ما أُشيع عن أن شقيقه كان "شخصًا غامضًا"، وأنه تورط في أعمال مريبة. وسرعان ما أصبح "إميل" الرجل الخبير الذي لا يمكن الاستغناء عنه في المتحف، والرجل الذي يعمل بالإدارة. فأصبح مساعدًا للمدير "مارييت" وكذلك المدير "ماسبيرو" فيما بعد. كان "إميل" يلتقط صورًا فوتوغرافية للمقتنيات ويفحص المومياوات ويقوم بأعمال التصنيف والأرشفة. ولم يكن من قبيل المفاجأة أنه كان يتاجر في التحف الأثرية بطرق غير مشروعة قبل توليه مهام منصبه. لكن عندما كتب عالم الآثار المرموق "ليونارد وولي" أن "إميل بروجش" باع خلسةً مقتنيات من واجهات العرض في المتحف وأن هذا تنامى إلى علم "ماسبيرو"، طرح السؤال نفسه: كيف تمكن "إميل بروجش" من الاحتفاظ بمنصبه حتى عام 1914، ذلك العام الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الأولى. على كل حال، كان شقيق "هاينريش بروجش" الأصغر مساعدًا لكل مديري المتحف في تلك العقود، إنه شخص لم يمر به أي إنسان مرور الكرام ممن عملوا بالآثار في مصر.

لم يظهر "إميل" في حكايات "هاينريش بروجش" بصورة ملموسة إلا قرابة عام 1880 عندما شعر "مارييت" بأن أجله قد اقترب. فكان "هاينريش بروجش" يجلس كل يوم بجوار "مارييت" وهو في فراش المرض لكي يمسك بيديه. "رجاني صديقي المريض بصوتٍ واهن أن

أسدي له خدمة الذهاب مع شقيقي "إميل" إلى قلب الحدث لكي نتفقد الأهرامات التي تم افتتاحها ونقدِّم له تقريرًا عن ذلك".

فقد تمثَّل النجاح الأخير لـ"مارييت" في افتتاح الأهرامات الثلاثة بالقرب من "سقارة" والتي ترجع للأسرة الفرعونية السادسة. وكان "مارييت" يخمِّن أنه سيعثر في غرف الدفن بها على نقوش مهمة. وفي صباح اليوم التالي، انطلق "هاينريش" مع شقيقه "إميل" أولًا بقطار السكة الحديدية ثم امتطيا ظهور الحمير المنتظرة ووصلا بعد ساعتين إلى مدخل الهرم المفتوح. وقد أحاط بهما خطر مستمر أن يتعرضا للدهس والسحق بفعل الكتل الحجرية المتأرجحة أعلى جسديهما.

بعد أن فتش "هاينريش بروجش" الأهرامات، بدأ يسلك طريق العودة بصحبة شقيقه "إميل" لكي يبلغ "مارييت" في مساء اليوم نفسه بأحداث التفتيش الذي أجراه. وحدثت حكاية غريبة تنم عن تعامل علماء الآثار فيما سبق باستهتار مع قطع الآثار المكتشفة. فقد أخذ الشقيقان معهما إحدى المومياوات لـ"مارييت". "قلت لنفسي إن صديقي المحتضر ربما يشعر بسرور أخير إن استطاع أن يرى بعينيه مومياء أحد الملوك القدامى لمصر والعالم".

وضع "هاينريش" مومياء الحاكم الفرعوني القديمة اليابسة في تابوت خشبي ضيق. وثبَّت شقيقه الحمولة الغريبة أمامه بشكلٍ عرضي على ظهر الحصان الذي كان يمتطيه. وهكذا وصلا، بعد ساعتين من امتطاء ظهر الحمير وقبل دقائق قليلة من بداية رحلة القطار، إلى محطة السكة الحديدية بالقرب من نهر النيل.

وبسبب مومياء الفرعون، لم يسافر الشقيقان في عربة الدرجة الأولى وإنما ركبا في عربة الأمتعة. وقبل أن يصلا إلى المحطة الأخيرة بمسافةٍ كبيرة، لم تكتمل الرحلة بسبب ضرر تعرضت له قضبان السكة الحديدية. فاضطرا إلى العودة إلى موقف السيارات سيرًا على الأقدام. أمسك الشقيقان بالتابوت الخشبي من كلا طرفيه حتى يحملاه إلى المحطة. وبدا وزن الفرعون الميت يزداد من دقيقة لأخرى. "في سبيل تخفيف الحمولة، تخلينا عن التابوت وأمسكنا بجلالته من طرف رأسه ومن قدميه. عندئذ انكسرت مومياء الفرعون من المنتصف وحمل كل منا نصفها أسفل ذراعه". بعد السير على الأقدام لمدة نصف ساعة، ركب الشقيقان عربة حنطور ومعهما مومياء الملك المنشطرة وذهبا بها إلى "مارييت" المحتضر.

بدا أن هذه الحكاية قد بعثت السرور في نفس "مارييت" لكنه وجد المومياء مثيرة للاشمئزاز. إذ إنه لم يكن يكترث سوى بالسؤال عما إذا كانت هناك نقوش حقًا في هذه الأهرامات. واستطاع "هاينريش بروجش" أن يؤكد له هذا. ووافت المنية "مارييت" بعد بضعة أيام.

راود الأمل "هاينريش بروجش" أن يصير خليفةً لـ"مارييت". إذ كانت الإمبراطورية الألمانية قد صارت قوة عظمى في أوروبا، وهزمت فرنسا هزيمة نكراء في حرب عام 1871. وفي أثناء حصار القوات البروسية لباريس بالفعل، كانت هناك مؤامرة من أجل عزل "مارييت" وجعل "بروجش" يتبوأ منصب المدير. لم يشارك "بروجش" في هذه اللعبة وقدَّم له "مارييت" الشكر على ذلك بمشاعرٍ فياضة. لكن بعد وفاة "مارييت"، لم يصير "بروجش" خليفةً له وإنما خلفه رجل فرنسي؛ ألا

وهو "جاستون ماسبيرو". فشعر "هاينريش بروجش" بخيبة أمل قائلًا: "لقد تعرضت الحكومة المصرية للترهيب وتم قمعي بناءً على رأي الوالي وحكمه، وذلك لسبب واحد هو أنني أتشرف بكوني ألمانيًا وأن الأمة العظيمة تستاء مني بسبب ذلك. بينما يحق لي أن أتولى المنصب".

لم تسنح أي فرصة لذلك أمام "هاينريش بروجش". ففي عقد الاتفاق الودي، الذي نص في عام 1904 على تقسيم مستعمرات شمال إفريقيا بين إنجلترا وفرنسا، احتفظت إنجلترا بحكم مصر لكن تم الاتفاق بشكلٍ صريح على "أن توكل الإدارة العامة للآثار في مصر في المستقبل أيضًا - كما كانت في الماضي - لعالم فرنسي". ومنذ عهد "مارييت" وحتى اليوم، تسري القاعدة التي تنص على أن مدير مصلحة الآثار في مصر هو "فرعون علم الآثار" ولاعب كبير في ملعب السياسة الدولية.



9
السائحات في "الأقصر"

إن كلمة "مصر" - التي يكتفي كثيرون بالهمس بها فحسب - تثير في النفس سحر حضارة روحانية، لا تزال تشهد على وجودها بضعة أطلال. فقد تفاخر الملك الإله "أمنحتب الثالث"؛ ذلك الأسد الساخط الذي كان أعداؤه يتجمدون في أماكنهم من نظرة واحدة من عينه، قائلًا: "لقد طاب لقلبي أن أشيد آثارًا على نحو لم يسبق له مثيل قط منذ بدء كلتا الدولتين". إذ إنه بنى في "الكرنك" و"الأقصر" معابد، ما زالت أعمدتها ترتفع سامقةً إلى عنان السماء الساطعة، وذلك تكريمًا لإلهه الأعظم "آمون رع". كما كان علية القوم في أوروبا في القرن التاسع عشر يُفضِّلون القيام برحلة نيلية إلى مدينة "طيبة"، مدينة المائة باب، للهروب من المناخ الشتوي القاسي في أوروبا. هنا كانوا ينزلون من سفن "دهبية" وعندما كانت الشمس تغرب في المنطقة الغربية، كانوا يودعونها بطلقات سريعة متلاحقة من مسدساتهم وبنادقهم ويستقبلون عندئذ الليالي بحفلات العشاء الفاخرة المقامة على النيل.

كما أن النساء، اللواتي تحولت تقاريرهن عن الرحلات إلى أكثر الكتب مبيعًا، جعلن السفر في النيل أمرًا محبوبًا وجذابًا.

كانت "إيدا فون هان هان"، تلك السيدة النبيلة الثرية الأرستقراطية، التي يرجع أصلها إلى ولاية "مكلنبورج"، إحدى الكاتبات الناجحات في

عصرها. وقد استأجرت في عام 1843 واحدًا من أكبر الزوارق في ميناء القاهرة، وكان على متنه طاقم مكون من ثمانية عشر رجلًا ومخزون وفير من السكر والقهوة والنبيذ والشموع والأرز والمكرونة وسلة ممتلئة بالدجاج. لكنها امتنعت في كتابها "رسائل شرقية" الصادر في العام التالي لذلك عن ذكر أنها كانت في أثناء الرحلة برفقة عدد كبير من الخدم الألمان كذلك وبجوار البارون شريك حياتها الجديد بعد أن تم طلاقها مؤخرًا.

كانت "إيدا فون هان هان" تحب أن تستلقي على الأريكة في غرفة الانتظار المفتوحة فتمر بها المناظر الطبيعية بينما يعزف طاقم البحارة الموسيقى في مقدمة الزورق لساعات طويلة ويرقص أحدهم على أنغامها. وعندما كان الرجال يديرون دفة السفينة، كانت "إيدا فون هان هان" تتجه إلى مقدمة السفينة وتشاهد كيف يتسلق المصريون إلى الجزء الخارجي من عمود الصاري، وهم يرتدون قمصانًا ترفرف في الهواء، أو يحاولون أن يحرروا الزورق الذي جنح على ضفة رملية ويستخدمون في ذلك عواميد يبلغ طولها طول شجرة، ويتغنون في أثناء ذلك بأغانٍ ذات إيقاع جاد لمدح نبيهم. وعندما تنجح المناورة لتغيير اتجاه السفينة، تتحول الأغنية إلى صراخ عالٍ. وكانت أغاني مدح النبي هذه تنطلق عند تغيير وضع الأشرعة وجذبها إلى أعلى أيضًا وعند جذب الزورق من أجل رفع سرعته. كان القبطان، وهو رجل وسيم بصورة جاذبة للأنظار، يرتدي عمامة فاخرة ومعطفًا أنيقًا من الصوف لونه أزرق داكن. وكان يقف في منتصف السفينة، في أثناء المناورات الخطيرة لتغيير اتجاه السفينة، ويغني ويتحول في أثناء ذلك من جهة إلى أخرى بينما يرفع ذراعيه إلى أعلى.

وفي المساء، تظل الضفاف متمتعة بالحيوية لوقتٍ طويل. حيث كانت "إيدا فون هان هان" تراقب كيف تتصاعد ألسنة اللهب في القرى وكيف يقود الأطفال والنساء قطعان الخراف والماعز، التي تتعالى أصواتها، لتذهب إلى المنزل. كيف تنبح الكلاب وتنهق الحمير. كيف تدوي أصواتٌ عالية في كل مكان. "إن الأمسيات على ضفاف نهر النيل هي أجمل أمسيات عشتها. هناك يمضي الناس كأنهم بين سماءين".

تدافع التجار نحو "إيدا فون هان هان" وحاصروها؛ شأنها في ذلك شأن كل من يصل إلى "الأقصر". فكان من يتمتع منهم بقدرٍ كبير من الجرأة يصعد على متن سفينة "دهبية" ويجلس هناك بصبر ورزانة ويترقب الفرصة ليُخرج من أحد جيوبه المستترة كيسًا به جعران أو تماثيل جنائزية. كان الجميع مهذبين وجذابين وماهرين في الخداع والكذب. الصبي الذي يسوق الحمار، والمرشد السياحي الذي يرشد السياح بين المقابر، والفلاح شبه العاري الذي يلقي بفأسه على الأرض عندما يمر به أحدهم وهو يمتطي ظهر أحد الخيول ويركض خلف الحمار، وابن البلد الوجيه الذي يجلس بجوار الأجانب عند تناول وجبة العشاء، كل شخص يحمل في جيبه جعرانة رائعة ويريد أن يعقد صفقة ما. عندما يلاحظ التاجر أنه يتعامل مع مشترٍ خبير، فإنه يُخرِج أجمل قطعة بحوزته. بينما يُحذِّر الموظف، الذي يرتدي عمامة فاخرة ويتجول بأدب وتهذيب ويرافقه في أثناء ذلك سكرتيره أو الشخص الذي يحمل له الغليون، المشترين من التعرض للغش ويشير إلى الكنوز الأصلية التي يملك وحده مفاتيحها.

وسط صخب العرب، الذين لا يرفعون أعينهم لحظة عن السياح ويحيطون بهم باستمرار، يقدم السياح على مغامرة شاقة، إذ يمتطون ظهور الخيول في الأطلال تحت أشعة الشمس الساطعة. فيهبطون في وادي الملوك إلى دهاليز المقابر تحت الأرض ويتسلقون ويزحفون وسط مشاعر دائمة من الإثارة والإعجاب والفضول.

وفي غمار كل صخب السياح هذا، وبعد عشرين عامًا من سفر "إيدا فون هان هان"، امتطت امرأة ظهر أحد الحيوانات بهدوء خلف خادمها "عُمَر". حيث حملتها حَمِيرها وسارت بها وسط الرؤوس الضخمة التي ترتدي خوذًا وهي رؤوس تماثيل "رمسيس الثاني"، التي يبلغ ارتفاعها عشرين مترًا والمدفونة في الرمال حتى ذقونها.

تلك السيدة هي "لوسي داف-جوردون". لم تأتِ تلك السيدة إلى مصر بدافع الفضول المحض أو النهم لأن تتعلم. وإنما غادرت إنجلترا وزوجها وأبناؤها بسبب مرض رئتيها. لم يجعلها هذا الأمر هشة بل كانت سيدة جميلة فاتنة من أرقى الأوساط في إنجلترا. كانت في الأربعين من عمرها، امرأة متعلمة ولها دور في الحياة الاجتماعية، جذابة وعذبة الحديث وطيبة القلب. لكنها كانت تصاب بنوبات سعال مخيفة. فكانت تسعل وتسعل وتجتاز نوباتها وهي تلهث. وكانت درجة الحرارة في القاهرة باردةً جدًا بالنسبة لها نظرًا لمرضها. فاضطرت للذهاب إلى "الأقصر". ونصحها بعض الناس بأن تصطحب معها ترجمانًا، أي مترجمًا شفهيًا ومرشدًا، "رجلًا لكل المهام"، حيث قيل لها إنها لا يمكنها أن تسافر إلى مصر دون

أن يكون بصحبتها رجل مصري. فرشح لها القنصل العام الأمريكي الشاب "عمر".

امتطى "عمر" والسيدة الأرستقراطية ظهر أحد الحيوانات ووصلا إلى آخر المعبد تمامًا؛ حيث منزل "مصطفى أغا عياد" وكيل قنصلية إنجلترا وروسيا وبلجيكا. هذا المنزل كان بمثابة مسرح أحداث الحياة الاجتماعية في "الأقصر"، ففي هذا المنزل قابلت "لوسي داف-جوردون" أهم شخصيات كان عليها أن تتعرف عليها. وقضت أجمل أمسيات لدى "مصطفى أغا عياد". كان "مصطفى أغا عياد" يتاجر في التحف الأثرية المصرية تجارةً مربحة متخفيًا خلف الحصانة الدبلوماسية وهو ما اعتُبِرَ سرًا علنيًا. وعن هذا الأمر قال "باديكر" بصورة جافة: "على كل القناصلة أن يبيعوا تحفًا أثرية". وقد أشيع عن "مصطفى أغا عياد" أنه أغنى رجل في "الأقصر". فعندما استأجر "أوجست ماربيت" عمالًا متخصصين في أداء الأعمال الشاقة من أجل أن يقوموا بأعمال حفر وتنقيب ولم يدفع للرجال الأجر الذي وعدهم به، ذهب الرجال إلى "مصطفى أغا عياد". فأقرضهم مالًا بفائدة يتم سدادها بانتظام.

استقبل "مصطفى أغا عياد" السيدة الأرستقراطية "لوسي داف-جوردون" بكل لطف كان يتعامل به في منزله مع جميع ضيوفه. وعرض عليها أن تسكن بين المعابد في مكان مرتفع جيد التهوية؛ أي في «البيت الفرنسي». كان هذا البيت مبنيًا داخل معبد "الأقصر" من خشب أشجار النخيل ومن طين تم تجفيفه عن طريق تعريضه للشمس. وكان به شرفة ويطل على الضجيج المنبعث عند النيل ويقابل الجهة الغربية من "طيبة".

كان قد بناه القنصل الإنجليزي "هنري سالت" وعاش فيه أيضًا "بلزوني" و"شامبليون" و"روزليني" وضباط البحرية الموفدين من فرنسا من أجل نقل مسلة "رمسيس الأكبر". وربما أن "جوستاف فلوبير" مؤلف رواية "مدام بوفاري" قد نام في هذا المنزل أيضًا.

وصفت "لوسي داف-جوردون" "مصطفى أغا" بأنه "رب منزل عجوز حسن المظهر"، ولكنها أطلقت عليه في الوقت نفسه أنه رجل ضعيف الشخصية أمام زوجته. "إنه في الحقيقة عبدٌ للسياح. إذ إنه ينظم مآدب الطعام لهم، ويساعدهم وينوب عنهم في أداء الأعمال المزعجة كافة، ويتشاجر بدلًا منهم مع القباطنة والتراجِمة، ويؤدي بنفسه دور ساعي البريد فيستلم الخطابات المرسلة لهم ويسلمها لهم على متن المراكب. حتى أنه يخصص منزله في أيام الأحد لأداء القداسات الكنسية في حالة وجود أحد رجال الدين هنا".

منذ ذلك الحين، صارت خطابات السيدة الأرستقراطية "لوسي داف-جوردون" ترد من «البيت الفرنسي». لقد كتبت أولى خطاباتها لزوجها في لندن قائلةً: "عزيزي "أليك"، من المؤكد أنك كنت ستحب النساء العربيات الموجودات في القرى". لم تخشَ تلك السيدة الأرستقراطية أبدًا من الاحتكاك بأهل البلد، إذ كانت تلتمس القرب منهم وصحبتهم. وعندما زارت إحدى القرى، أخذتها سيدة جميلة من يدها وذهبت بها إلى منزلها. مضت السيدة الأرستقراطية القادمة من إنجلترا في فناء خلفي خاوٍ لمزرعة منخفضة خالية من النوافذ. وكانت ترتدي قفازات يد وقبعة وتحمل مظلة بينما أمسكت بيد سيدة مصرية ترتدي فستانًا أسود وقد أحاطت بها فتيات وفتية عراة.

جلست السيدة الأرستقراطية على الأرض فوق أحد الأغطية متعددة الألوان. وأحضرت لها مضيفتها خبزًا وطعامًا من الأطعمة المحلية وجلست إليها وأكلتا معًا من الصحن نفسه. ضحكت السيدة المصرية وعلمتها عن طريق الإشارة أن تتناول الطعام بيدها. خلعت السيدة القادمة من إنجلترا قفاز يدها وتناولت الطعام بيدها اليمنى بينما أمسكت المظلة بيدها اليسرى لتقي نفسها من الشمس. قهقه الأطفال وضحكوا. وعندما نهضت السيدة واقفة لكي تمضي، أرادت أن تمنح لصبي صغير عارٍ مالًا؛ إلا أن والدته رفضت. "بمجرد أن يخرج الإنسان من نطاق كونه سائحًا، يدرك أن الناس هنا منفتحون وصادقون"، هكذا كتبت "لوسي داف-جوردون" في رسالة أرسلتها لأسرتها.

كانت "لوسي داف-جوردون" تزور جيرانها كل يوم وقد تعلمت اللغة العربية وتعلقت بمدرس اللغة العربية الشاب الذي كان يلقي خطبة الجمعة في المسجد في "الأقصر". وكان يأخذها معه في الاحتفالات الليلية المقامة عند قبر أحد الولاة الصالحين، حيثما كان الناس يضعون حول جسدها الكفن المقدس، لكي يمنحها قوة للتغلب على المرض.

لكن بين عشية وضحاها، حلَّت مصيبة على "الأقصر". فصار الناس يعانون من تقلصات في البطن وإمساك وأصيبوا بالحمى ومات كثيرون في غضون ثمانية أيام. فافتتحت "لوسي داف-جوردون" بشكلٍ عفوي عيادة في «البيت الفرنسي» واستقبلت سكان القرية وعالجتهم بمحتويات حقيبة الإسعافات الأولية الصغيرة الخاصة بها والتي كانت تحملها في أثناء سفرها. كانت تعتني بهم ليلًا ونهارًا. فاعترى "مصطفى أغا" شعورٌ

بالقلق والخشية من أن تصاب بالعدوى. أو من أن يحدث شيء ما أبشع، إذ ربما يُرجِع أهل البلاد السبب في حالات الوفاة إلى أعمال سحر أسود مارستها هي. لكن "لوسي داف-جوردون" لم تشعر بأي خشية من الاحتكاك بهم ولم تفكر في نفسها. وكانت تعرف أن المرضى بالإمساك يتعرضون لتسمم قاتل فكانت تعالجهم ببساطة تامة بزيت الخروع.

إلا أن الأمور كافة سارت على نحوٍ أسوأ ولم تستطع هي أن تكتب عن هذا الأمر أو حتى تتلفظ به. فقد أصاب الوباء الثيران أيضًا. فأصبحت جثث آلاف الحيوانات النافقة تطفو على سطح نهر النيل ليلًا ونهارًا. وكانت الزراعة بأكملها معتمدة على هذه الثيران. فصار على المزارعين الآن أن يقوموا بالعمل بدلًا من الثيران ويديروا الساقية ويسحبوا المحراث في الحقل. فمات المزارعون من الإجهاد الزائد. وفقدوا الماشية كافة. وحتى "مصطفى أغا" نفسه لم تعد لديه أي حيوانات في مزارعه.

عندئذ بدأت العواصف الرملية. إذ غطت رياح ساخنة بها غبار على ضوء الشمس. "صار النيل منخفض المنسوب وتغيَّر حاله تمامًا، صار لونه أحمر مثل الدم! لقد حلَّت بنا في هذا العام نكبات مصر كافة. إن الحشرات الضارة والبراغيث والبعوض تفترسنا وتلتهم الفئران ملابسنا. نحن نرتدي ملابس مهلهلة! وغاضبون جدًا!".

وذات صباح، اكتظت الساحة المغطاة بالرمال أمام «البيت الفرنسي» بالناس والجِمال. فاضطرت السيدة الأرستقراطية "لوسي داف-جوردون" أن تراقب من شرفتها كيف كانت الجِمال تُساق معًا من القرى المجاورة. فقد كان الوالي "إسماعيل باشا" في حاجة إليها لكي يستخدمها في نقل

قواته في السودان. لم يضطر الفلاحون أن يسلموا حيواناتهم فحسب وإنما كان عليهم أن يستمروا في توفير العلف لها. عندئذ تلقَّى الرجال ضربات بالعصى. أحدهم لأن جمله لم يكن في حالٍ جيد بصورة كافية أو لأن السرج كان قديمًا ورثًا للغاية. والآخر لأنه لا يمتلك مالًا لدفع ثمن العلف لمدة ثلاثة أشهر ودفع أجر الرجل الذي يعتني بأربعة جِمال. بينما انتظرت الجِمال لحين أن يتم شحنها في قوارب الباشا، علا صوتها. إن كل الحيوانات، التي لم تعتد على السير في الصحاري، ستموت في السودان، وعلى كل حال لن يراها أصحابها مرةً أخرى. اعترى الرجال شعورٌ بالمرارة والسخط. رأت "الليدي" من نافذتها نظراتهم القاسية ولاحظت دموعهم.

كتبت "لوسي داف-جوردون" لوالدتها قائلةً: "الفقر يُحزِن قلبي بشدة. إن الشعور بالتعاطف يتحول إلى شغف عندما ترين كيف يتحملون كل شيء. الناس هنا معتادون على المعاناة إلى أقصى درجة". كانت الأغاني، التي تغنوا بها، حزينة. فقد غنوا قائلين: "أنا جائع..".

كانت المصائب بلا نهاية. إذ كان "إسماعيل باشا" رجلًا محبًا للتجديد، فبنى خطوط سكك حديدية وجسورًا وشوارع وأنظمةً للري. إلا أن مشاريع البناء الضخمة الخاصة به تطلبت أعدادًا كبيرة من الأيدي العاملة. فكان الفلاحون يُؤخذون من قراهم ليؤدوا أعمال السخرة. وكان على كل منهم أن يُحضِر معه طعامه وكذلك سلة، وأن يكون مع كل أربعة منهم فأس. لقد عمل ما يزيد عن أربعين ألف عامل مصري بالسخرة في حفر "قناة السويس" التي تعد حلقة وصل بين أوروبا والشرق الأقصى. فلم يتبقَ في بعض القرى بالفعل أي رجل بصحة جيدة. واضطر من

تخلفوا عن المشاركة في حفر "قناة السويس" إلى دفع ضرائب مقابل كل شيء. فكان جامعو الضرائب يقفون في الأسواق ويُحصِّلون الضرائب مباشرةً بعد عمليات البيع والشراء. كما تعرَّض الناس للصفع والضرب من أجل الاستحواذ على آخر ما يملكونه من مال. لقد استنزفت الضرائب الجميع حتى الفتيات الراقصات. فقد فُرِض عليهن أن يدفعن الضرائب لمدة ثمانية أشهر مقدمًا ولم يكن هذا بوسعهن. أخذ الشعور بالاستياء يزداد يومًا بعد يوم. وحاولت السيدة الأرستقراطية "لوسي داف-جوردون" أن تقدم المساعدة متى كان هذا ممكنًا. فسماها الناس "ابنة البلد"، وقالوا عنها إن لديها نظرة تجلب الحظ.

صارت "لوسي داف-جوردون" تربي ابن "مصطفى أغا" بإخلاص وأرسلت طفلها العزيز الصغير "أحمد" إلى اللورد "داف" في لندن. وعندما عاد "أحمد" إلى "الأقصر" بعد عامين، كان قد أصبح شخصًا إنجليزيًا تمامًا. وتدهورت بالطبع الحالة الصحية لـ"لوسي داف-جوردون" وخاف سكان "الأقصر" على حياتها وفي يوم من الأيام لم تعد هناك رسائل تُرسلها من مصر.

𓂀

بعد أربعة أعوام، صارت الكاتبة والصحفية "أميليا إدواردز" تقف أمام «البيت الفرنسي» المتداعي. فقد أرادت أن ترى أين كتبت "لوسي داف-جوردون" "تلك الخطابات الساحرة التي أبهجت العالم" واكتشفت قائلةً: "لا أحد من أهل البلد يتذكر اليوم "شامبليون" أو

"روزليني" أو "السير ج. ويلكنسون"، لكن كل العرب في "الأقصر" يحتفظون بذكرى السيدة "لوسي داف-جوردون" في أعماق قلوبهم ويتحدثون عنها بعبارات مباركة". اصطحب القنصل الفرنسي "أميليا إدواردز" بصحبة صديقتها المقربة "لوسي" وسبعة من أصدقائها وسط المبنى القديم الآيل للسقوط. كانت أريكة "الليدي" "لوسي داف-جوردون" وسجادتها وكرسيها القابل للطي ما زالوا موجودين هناك. إلا أن الغرف بدت مقفرة وبائسة.

شعر الجميع بانقباض حتى ذهبوا إلى النافذة. عن هذا تقول "أميليا" بحماس: "هذه النافذة تعد أثاثًا للغرفة وتجعل حقارتها عظيمةً! أظن أنني يمكنني أن أشعر بسعادة تامة عندما أقضي الشتاء في هذا المسكن حتى وإن لم يكن مريحًا؛ أن أطل فقط قبالة نوافذي على هذا المنظر البديع بكل فيه من جمال شمل كل شيء؛ الضوء واللون والمكان، وبما له من تاريخ، وما فيه من غموض".



السياحة في الأقصر نحو عام 1880

سافرت "أميليا" ورفاقها على متن سفينتي "دهبية". كان معهم على متن السفينتين ما لا يقل عن مائة دجاجة بالإضافة إلى حمامات وأرانب وخراف كذلك. كان أفراد هذه المجموعة المرحة يتناولون وجبة الغداء في معبد مختلف كل يوم بينما يتضور الشعب جوعًا من حولهم. "أرى الرفاق السعداء متجمعين في ظل الأعمدة الكبيرة، والسجاد الفارسي مفروشًا على أرض غير مستوية، والترجمان يتحرك ذهابًا وإيابًا وهو يرتدي ملابس رائعة، والعرب ذوي البشرة البنية والملابس الرثة يجلسون القرفصاء على بعد مسافة قليلة منهم وهم صامتون وعيونهم متلهفة للطعام، مع كل واحد منهم سلسلة من الجعران المُقَلَّد، أي نسخة مقلدة من الآلهة الفرعونية الخاصة بها، ليبيعها. الإطلالة على المنظر الطبيعي الساطع - الحمير الصبورة التي تقضم معًا العلف الموضوع في أحد الأركان - وبالأعلى السماء ذات اللون الأزرق القوي الداكن والخالية من السحب".

وفي فترة ما بعد الظهر، امتطوا ظهور الحمير خارجين إلى "الكرنك". امتد طريقهم وسط السوق البسيط الذي يتكون من بضعة أكشاك مفتوحة فحسب. ثم الضاحية مترامية الأطراف التي تتجمع فيها الفتيات الراقصات، إذ كن يجلسن أمام منازلهن الصغيرة وهن يرتدين ثيابهن الجاذبة للأنظار أو يقفن على عتبات المنازل دون أن يغطين وجوههن. "لقد ظهرت أسنانهن وضحكن في وجوهنا بتحفظ". كانت حواجبهن مرسومة وتتصل بعضهما ببعض أعلى أنوفهن. وقد تكحلت أعينهن باللون الأسود وتزينت وجناتهن بلون أحمر بصورة مبالغ فيها. كان شعرهن ملبدًا ومدهونًا بمادة دهنية ومصففًا على جبهاتهن على شكل

إكليل أوراق الزينة ومضفرًا بضفائر صغيرة لا يحصيها العد. "لم يسبق لنا قط أن رأينا منظرًا لنساء بهذا القدر من البشاعة".

إلى أي مدى كان ما سبق وأن كتبته "لوسي داف-جوردون" عن الفتيات الراقصات أمرًا مختلفًا؟ لقد حكت لزوجها عن استعراض راقص قائلةً: "بدت الفتاة الأولى بمظهر جيد للغاية لكنها باردة ومملة. كان رقصها رائعًا كتمرينات رياضية بدنية، لكن ليس أكثر من ذلك. ثم نادى صاحب البار فتاة أخرى قبيحة، بدت ثقيلة الحركة، لتستعرض قدراتها أمام السيدة الأرستقراطية. وعندئذ استعرضتها!". فقد بدأت بالرقص على قدميها ثم لفت ودارت حول نفسها نحو الأمام في الوقت نفسه وأصبحت "أفعى النيل"...

كانت الفانتازيا، أي ما يطلق عليه الناس التسلية بالموسيقى أو الرقص أو الألعاب النارية، جزءًا أساسيًا من برنامج السفر إلى "الأقصر". عن هذا قالت "أميليا إدواردز": "لعبت القنصلية البريطانية الدور الأساسي في الأعمال الترفيهية المتوالية التي تُقام باستمرار في "الأقصر" ". وقد ظلت فقرات الفانتازيا الخاصة بـ"مصطفى أغا" خالدة في مذكرات عدد لا حصر له من السياح وعلماء الآثار. وكانت تلك الأمسية بالنسبة لـ"أميليا" أمسية لا تُنسى. تم استقبالهم في قاعة كبيرة خاوية، يحيط بها ديوان.

"الليلة كلنا عرب". قالها "مصطفى أغا" وأضاف: "سنشرب ماء النيل ونأكل الطعام بأيدينا". في البداية، تم تقديم حساء ديك رومي، ثم سمكة مفلطحة مقلية ضخمة، وحمام مطهو، وسبانخ، وأرز، وكتف ضأن محمر، وأسياخ من لحم كلاوي ضأن مع طماطم وأرز، وخروف مشوٍ على

الشواية، وديك رومي مع صوص الخيار. أما بالنسبة للحلوى المقدمة بعد ذلك فكانت مربى مشمش، وأرزًا باللبن، ولوزًا، وقشدة، وقرفة، وجيلاتين حلوًا به طبقة من اللوز المقشر.

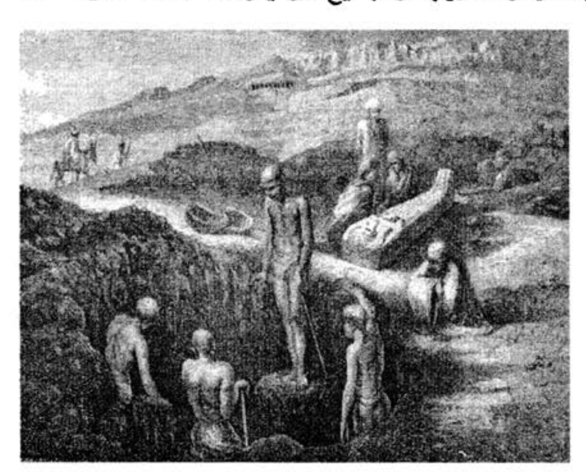
وُضِع طبق واحد لكل صنف من هذه الأصناف في منتصف الطاولة وكان يتم تبديله سريعًا. وكان كل شخص من الحاضرين يغمس ملعقته في الحساء ويمد يده نحو اللحم المحمر ويقطع بيده قطعًا من السمك أو لحم الضأن. وبين حين وآخر، كان "مصطفى أغا"، صاحب دعوة الطعام اليقظ، يقطع قطعة من أحد الأصناف الشهية بشكلٍ مميز ويناولها لهذا الضيف أو ذاك.

شيئًا فشيئًا، وصل حاكم "الأقصر"، وقاضي "الأقصر"، وقنصل "بروسيا"، وابنه، وثلاثة أو أربعة من التجار، الذين بدوا وقورين وارتدوا ثيابًا حريرية ثمينة وعمامات ضخمة. في تلك الأثناء، عزفت الفرقة الموسيقية موسيقى، وكان هناك موسيقار سبق وأن استمع إليه الضيوف عدة مرات بالفعل. "كان الرجل مفعمًا بمشاعر غامرة بينما أخذت الأوتار تهتز أسفل أنامله. ولاحظتُ أكثر من مرة كيف تغير لون بشرته وارتجفت يده بينما يُعبِّر هو بفيضٍ من النغمات اليائسة بشدة عن أشد آلام المشاعر الجارفة". وبدا، في نهاية الأمر، أنه نسي كل شيء من حوله.

أصيبت "أميليا إدواردز" أيضًا بحمى الرغبة في اقتناص التحف الأثرية الأصلية. "يمكنني أن أقول حقًا إن حياتنا هنا كانت عبارة عن انشغال طويل بمتعة الاقتناص. أعترف أن هذه اللعبة كانت محظورة لكننا شعرنا

بسعادة، لأن الأمر كان خارجًا عن القانون. ربما إن هذا كان سبب زيادة استمتاعنا بهذا الأمر".

بفضل لطف "مصطفى أغا"، حالف الحظ "أميليا" وأصدقاءها ليروا افتتاح إحدى المقابر ذات صباح. فمن خلف معبد "الرامسيوم"، وقف رجال الحفر والتنقيب عند الحفرة وأخذ الحاكم وبعضٌ من العرب يراقبون الموقف. "أتينا في الوقت المناسب بالضبط، فقد ظهرت وسط الرمال والأنقاض ملامح تشير إلى وجود شيء ما مدفون فيها". ألقى الرجال المجاريف والمعاول جانبًا وبدأوا في نبش الرمل بأيديهم. شيئًا فشيئًا، أخذ الوعاء الموجود به إحدى المومياوات يظهر. "أصيب الناس بنوعٍ من الصدمة، فقد بدت المومياء المسكينة مفزعة على الصعيد الإنساني ومثيرة للشفقة". وفي فترة ما بعد الظهر، تم اكتشاف تابوتين حجريين آخرين في هذه المقبرة. ومن الغريب أن جميع المومياوات كانت تخص نساءً.



مقابر المومياوات في القرنة عام 1823

سألت "أميليا إدواردز" الحاكم لماذا لا تصدر الأوامر لرجال الحفر والتنقيب بالبحث عن مقابر ملوك الأسرة الثامنة عشرة بدلًا من العمل وسط هذه المقابر غير المهمة؟ فمقابر هؤلاء الملوك الموجودة في الوادي، الذي يُسمَّى وادي الملوك، تستحق أن يتم اكتشافها. هزَّ الحاكم رأسه. وقال إن الطريق إلى وادي الملوك طويل وشاق. وأضاف أنه يجب على الرجال أن ينصبوا مخيماتهم في موقع الحدث وأنه ليس بالأمر السهل أن يتم تزويدهم بماء فحسب. وأن المبلغ المخصص له لا يكفي سوى أجور خمسين رجلًا من رجال الحفر والتنقيب. وأنه من غير المجدي بدء أعمال الحفر والتنقيب في وادي الملوك بأقل من مائتي رجل.

كان من الضروري بلا شك الالتفات إلى أن النساء لم يرغبن في أن يأخذن معهن إلى أوطانهن مومياءً، وإنما بردية. وقد أعربن عن هذه الأمنية في "ساعة مشؤومة". "منذ هذه اللحظة فصاعدًا، أخذ كل لص من لصوص المومياوات في هذا المكان يرى أنه يجوز أن نقع ضحايا له. وبينما أخذ بعضهم يستدرجوننا للذهاب إلى كهوف تخص اللصوص، واحدًا تلو الأخر، عُرِضَت علينا جميع المسروقات في مدينة "طيبة" ".

في منازل الكهوف في "القرنة"، استدرجهم البعض عبر ممر طويل محفور في الصخر وعرضوا عليهم إحدى المومياوات. "لن أنسى هذه اللحظة العجيبة أبدًا، قبو المقبرة المعتم والممتلئ بالغبار، والعرب يحملون فوانيسهم، والمومياء ملقاة عند أقدامنا على حصيرة قديمة وموضوعة في كفن ذي ألوان زاهية بشكل يجذب الأنظار".

في تلك الأثناء، حاولوا دون جدوى أن يلقوا نظرة على البردية المنشودة. "بعد حلول الليل، نظر رجل عربي وقور مرة أو مرتين نحو الداخل نظرة خاطفة وتناقش مع الترجمان بشكلٍ غامض لكنه لم يقل لهم شيئًا. في البداية، عرض الرجل عليهم البردية مع إحدى المومياوات. لكن عندما اكتشف أنهم لن يشتروا البردية أبدًا دون أن يروها ولن يشتروا المومياء بأي ثمن مهما كان، أخذ يساوم في السعر ويماطل لمدة يوم أو يومين. لقد حاول، على ما يبدو، أن يستغل شخصًا أو عدة أشخاص آخرين ليتنافسوا معهم على شراء البردية. واختفى بعد ذلك في نهاية المطاف. حيث اشترى هؤلاء المنافسون البردية والمومياء بثمن ضخم ثم أغرقوا مومياء الشخص المتوفى غالية الثمن في النيل بعد مرور أسبوع، لأنهم لم يطيقوا رائحة مومياء أحد قدماء المصريين".

في الأعوام اللاحقة، صارت "أميليا إدواردز" امرأة رائدة في مجال الحفاظ على الآثار في مصر. فأنشأت "صندوق استكشاف مصر" وموّلت أعمال حفر وتنقيب مهمة وذلك من إيرادات بيع كتابها الأكثر مبيعًا "ألف ميل صعودًا في النيل". وكرست نفسها تمامًا لعلم المصريات. ومنذ ذلك الوقت، أخذ نهمها لاقتناء الآثار يمضي في مسارات طبيعية.



10

عائلة "عبد الرسول" وكشف القرن الأثري المثير

بدءًا من عام 1873، ظهرت في سوق تجارة الآثار قطع حُلي وبرديات تخص قدماء المصريين الفترة من الأسرة الثامنة عشرة وحتى الأسرة العشرين الذين لم تكن مقابرهم مُكتشفة بعد، لكن كان من المرجح وجودها في وادي الملوك. لم يكن هناك دليل ملموس يشير إلى منشأ هذه المقتنيات الجنائزية، التي كانت توضع مع الملوك عند دفنهم، وإنما كانت هناك تكهنات مبهمة بشأنها فحسب. وقد ارتاب "جاستون ماسبيرو" المدير العام الجديد لمصلحة الآثار في أمر عائلة "عبد الرسول"، شأنه في ذلك شأن "أوجست مارييت". آنذاك كان هناك ثلاثة أشقاء؛ هم "أحمد" و"محمد" و"سليمان". حيث توقع "ماسبيرو" أنهم وحدهم القادرون على العثور على المقابر غير المكتشفة في وادي الملوك.

كان "ماسبيرو" رجلًا عنيدًا وطموحًا. وقد سعى للبحث عن بعض الدلائل، فأرسل إلى "الأقصر" عالم المصريات والرجل الحريص على اقتناء القطع الأثرية "تشارلز إدوين ويلبور"، الذي سبق وأن عمل مراسلًا لصحيفة "هيرالد تريبيون" في "نيويورك". وفي القاهرة عمل "ويلبور" بالفعل مع "هاينريش بروجش" ورافق "ماسبيرو" في رحلات استكشافية بامتداد نهر النيل. كان "ويلبور" ذا مظهر جاذب للأنظار، ذا

لحية كثيفة، ورجلًا جسورًا ولطيفًا وثريًا. كان على دراية بالأوضاع في "الأقصر"، ويعرف الوكيل القنصلي "مصطفى أغا عياد". وفي سبيل البحث عن المقابر غير المكتشفة، أخذ "ويلبور" يبحث ويستقصي بطريقة صحفية. كما أرسل أخبارًا في خطاباته إلى بلاده بطريقة صحفية أيضًا واستمتع بنقل أخبار النميمة عن مشاهير البلد والزوار والسكان المحليين.

في عشية وصول "ويلبور" إلى "الأقصر"، ذهب على الفور إلى إحدى حفلات "الفانتازيا" التي أقامها "مصطفى أغا عياد"، والتي كانت ملتقى لكل أصحاب النفوذ والصيت. في هذا المنزل حدث ما لم يعترف به "مصطفى أغا" أبدًا وما عرفه الجميع. إذ كان القنصل "مصطفى أغا" رجلًا لا يجوز المساس به. وقد مارس العمل الدبلوماسي ما يزيد عن ثلاثين عامًا، وكانت له علاقات في جميع أنحاء العالم، وتمتع بعقلية تجارية عربية، وكان بالإضافة إلى ذلك شخصية منعدمة الضمير. أجاد "مصطفى أغا" التحدث بالإنجليزية والإيطالية والفرنسية بطلاقة. وقد استخدم كل هذه الصفات لكي يساعد ضيوفه والسياح على نقل الغنائم المصرية إلى خارج البلاد. ومن المؤكد أنه لم يفعل هذا كله من دون مقابل، وذلك رغم أن الليدي "لوسي داف-جوردون" طيبة القلب وصفته في أثناء إقامتها في "الأقصر" بأنه عبد للسياح. وقد قيل إنه كان أغنى رجال "الأقصر".

وقيل أيضًا إنه كان متحالفًا مع عائلة "عبد الرسول" ويحصل منهم على كل المقتنيات الثمينة التي يعثرون عليها. وقد أصبح "أحمد" ابن "مصطفى أغا"، الذي ترعرع على يد "الليدي" "لوسي داف-جوردون" وتلقّى تعليمه في إنجلترا، بدوره شريكًا لتاجر التحف الأثرية "محمد

محسب"، لكن لم يعرف أحدٌ تقريبًا هذا الأمر. وقد عرض "محمد محسب" على "ويلبور" لفافة مكتوبة بالهيروغليفية، كانت عبارة عن "كتاب جنائزي". كما دارت أحاديث عن برديات أخرى غير تقليدية لكنه لم يتمكن من رؤيتها. إلا أن "ويلبور" أراد شيئًا واحدًا في المقام الأول؛ ألا وهو أن يلتقي بالشيخ "أحمد عبد الرسول".

وجَّه أحد الترجمانات حديثًا لـ"ويلبور" في حفلة على متن أحد القوارب، وألمح له أن الشيخ "أحمد عبد الرسول" لديه بردية مميزة و"أشياء جميلة" أخرى، وعرض عليه أن يدله على الطريق إليه.

في صباح اليوم التالي، حدث هذا الأمر أخيرًا. فقد عبرا نهر النيل في زورق وامتطيا ظهر أحد الحيوانات ليذهبا إلى "البيت الأبيض" خلف معبد "الرامسيوم"؛ أي إلى منزل الشيخ "عبد الرسول". أتخيل مقابلتهم هكذا: بجوار "أحمد" تقف والدته "فندية". ويدعوانه لأن يجلس على الوسادة الموضوعة في الرمال والمجهزة من أجل هذه المحادثة. يجلس "ويلبور"، ويجلس كلاهما أيضًا. ينظر كلاهما في عيني "ويلبور" بلا كلل أو ملل. وهما يعرفان لماذا أتى. تُقدَّم القهوة ويتبادل الطرفان عبارات المجاملة المهذبة. ثم يقول الشيخ فجأة:

- لقد أتيتَ من أجل البردية.

فيكتفي "ويلبور" بقول:

- أجل.

يذهب الشيخ بـ"ويلبور" إلى مقبرة قريبة ويعرض عليه إحدى البرديات.

حكى "ويلبور" أنها كانت بردية محفوظة في حالة ممتازة ويرجع تاريخها للأسرة العشرين. لم تكن كتابًا جنائزيًا، وإنما كان بها نصوص دينية، غير أن معناها لم يكن واضحًا، لأن البردية كانت خالية من الصور ومقصوصة. وقد رجَّح "ويلبور" أن اثنين قد عثرا عليها واقتسماها فيما بينهما، أو أنه قد تم قصها في سبيل جني ربح أكبر. لكن هذه البردية لم تكن مأخوذة من إحدى المقابر المنشودة. فأدرك "ويلبور" أن الشيخ أراد خداعه بها. ورغم ذلك ربما دفع "ويلبور" خمسة عشر أو عشرين جنيهًا ثمنًا لها. بينما أراد "أحمد" الحصول على ثلاثمائة وخمسين جنيهًا.

أبهر "ويلبور" التجار المحليين بمعرفته باللغة الهيروغليفية وسرعان ما جاءوا إليه سرًا ومعهم بردياتهم لكي يتعرفوا على قيمتها. كما عرض عليه لصوص مقابر آخرون مقتنيات مبهرة، الأمر الذي أدهشه. ورأى "ويلبور" في مقبرة في "القرنة" تماثيل صغيرة وتمائم، اندهش من جمالها. إلا أن هذه المقتنيات الجنائزية والمقابر كافة، التي أرشده إليها البعض، لم تمت بأي صلة لما كان يبحث عنه حقًا.

صار "ويلبور" يجلس مرارًا وتكرارًا ولساعات طويلة عند الشيخ "أحمد عبد الرسول" ويحتسي معه قهوةً أو شايًا، ويثرثر عن هذا الأمر أو ذاك. حتى أنه رسم للشيخ لوحة منزل جديدة باللغة الإنجليزية وانتظر بصبر أي إشارة صغيرة ملموسة تشير إلى المقابر التي استُخرِجَت منها المقتنيات التي جذبت الأنظار إليها. ذهب به الشيخ وسط أراضي المقابر وساعده على تحديد أماكن آثار، طواها النسيان، وأعطاه بضعة أدلة

تخص من قاموا بأعمال الحفر والتنقيب في الماضي وأين حفروا. كما التقى "ويلبور" بـ"فندية" وحكى عنها عند عودته إلى وطنه.

كانت طبيعة "ويلبور" الصحفية تدرك بالفطرة أن الاكتشافات الأثرية الجديدة لا بد وأن تأتي عن طريق عائلة "عبد الرسول". أستطيع أن أتفهم مشاعر "ويلبور". فأنا أيضًا جلست طيلة أسابيع وسط أحفاد الشيخ "عبد الرسول". وأنا أيضًا انتظرت بمثابرة أن يبوحوا لي بشيء، لا يستطيع أحد سواهم معرفته. كم مرت أسابيع دون أن أتمكن بالأساس من معرفة المزيد عنهم.

رغم أن الشيخ كان مستعدًا دائمًا للمزاح، فإنه كان يحرص أيضًا على كتمان الأسرار تمامًا. ولذلك لم تسنح الفرصة لـ"ويلبور" أن يكتشف السر العظيم رغم قدراته الصحفية وإحساسه المرهف بوصفه عالم مصريات. غير أن التخمينات والشكوك قد ازدادت.

فجأة ورد نبأ أن "ماسبيرو" في طريقه إلى "الأقصر". أدرك لصوص المقابر في "القرنة" سبب الزيارة. فأفرغوا مخازنهم وعبأوا بضاعتهم الرائجة ونقلوها وخبَّأوها. وتحولت عملية التجارة إلى النسخ المقلدة والمزيفة، إذ كان هذا الأمر آمنًا. إلا أن الذعر اعترى مُلَّاك التحف الأصلية المقتناة بأساليب غير قانونية. فحكوا لـ"ويلبور" أنهم لم يعودوا يستطيعون تناول الطعام في سلام أو النوم في هدوء بسبب شعورهم بالخوف. غير أن "ماسبيرو" لم يكن يكترث بجمع القطع الأثرية لأغراض شخصية. فتفكيره كان منصبًا على شيء واحد فقط؛ ألا وهو مقابر قدماء المصريين التي لم يكن على علم بها.

رست باخرة المتحف، وعلى الفور صعد "ويلبور" على متنها من أجل مأدبة الطعام. كان "ماسبيرو" قد أخلى قمرة من أجله، بجوار القمرة الخاصة به مباشرةً. أثنى "ويلبور" على طهي مدام "ماسبيرو" وإدارتها للشؤون المنزلية بنشاط. وكان "ويلبور" يستمتع بتدخين سيجارة بين الحين والآخر بصحبة زوجة "إميل بروجش" الأرمينية. كانت تذكره بالقطط ذات الفراء الطويل. كان صالون السفينة جذابًا بسبب مكتبته العلمية. إلا أن هذه المجموعة كانت متحفظة أكثر مما ينبغي، ففي الفندق استطاع "ويلبور" أن يتواصل مع الناس بحرية أكبر.

في تلك الأثناء، ضرب "ماسبيرو" ضربته. وكتب في تقريره عن هذا بصراحة تامة قائلًا: "كان الأمر متعلقًا بانتزاع السر من فم الفلاحين؛ سواءً بالحيلة أو بالقوة". فأمر بالقبض على "أحمد عبد الرسول" وإحضاره إلى السفينة لاستجوابه. لكن "أحمد" أنكر جميع الاتهامات، وعرض حتى على "ماسبيرو" أن يفتش منزله. وافق "ماسبيرو" على أمل أن يكسب ثقة "أحمد" ويتجاذب معه أطراف الحديث. غير أن "ويلبور" سبق وأن قال عن مدير المتحف: ""ماسبيرو" لن يصبح أبدًا صديقًا لأحد العرب". لم يتم العثور على شيء مثير للريبة في "البيت الأبيض". ولا على أصغر دليل. الحديث بالحسنى والتهديدات والوعد بمكافأة، ما من شيء مجدٍ. فأمر "ماسبيرو" في يوم السادس من أبريل باقتياد الشيخ "أحمد عبد الرسول" إلى عاصمة الإقليم، بصحبة شقيقه الرابع، "حسين أحمد".

في ذلك المساء، كان "ويلبور" مدعوًا لدى "مصطفى أغا" بصحبة "ماسبيرو" وأمير روسي لتناول الطعام. تنحى القنصل بـ"ويلبور" جانبًا

ممسكًا به من ذراعه قبل تناول الطعام، وحكى له بصوت مكتوم عن إلقاء القبض على الشيخ "أحمد". أرسل "ويلبور" رسالة إلى ذويه في وطنه قائلًا إن هذا خطأ. وإنه يريد أن يحاول إخراج الرجل المسكين. إذ كان يعرف جيدًا، مثل "مصطفى أغا"، أن هذا الإجراء كله موجهًا ضد القنصل الذي يتاجر في التحف الأثرية الأصلية. حيث أراد "ماسبيرو" أن يقلل من شأنه أمام أعين أهل "الأقصر" جميعًا، وأن يُظهِر أن القنصل لا يستطيع حماية عائلة "عبد الرسول"، المزعوم عنهم لصوص المقابر، بالاستعانة بحصانته القنصلية.

جرت محاكمة "أحمد عبد الرسول" في "قنا" بحزم. إذ كان من المعروف عن حاكمها أنه كان ذا قبضة حديدية. فتعرض "أحمد" للتعذيب ولعقوبة الجلد. والتزم الصمت. أخذوا يعذبونه ويوسعونه ضربًا ويضغطون على رأسه أسفل الماء ويضعون قدميه أمام النار. لكنه ظل صامتًا. أدلى أهل "القرنة" بشهاداتٍ لصالحه، وأكدوا عدة مرات بعد أن أدوا القسم أنه أخلص مواطني البلد وأكثرهم إنكارًا للذات، وأنه لم يقم أبدًا بأعمال حفر وتنقيب ولن يقوم بها، ولن يسرق أي قطعة أثرية، هكذا حكى "ماسبيرو" في تقريره الرسمي.

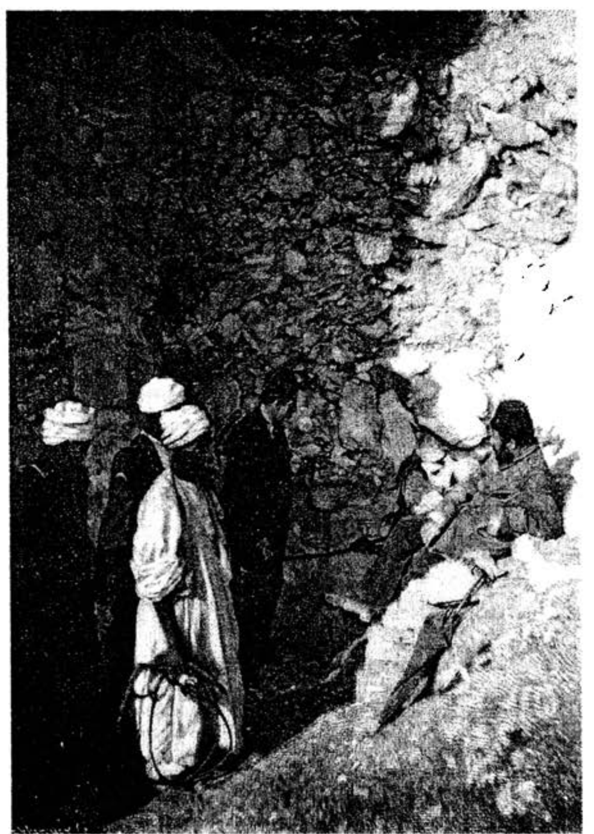
في منتصف شهر مايو، تم إطلاق سراح "أحمد" بصورة مؤقتة وعاد إلى بيته. وسافر "جاستون ماسبيرو" بصحبة "ويلبور" و"إميل بروجش" وزوجتيهما وطاقم الموظفين عائدًا دون أن يحرز أي نجاح. قيل أيضًا إن "ماسبيرو" أمر في أثناء إقامته بتفتيش وادي الملوك تفتيشًا

مكثفًا للبحث عن المقابر التي لم يتم اكتشافها. إن كان هذا الأمر صحيحًا، فقد جرى البحث في المكان الخاطئ.

ثم حدث أمرٌ غير متوقع؛ فقد ذهب "محمد عبد الرسول" في يوم الخامس والعشرين من يونيو عام 1881 بمفرده وسرًا إلى حاكم إقليم "قنا"، وأخبره أنه عثر في الكتلة الصخرية أعلى "الدير البحري" على مخبأ به مومياوات فرعونية ومقتنيات جنائزية. فأرسل الحاكم تليجرافًا للقاهرة على وجه السرعة، وصار التليجراف على الفور على مكتب والي مصر. وقد سبق وأن أخبره "ماسبيرو"، الذي كان موجودًا عندئذ خارج البلاد مثلما يفعل أغلب الناس في الصيف الحار، بهذه الواقعة المهمة وأعطى نائبه في المتحف "إميل بروجش" الصلاحيات كافة.

في الخامس من يوليو، وصل موظفو المتحف إلى "الأقصر"؛ ألا وهم "إميل بروجش" والمصري "أحمد كمال" - الذي كان المصري الوحيد المسؤول في المتحف - وقبطان سفينة النقل الأثرية. ذهب بهم "محمد" عبر طريق متعرج بين الصخور ومرورًا بـ"معبد حتشبسوت" حتى فتحة بئر مستترة في حائط صخري وتقع على عمق عشرة أمتار. وجعل "بروجش" يهبط إلى أسفل بحبل وأراه اكتشافه. "كان كل شيء ممتلئًا بتوابيت خشبية ومومياوات ومقتنيات جنائزية. كان من الضروري أن أزحف عبر الممر دون أن أعرف إلى أين تقودني يداي وقدماي. كانت الفوضى في الجزء الخلفي من الغرفة على أشدها. فقد فاق الكشف الأثري التوقعات كافة. فبينما توقعت العثور على مومياوات ملكين أو ثلاثة منعدمي الأهمية، اكتشف الفلاحون مومياوات عائلة كاملة من قدماء المصريين. وأي عائلة كانت! أهم عائلة

حكمت مصر". وبعد بضع سنوات أيضًا، ظل "ماسبيرو" يهلل هكذا ويحكي الأمر كأنه كان حاضرًا فيه بنفسه. فكان يقول إن البشرية لم يسبق لها أبدًا أن رأت كشفًا أثريًا كهذا. ما اكتشفته عائلة "عبد الرسول" كان "الخبيئة"؛ مقبرة مجمعة! إذ كان كهنة قدماء المصريين قد جمعوا قرابة عام 1000 قبل الميلاد المومياوات من مقابرها الأصلية المحفوفة بالمخاطر أو التي تعرضت للنهب بالفعل ووضعوها هنا.



عند مدخل المخبأ، عام 1882.

من اليمين إلى اليسار: جاستون ماسبيرو، إميل بروجش، محمد عبد الرسول (بحبل في يده)

ثم سارت الأمور كافة بسرعة شديدة. بسرعة أكبر مما ينبغي. إذ استعان "إميل بروجش" بعمال على الفور من أجل إخلاء المقبرة. اضطر العمال لخلع ملابسهم باستثناء ثوب يحيط بالنصف الأسفل من أجسادهم وخضعوا لمراقبة صارمة. وكان يتم إخراج المومياوات وكنوزها بسرعة خاطفة من فتحة البئر. وصار المخبأ خاويًا في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة.

من المذهل التفكير في أنه كان من الضروري انتشال ما يزيد عن أربعين مومياء بتوابيتها وستة آلاف قطعة أثرية ثمينة عبر ممر طويل ضيق وفتحة بئر تقع على عمق عشرة أمتار. لم يتم توثيق أو رسم أو تسجيل أي شيء. وحدث أمر أكثر سوءًا. فقد وصلت سفينة الشحن المملوكة للمتحف إلى "الأقصر" بعد ذلك بعشرة أيام. وفي تلك الأثناء، ظلت المومياوات في الرمال تحت أشعة شمس مصر الحارقة. كان من بينها مومياوات لحكام، تولوا مقاليد الحكم وتم تشبيههم بآلهة. كانت مومياوات "أمنحتب الأول"، الذي طرد الهكسوس، والملوك "تحتمس الأول"، و"تحتمس الثاني"، و"تحتمس الثالث"، الذين تولوا الحكم بعده، و"رمسيس الأكبر" ووالده "سيتي الأول"، مرتبة ترتيبًا دقيقًا وموضوعة عند سفح الهضبة مع جميع المومياوات الأخرى ومع جميع المقتنيات الجنائزية التي كانت مدفونة معهم فيما مضى من أجل أن يسافروا إلى الآلهة في أمان وسلام. وبدلًا من أن تسافر المومياوات بزورق في رحلة ليلية إلى العالم الآخر، صارت تنتظر سفينة الشحن ليتم نقلها إلى المتحف في القاهرة.

كانت الحجة القائلة إنه يجب نقل محتويات الخبيئة بأسرع ما يمكن للحيلولة دون أن تقوم عائلة "عبد الرسول" بعملية سرقة أخرى حجة باطلة، بل وحتى مثيرة للسخرية! فقد كان لدى عائلة "عبد الرسول" وقت كافٍ لأن يأخذوا ما يروق لهم وذلك لمدة عشر سنوات منذ اكتشاف الخبيئة في عام 1871، وأيضًا لمدة عشرة أيام حتى وصول الموظفين. كما كتب "ماسبيرو" أنهم لم يذهبوا إلى المقبرة في غضون عشرة أعوام سوى ثلاث مرات.

وفي لقاء صحفي بعد ذلك بعام، حكى "ماسبيرو" و"إميل بروجش" أيضًا بطريقة مثيرة للغاية عن وضع خطير؛ فقالا إن نبأ هذا الكشف الأثري انتشر بسرعة البرق فانطلقت عصابات اللصوص المسلحة إليه بالفعل. "كنت مدججًا بالأسلحة وكانت بندقيتي، التي أحملها دائمًا، محشوة بالطلقات ومُعلَّقة على كتفي. كان "أحمد كمال" مساعدي، الذي يرجع منشأه إلى القاهرة، الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أثق به. وربما كان كل فرد من السكان المحليين سيقتلني عن طيب خاطر لو صرنا بمفردنا. فقد كنت على وشك أن أحرمهم من مصدر دخل كبير. لكنني لم أجعل علامات الخوف تظهر عليَّ وواصلت العمل. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أخذ ثلاثمائة رجل عربي يعملون تحت قيادتي؛ جميعهم لصوص".

ألم يكن من الأسهل بالنسبة لـ"بروجش" الشجاع، الذي نقل الصحفي الأمريكي "ويلسون" حديثه على هذا النحو، أن يحرس الثقب المؤدي إلى فتحة البئر فوق الكتلة الصخرية المنيعة بدلًا من أن يحرس

أربعين مومياءً معها مقتنيات جنائزية ثمينة في الهواء الطلق في حوض "الدير البحري" حتى موعد وصول الباخرة؟

اليوم أيضًا يتفق علماء الآثار أن عملية الإخلاء هذه تمت بتعجل حتى وإن كان البحث الميداني الأثري لا يزال في مهده آنذاك. ولذلك لن نعرف أبدًا على وجه الدقة ما الذي حدث في تلك الأيام. حكى "إميل بروجش" أن الناس الموجودين عند نهر النيل قد شيَّعوا سفينة الشحن في رحلة العودة إلى القاهرة بضوضاء كبيرة ونغمات موسيقية حماسية. فأخذت النساء يصرخن والرجال يطلقون الطلقات من بندقيات الصيد الخاصة بهم. قال بعض الناس إن هذا كان موكبًا أخيرًا لقدماء المصريين. بينما رأى آخرون أن هذا كان بالأحرى دليلًا على مشاعر الغضب من الموظفين البغيضين.

راودتني الرغبة طويلًا أن أذهب إلى المنطقة الواقعة بين "الدير البحري" و"دير المدينة" حيثما استقر الأجداد وحيثما تم العثور أيضًا على مخبأ مومياوات قدماء المصريين، في البلد الذي لا توجد فيه مياه أو ظل. منطقة يرتقي فيها العالم بصورة سحرية. إن "طايع" هو الشخص الوحيد الذي يجعلني أشعر أنني موجودة في الوقت الحاضر؛ إذ كان يسير أمامي مرتديًا بنطلون جينز أزرق اللون ويحمل زجاجة ماء بلاستيكية.

في هذه الساحة الصحراوية حدثت حالات ميلاد ووفاة وعلاقات حب. هنا ربضت الجِمال ولعب الأطفال وأُعِد الخبز وجفَّ العجين بفعل أشعة الشمس. واحتفل الناس بأعياد، ورثوا أمواتًا، ورقصوا، وساوموا في الأسعار عند البيع والشراء، وضحكوا، وتزوجوا. هنا مر تجار ومعهم أقمشة زاهية الألوان وحمام ينبض بالحياة وخضراوات طازجة. هنا

أحضر الأطفال ماءً في أنابيب تتدلي من حمير من كلا الجانبين. ومرَّت نساء وفتيات بأطلال المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الثاني" وهن يحملن أوعية على رؤوسهن ويذهبن إلى قنوات المياه على أطراف الحقول، التي يسقين جِمالهن منها أيضًا ويغسلن ملابسهن.

هنا عاشت "فندية" "أم الحربات"؛ أي أم المقابر الملكية. فقد عايشت لمدة تقارب المائة وعشرين عامًا عواصف رملية وأمطارًا سقطت على هيئة طوفان وفيضان النيل السنوي الذي كانت المياه تصل فيه إلى حافة صحرائهم. هناك كان الناس يصطادون أسماكًا ويطهونها على النار الموقدة ويأكلونها بأيديهم مع بصل طري وتوابل حارة بالإضافة إلى خبز. وتجلس عندئذ النساء والأطفال بمعزل عن الآباء.

هنا رسم الرجال أحلامهم في الرمال ليلًا، أسفل ملايين النجوم. بينما كانوا يحتسون شايًا ويدخنون النرجيلة ويصمتون أو يتحدثون عن أمور تافهة وأمور من الحياة اليومية. وعن أي منهم ينبغي عليه الذهاب إلى "الأقصر" ليعرف متى تأتي القافلة القادمة من "النوبة" لكي يلحق بها. ومن حينٍ لآخر، كانوا يهمسون ببعض الأسرار.

كانت النيران تطقطق أمام مداخل غرفهم الموجودة تحت الأرض ولا تنطفئ إلا عندما تصمت أحاديث كبار السن. وتبدأ الحياة في القرية من جديد مع بزوغ أول شعاع شمس. من المنظور الأسطوري، فإن كل يوم في مصر يُعد مولدًا جديدًا للخلق. فالإلهة "نوت"، التي تُطوِّق سماء الليل بجسدها العاري، تلد الشمس كل صباح من جديد.

ساد من حولنا صمت تام. تركنا الطريق الذي يتخلل الوادي وسرنا على حصى وأحجار لنصل إلى مداخل المساكن الموجودة في المقابر أسفل الأرض، والتي سكنها الأجداد. كانت ممتلئة بالرمال ومن الخطر الدخول إليها. ربما كان بها ثعابين. واصلنا السير حتى الصخور البارزة، أي إلى مخبأ المومياوات الملكية. كانت الشمس حارقة بشدة في حوض الوادي المهجور هذا. كما كانت المياه الموجودة داخل الزجاجة البلاستيكية ساخنة.

سار "طايع" أمامي في صمت. لم أعرف ما الذي دار في نفسه. جلسنا في ظل أخدود صخري ونظرنا في صمت أعلى هذه الأرض الموحشة التي كانت تفيض ذات يوم لبنًا وعسلًا.

سألته مخترقةً الصمت:

- هل من الصحيح أن عنزة هي التي عثرت على مومياوات قدماء المصريين؟

لوى "طايع" شفتيه مبتسمًا ابتسامة متهكمة.

- من الذي حكى لكِ هذا؟

- هذا الأمر مذكور في شبكة الإنترنت. فقد قيل إن عنزة فرَّت هاربة من "أحمد عبد الرسول" وسقطت في أخدود صخري. وهكذا عثر "أحمد" على خبيئة المومياوات الملكية.

مشاهد من غرب طيبة، نحو عام 1920

ابتسم "طايع" في رقة. إذ كان "أحمد عبد الرسول" الشقيق الأصغر لـ"محمد" حكَّاءً عظيمًا. فكلما ظهرت قصة جديدة حول اكتشاف الخبيئة وكان "أحمد" بطلها فإنها تكون من محض خيال "أحمد". كما حكى "أحمد" لـ"هوارد كارتر" إحدى تلك القصص. ورأى "كارتر" أن هذه القصة تتمتع بمصداقية كبيرة لدرجة أنه أعاد نقلها في كتابه "مقبرة توت عنخ آمون".

لقد حكى "أحمد" لـ"كارتر" قائلًا: "عندما اكتشفنا الخبيئة، كانت الغنيمة كبيرة جدًا بدرجة لا تسمح بنقلها. ولهذا أقسم أفراد العائلة جميعًا بعضهم أمام بعض على كتمان الأمر. وقررنا ترك ما عثرنا عليه في مكانه. كنا نريد فقط أن نأخذ منه قليلًا كلما احتجنا إلى المال بين الحين والآخر.. ربما يبدو الأمر غير قابل للتصديق، لكنه حدث على هذا النحو. احتفظنا بالسر لستة أعوام وصارت العائلة ثرية عن طريق الإدارة العاقلة لرأس مال حصلنا عليه مقابل أربعين مومياءً فرعونية".

كان عالم المصريات الإنجليزي "بيرسي نيوبيري" أيضًا يعرف "أحمد" شخصيًا. وقد حكى "أحمد" له هو أيضًا واحدة من رواياته التي لا تُعد ولا تحصى. إذ قال إنه وشقيقه "محمد" وشخصًا آخر من القرية اصطدموا بفتحة بئر في أثناء بحثهم عن بعض المقابر. نزل "أحمد" إلى أسفل بحبل وعثر على خبيئة المومياوات. وعندما رأى الثروة، أراد ألا يجعل الآخرين في القرية يقتسمونها معه. فعاد إلى فتحة البئر وصاح بانفعال قائلًا إنه استحضر روحًا شريرة. فركض الثلاثة جميعًا فارين بقدر استطاعتهم. إلا أن "أحمد" عاد في الليلة نفسها بصحبة حمار وقتله

وألقى به في فتحة البئر. لأن الحكايات الخرافية تقول إن الأرواح الشريرة تنتشر حول الرائحة الكريهة النتنة.

انتابني شعور أن هناك شيئًا ما أكبر من ذلك يكمن خلف هذه الحكايات. فآنذاك، عندما دار الشقيق الأصغر لـ"محمد" يحكي هذه الحكايات العابرة عن اكتشاف المومياوات الفرعونية العظيمة، لم يكن أحد يعرف حقيقة عائلة "عبد الرسول". ولم يكن الناس يعرفون ماضيهم الكبير فكانوا يعتبرونهم لصوصًا صغارًا ويعاملونهم على هذا الأساس.

أدركت أنني لن أصل إلى نتيجة عندما أطرح الأسئلة على "طايع". ولذلك أخذت أنتظر. لكنه لم يقل شيئًا. دار في رأسي كل ما كُتِب عن هذا الأمر. أي أن الأشقاء الثلاثة، الذين كانوا ضالعين في هذا الأمر، تشاجروا، لأن أحدهم، أي الشقيق الذي تعرض للضرب المبرح والتعذيب، قد طالب بحصة أكبر من المكسب. أو أن "محمد" أفشى سر الخبيئة في مقابل بقشيش حصل عليه قدره خمسمائة جنيه. وأن "محمد" حصل بسبب ذلك على منصب في المتحف المصري حيثما التقى به "ويلبور". وكان الناس على ثقة عند رحيله إلى القاهرة أنه لن يعود أبدًا وأنه ألقى بنفسه بين براثن الموت. وأشياء أخرى كثيرة.

لكن فجأة بدأ "طايع" يحكي لي الحكاية الحقيقية. بدا الأمر كأن "طايع" كان يتحدث إلى نفسه. فحكى أن الشقيق الأصغر بين الأشقاء الثلاثة قد سرق أشياء من المقبرة وباعها. فرأت العائلة أن هذا الأمر جريمة كبرى. وعندما انكشف الأمر، غاب هذا الشقيق عن أعينهم. ولم يعرفوا أين هو. لكن ذات يوم، أو ذات ليلة، صار "محمد" يقف أمامه. وقال "طايع":

- كان "محمد" أسرع منه.

سألته:

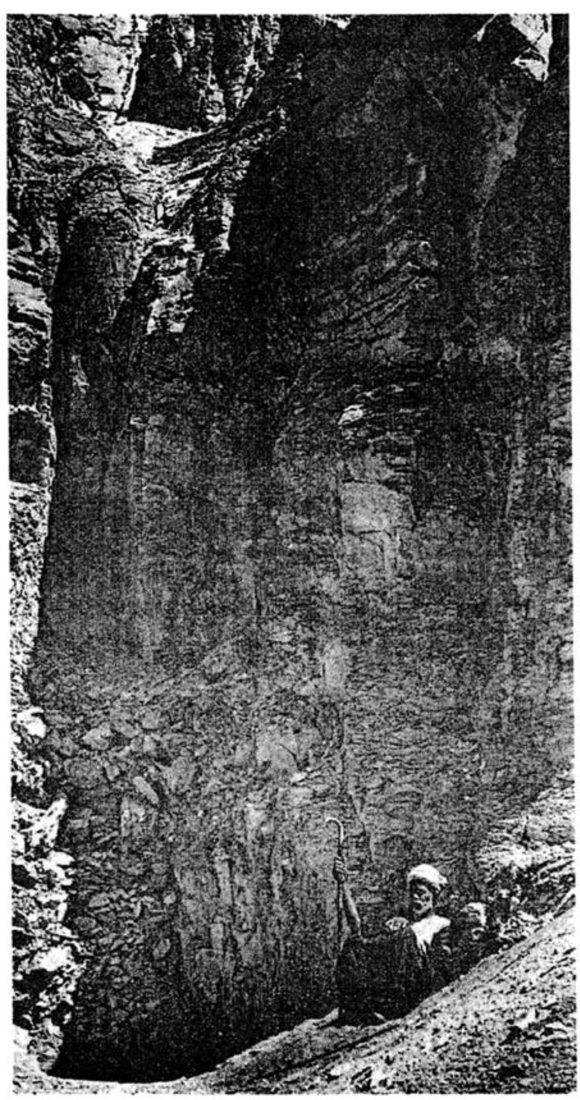
- هل قتل الأخ أخاه؟

لم يقل "طايع" شيئًا. إذ نظر إلى حوض الوادي غارقًا في أفكاره وهو صامت. عندئذ تأكدت لماذا انكشف أمر الخبيئة. فربما أن "فندية" "أم الحربات"؛ أي أم المقابر الملكية، أرادت بحكمتها أن يكشفوا هذا السر. فالعائلة لم يكن باستطاعتها العيش في مدينة الموتى هذه إلا بالتزام الكتمان تمامًا وبالمحافظة القصوى على ما تعرفه العائلة من معلومات في هذه المنطقة الصحراوية. إلا أن عبء السر صار كبيرًا أكثر مما ينبغي.





أحمد كمال، أحد علماء المصريات المصريين القلائل في ذلك الوقت، بجوار ضريح مومياء الملكة أحمس نفرتاري، تم استعادته من المخبأ



أحمد عبد الرسول عند مدخل المخبأ نحو عام 1907

عندئذ أدرك "ماسبيرو" أن أصل المقتنيات الجنائزية لا يرجع إلى وادي الملوك، وإنما إلى الدير البحري. وأن "بلزوني" كان محقًا في أن وادي الملوك بدا خاويًا. إذ لم يعد هناك ما يمكن العثور عليه. وساد الصمت في وادي الملوك. ولم ينبعث سوى صوت المجاريف وأعمال كسح المقابر الفرعونية المعروفة منذ وقت طويل، والمفتوحة، والتي تخضع لأبحاث علمية.

إلا أن وادي الملوك لم يكن خاويًا. ولم تنتهِ الاكتشافات الكبرى بعد. وظلت الأسرار الأعظم مدفونة أسفل الحصى والحطام. وكانت بانتظار الرجل الذي من شأنه أن يقوم بالكشف الأثري الأعلى قيمةً؛ مقبرة "توت عنخ آمون".



11
رجل من أجل "توت عنخ آمون"

وُلِدَ "هوارد كارتر" في لندن في التاسع من مايو عام 1874. تعلم "كارتر" من والده الرسم، كان يرسم الحيوانات المفضلة لدى طبقة الأرستقراطيين البريطانيين، شأنه في ذلك شأن والده. جذبت موهبة "كارتر" انتباه "بيرسي نيوبيري"، أستاذ علم الآثار والمصريات في جامعة القاهرة، فاصطحبه معه إلى مصر بوصفه رسامًا. حدث هذا في عام 1891 وكان عمر "كارتر" عندئذ سبعة عشر عامًا فحسب.

لقد جمعته خطواته الأولى على أرض مصر بـ"توت عنخ آمون" بالفعل. ففي "تل العمارنة"، أي في عاصمة حكم الملك المهرطق "أخناتون"، الذي كان على الأرجح والد "توت عنخ آمون" - إذ لم يتفق علماء المصريات على هذه القضية حتى الآن اتفاقًا كاملًا رغم تحاليل الأحماض النووية - بدأ "كارتر" في أعمال التنقيب والحفر، وذلك بتوجيهات من عالم الآثار "وليام ماثيو فلندرز بتري" الذي كان يقتفي أثر "توت عنخ آمون".

أطلع عالم الآثار "فلندرز بتري"، العنيد والمثابر والحريص على اقتفاء الآثار، "كارتر" على أصول أعمال التنقيب التي يمارسها بأساليب علمية. حتى أنه ضم "كارتر" إلى دائرته المقربة، لأنه مهتم بالعمل بشكلٍ جاد ولا يريد أن ينشغل بعلم الآثار لأنها مجرد موضة فحسب. تعلم "كارتر" من

"بتري" أن الأشياء البسيطة تتمتع بقيمة كبيرة، إذ إنها ربما تحمل إجابات لأسئلة أخرى قد تظهر فيما بعد. وصار الاحتفاظ بالقطع الأثرية المكتشفة أساسًا لأسلوب عمل "كارتر" فيما بعد.

كان "كارتر" موجودًا عندما لاحظ "بتري" بناءً على عدد كبير من الاكتشافات الأثرية الصغيرة أن "توت عنخ آمون" كان اسمه الأصلي "توت عنخ آتون"، وأنه غيَّر اسمه عندما عادت عاصمة الحكم المصري إلى العاصمة القديمة "طيبة" وصار "آمون" الإله الرسمي مرة أخرى. استنتج "بتري" من هذا الاكتشاف أن "توت عنخ آمون" مدفون بالتأكيد في وادي الملوك شأنه في ذلك شأن ملوك الأسرة الثامنة عشرة كافة. وقد تابع "كارتر" هذا الأمر وهو في يقظة بالغة.

بعد فترة وجيزة، انطلق "كارتر" في طريقه باتجاه نهر النيل. إذ ذهب إلى "الأقصر" لكي ينسخ نقوش وجداريات في المعبد الجنائزي للملكة "حتشبسوت" في البر الغربي لنهر النيل. لكن الأمر الأهم بالنسبة له كان الوجود بالقرب من وادي الملوك. فقد راودت "كارتر" عندئذ رغبة وحيدة؛ ألا وهي البحث عن مقبرة "توت عنخ آمون".

امتطى "كارتر" ظهر أحد الخيول بجانب الأستاذ الجامعي السويسري "إدوارد نافيل" وانطلق وسط الحقول الخضراء بين نهر النيل والصحراء نحو مدينة أعظم ملوك قدماء المصريين. رأى "كارتر" من مسافة بعيدة المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الثالث" على الجانب الأيسر، وعلى الجانب الأيمن المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر". وفي الطريق، التقى للمرة الأولى بتمثالي "ممنون" العملاقين، اللذين يجسدان "أمنحتب

الثالث". والتقى في المعبد الجنائزي للملكة "حتشبسوت" للمرة الأولى بعائلة "عبد الرسول".

أخذ الشاب الانطوائي ذو الوجه الشاحب والروح الفنية، الذي كان حتى ذلك الوقت لا يرسم سوى رسومات لكلاب في صالونات الحلاقة، ينسخ صورًا لآلهة وشياطين. ألوان، لم يسبق له أن رآها، وشخصيات غريبة عنه وتحمل أسماءً لا يفهمها. وقابل مجموعة من البشر يعتزون بأنفسهم وتحكمهم قوانين أخرى. فقد وُلدوا في مقابر النبلاء وعاشوا في هذا العالم العتيق الذي مثَّل لـ"كارتر" مكانًا مجهولًا.

لم يكن الرجل البريطاني محبًا للاختلاط والتواصل مع الآخرين. على النقيض من شباب عائلة "عبد الرسول" الذين وقفوا من حوله وهم يرتدون جلابيبهم وأخذوا يتحسسون بدلته الأوروبية. كانت أجسادهم عارية أسفل جلابيبهم بينما كان هو يرتدي طبقات عديدة من الملابس ويضع رباطًا حول عنقه. ألحوا عليه كثيرًا بأحاديثهم. ولم يفهم هو حرفًا منها. ضحكوا في حين ظل هو جادًا. عاد إلى خيمته. تابعوه بأنظارهم. استدار. انتظروه. ابتسم.

استطاع "كارتر" أن يتعلم كثيرًا منهم. رغم أن من ألفوا أعمالًا عن سيرته الذاتية قد كتبوا أنه علَّم نفسه اللغة العربية العامية، إلا أن الإنسان لا يتعلم لهجة السكان المحليين لأي بلد إلا عندما يتعامل معهم.

شعر "كارتر" أنهم يتقبلون وجوده. إذ إنهم ساعدوه أن يرى ما لم يستطع أي شخص آخر أن يراه وذهبوا معه إلى أماكن لم يصل إليها أي شخص غيره أبدًا. ربما أنه توغل معهم أيضًا إلى داخل المقابر. فقد وصف

في وقتٍ لاحق تلك التجربة وبدا وقع الأمر كأنه طيش شباب؛ إذ قال: "يمكن تخيل الدسائس والمكائد المستمرة ليلًا ونهارًا، والاجتماعات السرية الليلية فوق الصخور، وإعطاء رشاوٍ للحراس أو تخديرهم، وأعمال الحفر بجرأة في جنح الظلام، والعمل بشكل متواصل عبر فتحة صغيرة وصولًا إلى غرفة الدفن، والبحث بحماس ولهفة في شعاع ضوء خافت، والعودة في مطلع الفجر وهم محملون بالغنائم".

في الليل، أسفل ملايين النجوم، أخذ كبار السن يسردون حكايات أسطورية عن سرقة المقابر والذهب والأحجار الكريمة، بينما تشتعل نار المخيم. كان "كارتر" يجلس بجوارهم ويصغي باندهاش. تحدثوا عن مقبرة مفقودة، كانت أغنى مقبرة في وادي الملوك، بل وفي مصر كلها بالأساس. قيل إن أحدًا لم يصل إليها وإنها تمتلئ بمقتنيات جنائزية ذهبية. وقيل إنه مدفونٌ بها ملك فرعوني تحيط به كثيرٌ من الأسرار. ملك فرعوني، إله شاب. وإن رئيس القبيلة، أي الشيخ، وحده هو من يعلم موقع المقبرة.

حلم الجميع بالعثور على هذه الثروة، تمامًا مثلما حلموا اليوم أن يصبحوا أثرياء. شاركهم "كارتر" الحلم لكنه لم يحلم بالذهب. كان لديه حلم اسمه "توت عنخ آمون". لكنهم كانوا واقعيين؛ إذ لا بد أن يمتلكوا مالًا وترخيصًا. ولم يكن معهم لا هذا ولا ذاك. لكنهم يعرفون شخصًا يمتلك الأمرين.

في يناير عام 1898، صار "فيكتور لوريت" مديرًا لمصلحة الآثار المصرية. وفي عهده، بدأ عصر الاكتشافات في وادي الملوك من جديد. ففي

البداية، عثر "لوريت" على مقبرتي شخصين مجهولين وفي الثاني عشر من فبراير، عثر على مقبرة "تحتمس الثالث" الذي استطاع أن يحصل على إرثه القانوني بعد وفاة "حتشبسوت".

عثر "فيكتور لوريت" على مقبرة "تحتمس الثالث" في شق ضيق في الصخور، على بعد عشرين مترًا أعلى أرض الوادي. يمكن الوصول لهذه المقبرة على طريق أعلى الصخور الناتئة. اليوم يؤدي سلم حديدي إلى حافة الشق الصخري، ويُنصَح أولئك المصابين بالخوف من المرتفعات أن يبتعدوا عن هذه السلالم المفتوحة. بعد فترة وجيزة، اكتشف "فيكتور لوريت" مقبرة "أمنحتب الثاني" أسفل صخرة ناتئة منحدرة على ارتفاع يقترب من ثلاثين مترًا. إذ كان شلال مياه قد دفن المدخل تحت الحطام. كانت هذه المقبرة الرائعة كنزًا مدفونًا كذلك، أي مقبرة مجمعة، فقد أخفى فيها الكهنة قبل ألف عام من الميلاد مومياوات ملكية بعيدًا عن أيدي اللصوص. عندما فتح "فيكتور لوريت" المقبرة، كانت أجزاء من جثمان "أمنحتب الثاني" ملفوفةً في التابوت الحجري الذي قد وُضع فيه بعد انتهاك المقبرة. وبناءً على طلب من "فيكتور لوريت"، سُمِح للملك بالبقاء في نعشه وفي مقبرته وفي وادي الملوك.

كانت الآلهة رحيمة بـ"لوريت"، فتواصلت نجاحاته الكبرى. حيث اكتشف عشر مقابر في فصلي شتاء فقط جرت فيهما أعمال الحفر والتنقيب. كانت هذه الاكتشافات أولى الاكتشافات الكبرى في وادي الملوك منذ عهد "بلزوني". وعلى النقيض من "بلزوني"، كان "لوريت"

متواضعًا وصادقًا. إذ إنه لم يُخفِ أن عماله هم من عثروا على المداخل، حتى وإن لم يذكر أسماءهم.

عندما جاء "لوريت" إلى مصر في المرة الأولى عام 1881، كان عمره عشرين عامًا؛ أي أنه كان شابًا مثل "هوارد كارتر". هل عرضت عائلة "عبد الرسول" لـ"فيكتور" أيضًا ما لم يتمكن الآخرون من رؤيته؟ هل كانت نجاحات "فيكتور لوريت" فصلًا من فصول الحكايات الدائرة بين مدير مصلحة الآثار ولصوص المقابر ذوي السمعة السيئة؟

ورغم ما حققه "فيكتور لوريت"، فقد تم إعفاؤه من منصب مدير مصلحة الآثار بعد عامين فقط من توليه المنصب وذلك بسبب مؤامرات يمكن أن يُقال إنها كانت تُحاك من يوم لآخر، ولم يستطع حتى أن ينتهي من تقاريره التي أجراها عن أعمال التنقيب. فقد عاد من باريس خِصْم "لوريت"، والذي شغل ذات يوم بالفعل منصب مدير مصلحة الآثار، "جاستون ماسبيرو". وبمجرد أن تقلَّد "ماسبيرو" المنصب مرة ثانية، أعاد على الفور تنظيم مصلحة الآثار وعدَّل اللوائح. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، لم يعد من المسموح لأي شخص عند قيامه باكتشاف أثري أن يفتح المقابر أو يدخلها إلا في وجود مفتش من مصلحة الآثار. وتضمَّن هذا الأمر ضرورة أن توضع في المتحف أي مقتنيات متبقية من مواقع الاكتشافات الأثرية المنهوبة. وعندئذ من الممكن الاختيار بين القطع التي تكون هناك رغبة في الاحتفاظ بها والقطع التي تُعاد لمن عثر عليها. أراد "ماسبيرو" بذلك أن يزيد من إقبال الأجانب القائمين بأعمال الحفر والتنقيب على الحصول على الترخيص. ومع ذلك، لم يغبن "ماسبيرو"

المتحف حقه. ففي حالة التنقيب في مواقع الاكتشافات الأثرية، التي لم يدخل إليها أحد، كان من الضروري أن تصبح المقتنيات كافة من حق مصر. وكان من حق مصلحة الآثار والحكومة المصرية النظر في أمر التنازل عن بضع قطع أثرية للأشخاص الحاملين للترخيص.

عيَّن "ماسبيرو" في "الأقصر" مفتشًا عامًا على الصعيد، وفي "سقارة" مفتشًا عامًا على الوجه البحري. كان المفتش العام مسؤولًا عن ضمان تسيير كل الأمور بشكل صحيح في أثناء أعمال الحفر والتنقيب، بما في ذلك الأعمال التي تقوم بها مؤسسات أجنبية. ومن المعروف وقتها أن منصب مدير مصلحة الآثار مقتصرٌ على العلماء الفرنسيين. لذلك طالب البريطانيون أن يكون هناك مفتشون بريطانيون. فاختار "ماسبيرو" "هوارد كارتر" للصعيد. وبذلك صار "كارتر" مفتشًا عامًا على الصعيد بأكمله وعلى "النوبة" في عمر الخامسة والعشرين عامًا.

وبذلك يبدأ الحديث عن اتصالات "كارتر" بعائلة "عبد الرسول". فذات ليلة، تعرضت مقبرة "أمنحتب الثاني" في وادي الملوك للسطو رغم تأمينها بسور حديدي ثقيل وأقفال ضخمة ورغم وجود حارسين كانا يقومان على حراستها. حكى "هوارد كارتر" عن سرقة المقبرة هذه في كتابه "مقبرة توت عنخ آمون" كأنه لم يعرف بهذه الحكاية إلا عن طريق الإشاعات. فكتب بصورة تجعله غير ضالع في الأمر:

"بعد عام أو عامين من اكتشاف مقبرة "أمنحتب"، تسللت إلى المقبرة عصابة من لصوص المقابر في العصر الحديث؛ تم ذلك بلا أدنى شك بالاتفاق مع الحراس. أخرجوا المومياء من التابوت وبحثوا عن الكنوز. في

وقتٍ لاحق، أخذت مصلحة الآثار تقتفي أثر اللصوص وتم إلقاء القبض عليهم. إلا أن مصلحة الآثار لم تنجح في إثبات إدانتهم أمام القضاء المصري المحلي".

لم يذكر "كارتر" أنه كان مفتش مصلحة الآثار في ذلك الوقت وأنه اقتفى أثر اللصوص بنفسه. ولم يذكر أيضًا أن هذه الواقعة كانت السبب في نقله إلى "سقارة" في شمال مصر. وفي المقام الأول، لم يذكر "كارتر" أسماء لصوص المقابر المشتبه بهم.

لم يجد مؤلفون آخرون حرجًا من ذكر اسم عائلة "عبد الرسول" ووصفوا الوقائع. ففي وقت مبكر من صباح يوم الرابع والعشرين من نوفمبر عام 1901، أيقظ أحد الحراس "كارتر". وأخبره أن "قطاع طرق مسلحين هجموا عليهم في الليل وقيدوهم، وأن مقبرة "أمنحتب" تعرضت للسلب والنهب". فأسرع "كارتر" إلى مسرح الجريمة.

كانت مومياء الحاكم الفرعوني ملقاة بجوار التابوت الحجري دون أن يمسها سوء. يقال إن "كارتر" قد أدرك على الفور أن من كانوا هنا هم أناس محترفون في هذه الأمور؛ إذ رأى بعينه المجردة أن الأقفال لم تصِبها أي خسائر. ولم يتضح إلا من خلال الفحص الدقيق أن الأقفال تعرضت للكسر بعناية ثم تم إغلاقها مرة أخرى بإتقان.

رفع "كارتر" آثار أقدام من مسرح الجريمة ودلته هذه الآثار على الأشقاء "عبد الرسول". فتعرض حصنهم العتيق؛ أي "البيت الأبيض"، للتفتيش دون العثور على أي شيء. غير أن اثنين من آثار الأقدام تطابقا مع مقاس حذاء "محمد عبد الرسول". لكن "كارتر" لم يتأثر بذلك، فآثار

الأقدام تعد دليلًا غير كافٍ. ابتسم الرجل العجوز في هدوء قائلًا: "والله أيها المفتش! ستجد لدينا مائة قدم مقاسها مثل مقاس قدمي!".

بعد فترة وجيزة من واقعة "أمنحتب"، تم نقل "هوارد كارتر" - بالطبع رغمًا عن إرادته - إلى الوجه البحري. لماذا حدث هذا؟ لقد أدى "كارتر" واجبه واقتفى الآثار وعثر على المشتبه بهم. وبالأساس لم يتعرض أي شيء لأضرار أو للسرقة. ولم يكن من الممكن العثور على دليل قاطع ضد "محمد عبد الرسول". هل يعدُّ هذا سببًا لمعاقبة مفتش كفء ونقله إلى "سقارة"؟

ذات مساء، عندما جلست أنا و"طايع" مع أبناء عمومتنا في حديقة مطعم "فرعون"، خطرت ببالي فجأة فكرة جنونية. إذ استطعت أن أتخيل لماذا تم نقل "كارتر" في لمح البصر إلى الوجه البحري. أخذت أراقب كيف سرد أبناء العمومة الحكايات لبعضهم. في حقيقة الأمر، هم لم يسردوا حكايات وإنما قدموا أداءً استعراضيًا. ففي لحظات معينة، كانوا يقفزون لأعلى ويرفعون أصواتهم أيضًا. ويقدمون أداءً تمثيليًا لأحد المشاهدين بأعين متلألئة، ثم يعودون للجلوس في كراسي الخوص لكي ينتهوا من الحكاية بنبرة صوت منخفضة وذراعين مرتخيتين. لقد استمتعوا بدرجة عالية. وأخذ صوت ضحكاتهم يزداد ارتفاعًا وبدأوا يغنون ويرقصون. تبادلوا الدعابات والمزاح وأخذوا يضربون بعضهم بعضًا على أكتافهم وأفخاذهم في مرح كبير.

أصغي إلى حكاياتهم وأفكر في "هوارد كارتر". وأخذت أتصور كيف جلس في سنواته الأولى في "القرنة" وسط أفراد عائلة "عبد الرسول". كيف مازحوه وتبادلوا معه الدعابات وربتوا على كتفه. لكن في يوم من الأيام، صار "كارتر" مفتشًا عامًا لآثار "طيبة" و"الكرنك" و"الأقصر" والدير البحري ووادي الملوك أيضًا. وعندئذ صار منتميًا لمصلحة الآثار البغيضة هذه. كان "كارتر" يسكن في منزل عائلة "عبد الرسول"، على مسافة أربعة كيلومترات من وادي الملوك، مما دفع أفراد عائلة "عبد الرسول" لاستعراض قوتهم. صحيح أن "هوارد كارتر" صديقهم، إلا أن "جاستون ماسبيرو" مدير مصلحة الآثار عدوهم اللدود.

وفي ليلة غاب فيها ضوء القمر، فتح أفراد عائلة "عبد الرسول" في وادي الملوك مقبرة "أمنحتب الثاني" الخاضعة لحراسة مشددة ووضعوا المومياء بجوار التابوت الحجري لكي يُظهِروا أنهم كانوا بالفعل في الداخل. واستعرضوا مهارتهم في سرقة المقابر بأن تعاملوا مع الأقفال بطريقة جعلتها تبدو كأنها لم تُفتَح أبدًا.

عندما وقف "كارتر" أمام "محمد" وأشقائه وبصحبته رجال الشرطة وآثار أقدام لصوص المقابر في منزل عائلة "عبد الرسول"، ظل "محمد" وأشقاؤه محتفظين بهدوء أعصابهم. لكنهم كانوا في قرارة أنفسهم سعداءً كأنهم أطفال. وأظهروا هذا الأمر له، فبالنسبة لهم، كان الدخول إلى مقبرة شديدة الحراسة والخروج منها مرة أخرى كإحدى ألعاب الأطفال. ولو كانوا جادين في أمر سرقة المقبرة، لما استطاع أحدٌ الكشف عن هذا الأمر

أبدًا. ضحك أفراد عائلة "عبد الرسولِ" من المقلب الذي دبَّروه بينما رأت مصلحة الآثار هذا الأمر غير مضحك على الإطلاق.

لا بد وأن "كارتر" كان يعرف آنذاك بالفعل أين تقع مقبرة "توت عنخ آمون"! ففي ديسمبر عام 1901، كان "كارتر" قد نُقِلَ إلى "سقارة" لكنه ظهر بعد بضعة أسابيع بالفعل، أي في يناير عام 1902، من جديد بصحبة مليونير أمريكي كان معه ترخيصٌ بالتنقيب والحفر في وادي الملوك.

كان "ثيودور ديفيس"، وهو رجل أمريكي نحيف ذو شارب كثيف يصل حتى كلتا أذنيه، قد استثمر ملايين في البورصة وأنفقها عندئذ على علم الآثار. كان رجلًا فوضويًا متذمرًا مبتدئًا في عالم الآثار، ويباشر أعمال التنقيب والحفر دون التحلي بالدقة اللازمة لذلك. كما أنه مستهتر بشكل كارثي بأمر الأبحاث المنشورة عن القطع الأثرية المكتشفة. وكان يأمر بإخلاء المقابر بأسرع ما يمكن من أجل إتاحة الفرصة للتنقيب في مكان آخر.

استعان "ثيودور ديفيس" بمائة وخمسين عاملًا من أجل تمشيط وادي الملوك. أفرغ العمال في فبراير بالفعل مقبرة "أوسرحات". ثم بدأ "ديفيس" أعمال الحفر في الطرف الشرقي للوادي وعثر على الفور على مقبرة "تحتمس الرابع" وصحبه في ذلك دليلٌ من أهل البلد. وبعد شهر، صار "ديفيس" موجودًا في مقبرة "تحتمس الأول" في الجانب الغربي. ثم عاد إلى الطرف الشرقي وعثر على المثوى الأخير للملكة "حتشبسوت" والذي كان مخفيًا وسط الصخور.

اقترح "كارتر" على "ديفيس" أن يقوم بالحفر في وسط الوادي عند المدخل المؤدي إلى مقبرة "رمسيس السادس". كان "ديفيس" يطلق على

"كارتر" اسم "العبقري الخاص بي"، إلا أنه تجاهل في هذا الوقت اقتراح العبقري الخاص به، إذ كانا يمتطيان ظهور الخيول في كل صباح ومساء ويمران بمقبرة "توت عنخ آمون".

لم يكن من حق "كارتر" أن يبدي رأيه في اختيار المنطقة التي يتم الحفر فيها. إذ كان "ديفيس" من يسدد تكاليف أعمال التنقيب ويحق له بسبب ذلك أن يدير الأمر برمته. لم يرغب "ديفيس" في البحث عن مقبرة في هذا المكان. فقد أعرب "كارتر" عن ملاحظة بعد سنوات؛ أي عندما شرع في العمل في هذه المنطقة بصحبة اللورد "كارنارفون"، مفادها: "لقد اتضح لنا أن هناك عملًا شاقًا للغاية ينتظرنا وأنه يجب إزالة عدة آلاف من أطنان الحصى قبل أن يراودنا الأمل في العثور على شيء". بينما كان الرجل الأمريكي يبحث عن النجاح السريع.

لو كان "كارتر" عندئذ على علم بموقع مقبرة "توت عنخ آمون"، فلا بد وأنه سمع هذا من أفراد عائلة "عبد الرسول". فعلماء الآثار لم يكونوا على علم آنذاك حتى هل كان "توت عنخ آمون" مدفونًا في وادي الملوك أم لا.

ربما كان "كارتر" سيعثر مع "ديفيس" على مقبرة "توت عنخ آمون" لو لم تفسد عليهما فضيحة صغيرة في "سقارة" هذا الأمر. فقد قيل إن بضعة فرنسيين مخمورين حاولوا في مساء يوم أحد أن يتسللوا إلى الكوخ الذي تقيم فيه زوجة "فلندرز بتري" وثلاث طالبات. فاستدعى "بتري" "كارتر". وأمر "كارتر" رجاله بحماية النساء. وفي غمرة الاضطرابات، ضرب أحد المصريين رجلًا فرنسيًا فطرحه أرضًا. فتقدم الفرنسيون بشكوى ضد "كارتر" ورجاله من أهل البلد الذين كانوا على قدر من

الوقاحة جعلهم يضربون أحد الرجال الفرنسيين. وأضافوا أن ما حدث قد انتهك شرف فرنسا! اعترى الغضب القنصل الفرنسي، وطالب باعتذار رسمي. ولم يكن "كارتر" مستعدًا لذلك. بل وعلى العكس من ذلك، صمم "كارتر" على أنه أدى واجبه بوصفه مفتشًا فحسب، ودافع عن الرجل المصري. وأضاف أن الرجل المصري تصرف بصورة صحيحة عندما طرح الفرنسي أرضًا. وقال لقنصل فرنسا إنه لا يكترث بالأمر.

بدأت الصحف في القاهرة تستغل القضية. فقيل إن "كارتر" أمر المصريين باستخدام الهراوات. ونبه "ماسبيرو" "كارتر" إلى ضرورة الاعتذار، على الأقل عن استخدام الهراوات. فطالب "كارتر" متحديًا له بضرورة أن يعتذر الفرنسيون أولًا.

لم يعتذر الفرنسيون. فتنازل "كارتر" عن كل شيء؛ بما في ذلك منصبه كونه مفتشًا عامًا في مصلحة الآثار. أدار "كارتر" ظهره للجميع وفجأة عاد إلى الصعيد واستحضر مواهبه في الرسم. وعبر نهر النيل وهو يحمل لوحاته المائية أسفل ذراعه وباعها في "الأقصر" للسياح الأثرياء في فندق "وينتر بالاس". كما أدى دور المرشد السياحي، وتاجر بين الحين والآخر في الأنتيكات. وقد كتب "ألبرت ليثجو" من متحف "المتروبوليتان للفنون" في "نيويورك" عن "كارتر" آنذاك أن لا أحد على دراية بالسوق المصري أفضل منه.

كان من الضروري رؤية "كارتر" في ضوء شمس مصر. إذ إنه لم يعد صبيًا، بل صار رجلًا نبيلًا بمعنى الكلمة وأخذ يتحرك في فندق "وينتر بالاس" بأمان تام مثلما يتحرك وسط كومات الحصى وأقبية الحفر. حتى

في حالة الطقس الحار كان من الممكن العثور عليه وهو يرتدي بدلته المصنوعة من قماش "تويد" المكونة من ثلاث قطع، ويرتدي ربطة عنق وقبعة أنيقة، ومعه عصا المشي.

كان "كارتر" رجلًا وحيدًا لكنه لم يكن بأي حال من الأحوال منعزلًا. إذ شعر في مصر كأنه في وطنه وهو ما لم يمر به أي من علماء الآثار الكثيرين ممن كانوا يغادرون مصر بعد انتهاء فصل الشتاء الذي تتم فيه عمليات الحفر والتنقيب. وقد تعرف "كارتر" في السنوات الثلاث التي قضاها في منصب المفتش على جميع الأشخاص المهمين، وعرف أيضًا عقلية المصريين. وتمتع بعلاقات في كل الجهات، حيث كان كتومًا ومحبوبًا. أخذ "كارتر" يدخل ويخرج من فندق "وينتر بالاس"، لأن جميع الصفقات الكبرى لم تكن تتم في بازار "الأقصر" وإنما في الغرف المغلقة بعد تناول وجبة العشاء بصحبة الشيشة والرقص الشرقي.

من المحتمل أن تكون صورة "فندية"؛ أي الصورة العائلية لأربعة أجيال من عائلة "عبد الرسول"، التي عثرتُ عليها عن طريق الصدفة في أحد أدراج "طايع"، قد التقطت في ذلك الوقت. لم تكن هذه الصورة هي الصورة الوحيدة التي تظهر فيها "فندية" فحسب، وإنما أيضًا واحدة من أواخر صور الشيخ "أحمد". فقد تُوفي قبل وفاة والدته. وأصبح "محمد" ابنه الأكبر شيخ العائلة وملك وادي الملوك.



عزاء في القرنة نحو عام 1920

ذات صباح، فارقت "فندية" أيضًا الحياة. انتشر خبر وفاة "أم الحربات" بسرعة البرق كالنار في الهشيم. أتخيلُ حالة الحزن في سلسلة جبال البر الغربي كما يلي: تدثرت النساء بملابس سوداء ووضعن أقمشتهن السوداء على رؤوسهن، وأسرعن إلى بيت "فندية" الموجود تحت الأرض. أخذت النساء الندابات يأتين ويبدأن أناشيدهن ويضربن معًا بأيديهن على رؤوسهن ويولولن ويبكين. تدفق أهل القرية جميعًا؛ بمن فيهم الرجال. جلسوا في صمت وهدوء بمنأى عن النساء، ومن بينهم "هوارد كارتر". أخرجوا "فندية" من بيتها الموجود في مقبرة وحملوها في تابوت خشبي بسيط وغطوها بقماش ملون. عندئذ بدأ الرجال أيضًا في النواح والبكاء وصرخوا بشدة وهم ينظرون إلى السماء. تدافع الرجال نحو

التابوت للمساعدة في حمل "فندية" وركضوا بجوار التابوت. سار "كارتر" ببطء من خلفهم. بينما تراجعت النساء إلى الخلف، ففي مصر يرافق الرجال وحدهم الموتى حتى القبر. في الغرب، غابت الشمس. بينما تردد صدى صرخات الرجال من سلسلة جبال البر الغربي التي أخذت تفقد لونها شيئًا فشيئًا. وارتفع صوت صراخ الرجال أكثر وازدادت سرعة خطواتهم عندما غيروا اتجاههم عند مرورهم بالمعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر" وساروا بامتداد الشارع المؤدي بعد "دراع أبو النجا" إلى المقابر. لقد دُفِنَت "فندية" في الرمال بعد أن عاشت طوال حياتها في مقابر أهم موظفي قدماء المصريين، من دون زينة وملفوفة في قماش أبيض فحسب ودون تابوت وفقًا للتقاليد الإسلامية. أطلق الرجال وابلًا من الرصاص في عنان السماء تكريمًا لـ"فندية" في مثواها الأخير. وساد الحزن في سلسلة جبال البر الغربي بأكملها وخارج "الأقصر" على سيدة مصرية عاصرت الأحداث وأسهمت في تشكيلها لمدة تزيد عن مائة عام.

أصبح "محمد" عندئذ وحيدًا. فبعد أن صار شيخًا، أي رئيس العشيرة، لم يعد يتلقى أي نصيحة من جدته "أم الحربات".

أتخيل كيف تناقش "هوارد كارتر" و"محمد عبد الرسول" في هذه الأيام عن المستقبل. حيث ذهب "كارتر" إلى "محمد" وحكى له عن رجل إنجليزي، أي عن لورد، كان معه ترخيص بممارسة أعمال الحفر والتنقيب في منطقة "الشيخ عبد القرنة". لكنه اكتفى بالنبش في الرمال ولم يعثر حتى ذلك الوقت سوى على قطة محنطة. وأضاف أن "جاستون ماسبيرو" اقترح على اللورد أن يتخذ من "كارتر" مساعدًا له.

صمت "محمد".. بينما واصل "كارتر" حديثه. أسهب "كارتر" في حديثه قائلًا إن هذا الرجل الإنجليزي ربما هو الرجل المناسب للتنقيب عن مقبرة "توت عنخ آمون". وأضاف أن هذا اللورد لم يُقحِم نفسه في الأمور كافة مثلما فعل "ديفيس" قبل سنوات.

أعرب "محمد" عن ارتيابه. حيث قال إن "ديفيس" لا يزال يمتلك ترخيصه ومالًا وفيرًا، وأنه طموح جدًا لدرجة لن تجعله يتخلى عن حلمه في أن يكون مكتشف هذه المقبرة، وأنه لن يعيد هذا الترخيص. عندئذ التزم "كارتر" نفسه الصمت.

جلس "كارتر" و"محمد عبد الرسول" وحيدين في أطلال المعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر". أراد "محمد" أن يعرف مزيدًا عن هذا اللورد. فقال "كارتر" إنه تعرَّض لحادث سيارة وصار مضطرًا منذ ذلك الوقت أن يبتعد في الشتاء عن لندن بما فيها من ضباب. وعندئذ صار اللورد يسعى أن يقوم في كل شتاء بأعمال حفر وتنقيب ويجمع مجموعة من التحف الأثرية المصرية.

نهض "محمد" واقفًا. وعندما نصب "كارتر" أيضًا قامته، نفض الرمل عن سرواله، وقال له "محمد": "اعمل مع اللورد. فربما كان هو رجل "توت عنخ آمون" ".



كان التعاون بين هذين الرجلين أمرًا موفقًا للغاية. إذ كان "هوارد كارتر" إضافةً مثاليةً للورد "كارنارفون"، هذا ما كتبه "س. و. سيرام" في كتاب "آلهة ومقابر وعلماء". بينما رأى كاتبٌ آخر الأمر بصورة مختلفة: "الشيء الوحيد الذي ربط بين كلا الرجلين كان شغفهما القوي بعلم الآثار". إلا أن البحث عن مقبرة "توت عنخ آمون" ربط كلا الرجلين رباطًا وثيقًا منذ البداية.

غير أن الاثنين اضطرا في بادئ الأمر للانتظار بفارغ الصبر لمدة سبعة فصول شتاء متتالية، إذا جاز التعبير، على أعتاب وادي الملوك. فـ"ثيودور ديفيس" لم يفكر في إعطاء ترخيصه لأحد. لا سيما عندما عثر في ربيع عام 1906 للمرة الأولى على أحد المقتنيات التي تحمل اسم "توت عنخ آمون". "عندما قمت بالحفر والتنقيب عند سفح هضبة في وادي الملوك، اتجه اهتمامي لأسباب غير مفهومة إلى صخرة كبيرة تميل جانبًا". وقد أخذ "ديفيس" ينظر في سعادة غامرة إلى كوب أزرق اللون، إذ كان الكوب يحمل خرطوش "توت عنخ آمون".

تواصلت نجاحات "ديفيس". إذ عثر في مقبرة، لم يلتفت أحدٌ إليها حتى ذلك الوقت، على صندوق صغير مكسور به بضعة أطباق ذهبية صغيرة، والتي حملت بدورها خرطوش "توت عنخ آمون"! بعد ذلك بأيام قليلة، عثر "ديفيس" في إحدى المقابر على أوعية فخارية ضخمة بها معدات تخص مراسم جنازة "توت عنخ آمون" وقد قيل إن أحد المشيعين للجنازة أو أحد العبيد أو أحد الموظفين الإداريين قد أدخلها في شق صخري بعد عملية الدفن.

وعثروا بعد يوم واحد من التنقيب على الدرجة الأولى لأحد السلالم. كانت مقبرة "حور محب". هذه المقبرة آخر اكتشافات "ديفيس" في وادي الملوك. فقد ظن "ديفيس" أن المقبرة، التي عثر فيها على الأطباق الذهبية الصغيرة، هي مقبرة "توت عنخ آمون". "جعلتني هذه الاكتشافات أستنتج أن "توت عنخ آمون" كان مدفونًا بالأساس في هذه المقبرة وأن هذه المقبرة تعرضت للسلب والنهب فيما بعد ولم يتبقَ منها سوى أشياء قليلة".

كان "ديفيس" على قناعة راسخة أنه لم يعد هناك ما يمكن اكتشافه في "وادي بيبان الملوك" وهو ما قاله "بلزوني" قبل مائة عام مستخدمًا العبارات نفسها تقريبًا: "تم البحث في وادي الملوك بأكمله. لم يعد هناك شيء يمكن العثور عليه". كان "ديفيس" على دراية أن "كارتر" يريد الحصول على ترخيصه من أجل التنقيب عن "توت عنخ آمون". ومع ذلك، فإنه لم يستخدم الترخيص في وادي الملوك لمدة سبعة أعوام.

"في عام 1914، انتقل إلينا حق الامتياز الذي تمتع به "ديفيس" وبذلك بدأ بالفعل تاريخ مقبرة "توت عنخ آمون" ". أسعد هذا الأمر "كارتر"، رغم أن "جاستون ماسبيرو" قال له بشكلٍ صريح إنه يظن أنه لم يعد هناك ما يستحق الاستمرار في الحفر والتنقيب في وادي الملوك. وبينما حاول آخرون إقناع اللورد "كارنارفون" أن التنقيب سيكون إهدارًا صريحًا للمال، ظل "كارتر" متمسكًا برأيه. لأنه كان يعرف ما يتحدث عنه: "فحصنا المنطقة بعناية وصرنا متأكدين تمامًا أن هناك مواقع لم يفحصها أحد بدقة قط، أسفل الحطام الناتج عن أعمال تنقيب سابقة". حتى أنه اعترف صراحةً قائلًا: "كنا نتوقع في الحقيقة أكثر من

ذلك! لقد راودتنا آمال قوية في العثور على مقبرة ملك معين وكان هذا الملك هو "توت عنخ آمون" ".

وقد برهن "كارتر" على ذلك بالاكتشافات الأثرية التي قام بها "ديفيس" بالقرب من هذا الموقع. لكنه أشار إلى آراء "ديفيس" النظرية بوضوح قائلًا: "لقد زعم أنه عثر على مقبرة "توت عنخ آمون" بسبب عثوره على هذه القطع الذهبية غير المكتملة. هذا الاستنتاج باطل تمامًا، فالمقبرة المثيرة للريبة والموجودة في فتحة البئر كانت صغيرة وغير ذات أهمية ويبدو من شكلها أنها كانت على الأرجح تخص أحد موظفي البلاط الملكي من عصر "الرعامسة". لكن من المثير للسخرية اعتبارها مقبرة أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة".

"بعد كل هذه الأدلة، صرنا على قناعة تامة أنه لا يزال ممكنًا العثور على مقبرة "توت عنخ آمون"، وأنها لا بد وأن تقع على مسافة غير بعيدة من منتصف الوادي. في شتاء 1914-1915، ونحن على وشك أن نتم خططنا للقيام بعملية قد استعددنا لها بدقة، بينما اندلعت الحرب، أصبح من الضروري في بادئ الأمر أن نؤجل هذه الخطط". عاد اللورد "كارنارفون" إلى إنجلترا لكي يلتحق بالجيش. بينما بقي "هوارد كارتر" في مصر، وتم تكليفه بأداء الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني، حتى وإن استمر هذا لفترة قصيرة. وبسبب معرفته باللغة العربية وخبرته في التعامل مع أهل البلد، فقد كُلف بوظيفة تنظيم حشود الفلاحين لبناء منشآت دفاعية ونقل الإمدادات إلى الجبهة. وقد زعم "كارتر" نفسه أنه

كان مكلفًا بنقل رسائل سرية لوزارة الحربية، إلا أن "كارتر" لم ينخرط على الأرجح أبدًا في صفوف قوات النخبة هذه.

"في السنوات التالية لذلك، استغرق العمل الحربي كل وقتي تقريبًا. ومع ذلك كانت هناك فترات توقُّف بين الحينِ والآخر أستطيع فيها أن أقوم بأعمال حفر وتنقيب بسيطة". تشير كثيرٌ من الأمور إلى أن "كارتر" أقام في أثناء سنوات الحرب في سلسلة جبال البر الغربي وأجرى أعمال بحث وتنقيب بتكليف من اللورد "كارنارفون". فأفرغ "كارتر" في فبراير عام 1915 محتويات مقبرة "أمنحتب الثالث" عن آخرها. كما تثبت الحروف الأولى "هـ ك. 1916" المحفورة في الصخور بجوار النقوش الصخرية، التي أعد "كارتر" نسخًا منها، إلى أنه أقام في وادي الملوك.

في الواقع، تم تسريح "كارتر" من الخدمة العسكرية بعد وقت قصير من اندلاع الحرب بسبب "سرعة غضبه". فقد شعر "كارتر" بالصدمة من الطريقة التي تعامل بها أهل بلاده عند حشد المصريين لأداء الخدمة العسكرية ودافع عن الفلاحين في مواجهة الإنجليز، مثلما تصدى قبل ذلك للفرنسيين في "سقارة".

هل ذهب "كارتر" بعد تسريحه من الخدمة العسكرية إلى منزله بالقرب من وادي الملوك؟ تشير قصة عن لصوص المقابر إلى ذلك. "عندما مكثت في العام التالي في "الأقصر" لقضاء إجازة قصيرة، وجدت نفسي فجأة منخرطًا في عمل آخر بشكل لم أكن أتوقعه".

"ذات ليلة انتشر في القرية نبأ أن هناك لصوص مقابر عثروا على اكتشاف أثري في مكان مهجور في الجانب الغربي من الهضبة أعلى وادي

الملوك. وعلى الفور حملت شرذمة أخرى من لصوص المقابر أسلحتهم وتوجهوا إلى هذا المكان. وقع اشتباك محتدم وتعرض لصوص المجموعة الأولى للضرب والطرد. إلا أنهم أقسموا على الثأر". فتوجه كبار السن من أهل القرية إلى "كارتر" وطلبوا منه أن يتدخل لكي لا يتصاعد الموقف.

"كنا في وقت متأخر من عصر أحد الأيام. جمعت في عجالة عددًا قليلًا من عمالي ممن تهربوا من التجنيد وانطلقت ومعي المعدات الضرورية". ومع بزوغ القمر، اعتلوا هضبة "القرنة" على ارتفاع يزيد عن ستمائة متر. كانت المقبرة مُخبَّأة أسفل قمة الهضبة بمهارة شديدة لدرجة أنه لم يبدُ لها أي أثر. إلا أن عمال "كارتر" كانوا يعرفون أين تقع المقبرة. كانوا يعرفون الطريق.

وصلوا إلى المكان قرابة منتصف الليل. أشار قائد المجموعة المصري في صمت إلى حبلٍ يخص لصوص المقابر، كان متدليًا بشكل رأسي أعلى الصخرة. أخذ أفراد المجموعة يسترقون السمع في الليل وسمعوا بالفعل صوت العمال وهم يعملون. فتشاوروا في الأمر هامسين. ثم قطع "كارتر" حبل لصوص المقابر ولم يعد باستطاعتهم أن يهربوا. ثبَّت العمال حبلهم القوى وجعلوا "كارتر" يهبط عبر الصخرة. فأخذ "كارتر" يتأرجح لمسافة مائة متر أعلى قاع الوادي على حبل طوله ثلاثين مترًا بامتداد حائط صخري لونه فضي رمادي وينيره ضوء القمر. "النزول في منتصف الليل عبر حبل إلى وكر لصوص مشغولين بما يفعلونه يعد طريقة لقضاء الوقت لا تخلو على الإطلاق من الإثارة".

عندما وصل "كارتر" إلى أسفل، مرَّ بلحظات مزعجة. إذ كان هناك ثمانية رجال يعملون. وأعطاهم "كارتر" حق الاختيار بين الهروب بالاستعانة بحبله أو البقاء حيث كانوا من دون حبل. كان "كارتر" يحمل سلاحًا وكذلك اللصوص. إلا أن أسلحتهم لم تفيدهم في شيء؛ إذ كان رجال "كارتر" يقفون عند نهاية الحبل وهم يحملون الأسلحة أيضًا. لم يتبقَ لدى لصوص المقابر خيارٌ. تسلَّق "كارتر" لأعلى من جديد ومن خلفه لصوص المقابر الثمانية. ولاذوا سريعًا بالفرار. تركهم "كارتر" يركضون.

قضى "كارتر" ما تبقى من الليل مع عماله في الموقع وهبط إلى المقبرة من جديد بمجرد أن سطع ضوء الشمس. كانت المقبرة ممتلئة بالحطام الذي كان لصوص المقابر قد جرَّفوه فظهر من بينه نفقٌ ضيقٌ طوله ثلاثون مترًا. عقد "كارتر" وعماله العزم على إفراغ محتويات المقبرة عن آخرها. ومن أجل تفادي المنحدر والسقوط الذي قد يعرض حياتهم للخطر، سلكوا طريق المدخل فوق قاع الوادي. أعد العمال عند مدخل المقبرة التجهيزات من أجل الحبل الذي سوف يستخدمونه. واستطاعوا أن يتحركوا صعودًا وهبوطًا بالاستعانة ببكرة رفع، معينين "كارتر" أن يهبط إلى أسفل بحذر داخل شبكة.

أخذوا يجرفون الحصى من القبو لمدة عشرين يومًا وليلة. كانوا متوقعين باستمرار أن يصلوا إلى كنوز ذات خصوصية كبيرة؛ إذ لم يكن من السهل أن يدخل أحدٌ إلى هذا المكان. كم شعر الرجال بالإحباط عندما تبين أن المقبرة ليس بها شيء وأنها لم تكن حتى مكتملة البناء.

لكن كان من الضروري ألا يغادروا قاع الوادي بأيادٍ خاوية، فقد عثروا على تابوت واحد ضخم أصفر اللون مصنوع من حجر رملي بلوري وعليه نقش مكتوب به: "ابنة الملك وشقيقة الملك وزوجة الإله والزوجة الملكية العظيمة وسيدة الأرضين: "حتشبسوت" ". كانت هذه المقبرة هي المقبرة التي أمرت "حتشبسوت" بتجهيزها قبل أن تستولي على العرش وتصبح ملكة. ومن ثمَّ أمرت بتشييد مقبرة لها في وادي الملوك شأنها في ذلك شأن ملوك قدماء المصريين كافة. "لو تمسكت بخطتها الأولى لكانت ستصير في حال أفضل. ففي هذا المدفن المستتر، كانت المومياء الخاصة بها ستتجنب الإزعاج". عن هذا كتب "كارتر": "أرادت أن تصبح ملكة فمرَّت بمصير الملوك". أي أن الرجل البريطاني عثر على مقبرتي "حتشبسوت". إذ كان قد عثر في وادي الملوك في عام 1903 على المقبرة، التي دُفِنَت فيها "حتشبسوت"، عندما كان "ثيودور ديفيس" لا يزال يمنحه مالًا.



"بدأنا في خريف عام 1917 حملتنا الحقيقية في وادي الملوك ". بدأوا العمل على أرض الواقع حيثما أراد "كارتر" مرارًا وتكرارًا أن يشرع في العمل؛ أي في وسط الوادي. أزالوا على مدار أول فصل شتاء الطبقات العليا من الحطام حتى وصلوا إلى سفح مقبرة "رمسيس". عثروا على أكواخ عمال مبنية على حجر الصوان. كانت هذه الأكواخ في وادي الملوك تعدُّ علامةً تشير إلى وجود مقبرة قريبة.

"تمثلت فكرتنا الأولى في التوسع في أعمال الإخلاء في هذا الاتجاه". لكنهم تراجعوا بدلًا من مواصلة التنقيب والحفر. قيل إن السبب في ذلك كان قطع طريق الدخول على زوار مقبرة "رمسيس السادس". كانت هذه المقبرة واحدة من أكثر المقابر المذهلة في وادي الملوك. ضمت النقوشات فيها "كتاب البوابات" و"كتاب الكهوف" و"كتاب السماء". هنا، ظهر كتاب الأرض للمرة الأولى في غرفة الدفن الكبرى. وقد تبقًى على الجدران قرابة ألف رسم جداري لأشخاص استغلوا هذا المكان باعتباره صومعة ومكانًا للنوم وغرفة طعام.

في الشتاء التالي، استأنف "كارتر" مع مجموعة أكبر من الأشخاص أعمال الحفر بالقرب من أكواخ العمال. كان من الضروري، في بادئ الأمر، توفير مكان جديد لتفريغ الحطام. إذ كان من المقرر طبقًا لخطة هذا العام أن تتم إزالة الجزء المتبقي في المثلث المذكور.

عندما وصل اللورد و"الليدي" "كارنارفون" في شهر مارس، كانت كتل الحطام العليا قد أُزيِلَت. "كنا قد فتشنا في المثلث بأكمله، فيما عدا الجزء الذي توجد فيه أكواخ العمال. ولم نعثر على أي مقبرة. ظل الأمل يراودني لكننا قررنا ألا نلمس هذا الجزء تحديدًا حتى نستأنف العمل في وقت مبكر من الخريف القادم وننتهي من عملنا هناك دون أن نقف عقبةً في سبيل الزوار".

لماذا أرادوا أن يتركوا هذا الجزء دون لمس؟ لقد أدوا عملًا شاقًا في حقيقة الأمر لإزالة كتل الحطام. لماذا كان من المفترض عدم فحص الجزء الذي كان يضم أكواخ العمال؟ ومن الأغرب أنهم لم يعودوا في الخريف

التالي إلى المكان الذي قاموا فيه بالحفر والتنقيب أمام مقبرة "رمسيس السادس". إذ انتقلوا إلى جانب الوادي الصغير الضيق حيث مقبرة "تحتمس الثالث".

كما كان من المُحيِّر أنهم مكثوا في هذا الجانب من الوادي في أثناء فصلي الشتاء التاليين اللذين تمت فيهما أعمال حفر وتنقيب رغم أنهم لم يعثروا على شيء ذي قيمة. وأنهم تساءلوا بعد هذا الوقت الضائع هل ينبغي عليهم بالأساس مواصلة عملهم في وادي الملوك. عن هذا قال "كارتر": "لقد قمنا بالحفر طوال عدة فصول من الشتاء ولم نحقق سوى نجاح ضئيل للغاية وقد ناقشنا كثيرًا سؤال هل ينبغي علينا أن نواصل عملنا أم يجدر بنا أن نبحث عن مكان أكثر ملائمة. هل كنا محقين في مواصلة أعمالنا هنا بعد هذه السنوات العقيمة؟".

إلا أن حدسه أخبره أن الأمر يستحق المجازفة والتعب طالما أن هناك بقعةً واحدةً فقط لم يفحصوها. "كما كان من الضروري تفتيش المنطقة التي تضم أكواخ العمال وأحجار الصوان عند سفح مقبرة "رمسيس السادس" تفتيشًا أدق. وقد راودني باستمرار شعورٌ ليس له مبرر منطقي أنه ربما نعثر في هذا الجانب من الوادي تحديدًا على أحد الملوك المفقودين وربما "توت عنخ آمون". على كل حال، فقد أشار تراكم الحطام هناك إلى وجود مقبرة".

ورغم ذلك، فقد فكروا بجدية في ترك الوادي. "كنا قد قمنا هناك بالحفر والتنقيب طوال ستة فصول شتاء ومنينا بخسارة فادحة هناك عامًا بعد عام. لقد قمنا بأعمال الحفر طوال شهور دون انقطاع ولم نعثر

على شيء. لا يمكن سوى لمن يقوم بأعمال التنقيب أن يعرف كم يمكن أن يكون هذا الأمر ثقيلًا على النفس بصورة تثير الشعور باليأس. كنا على وشك الاعتراف بالهزيمة واستعددنا لأن نغادر الوادي وأن نجرب حظنا في مكان آخر".

ورغم أنهم جميعًا وضعوا في اعتبارهم، وفقًا لما قاله "كارتر"، أن يتركوا الوادي، فقد ساد في أوساط الباحثين الرأي القائل إن اللورد "كارنارفون" دعا "كارتر" للقدوم إلى قلعته في "هايكلير" ليفاتحه في أنه يرغب في وقف التمويل. وأن اللورد "كارنارفون" مرَّ بضائقة مالية. قيل إن "كارتر" نجح في إقناع اللورد، الذي أزعجه الشعور بالقلق، أنه ما زال من الممكن تحقيق كشف أثري مهم.

أم أن "قصة حب" كانت السبب في رغبة اللورد "كارنارفون" في ترك الوادي، وهو ما رجحته "كريستينا المهدي" عالمة المصريات ومؤسسة ورئيسة الجمعية المصرية؟ إذ قيل إن "كارتر" و"الليدي" "إيفلين" ابنة "كارنارفون"، التي كانت ترافق والدها في رحلاته، وقعا في غرام بعضهما. وقد شعرت عائلة "كارنارفون" بالقلق والانزعاج من أن تتطور هذه العلاقة إلى علاقة جادة. رأت "كريستينا المهدي" أن "كارتر" تنبأ بوصفه شخصًا ذكيًا أن هذا السبب سيجعل الشخص، الذي كان يمده بالمال، ينهي هذا التعاون عما قريب.

لا أظن أن هذه العلاقة الغرامية كانت السبب في ترك وادي الملوك. فلو كان "كارنارفون" قد خاف على شرف ابنته، لكان باستطاعته أن يتركها

في وطنهم. ولكنه جاء، على العكس من ذلك، بصحبة "إيفلين" إلى مصر مرة أخرى أيضًا بعد اكتشاف المقبرة.

كانت "كريستينا المهدي" على يقين أن "كارتر" أراد أن يثير حماس اللورد مرة أخرى عن طريق كشف أثري. "ما الذي يمكن أن يشعل اهتمام شريك أُصيب بالفتور، بسهولة أكثر من اكتشاف رائع محتمل؟"، بهذا استطاع "كارتر" الذكي أن يضمن استمرار الدعم المالي لسنوات أخرى كثيرة.

لم يكن "كارتر" يكترث بالحب ولا بالمال. إذ كان "كارتر" يحتاج إلى ترخيص من اللورد "كارنارفون" فحسب! حتى أنه كان مستعدًا للعمل على نفقته الخاصة لو أبدى اللورد استعدادًا للاحتفاظ بحق الامتياز لفترة أطول قليلًا. لم يعد سحر "توت عنخ آمون" يؤثر على اللورد. إلا أن "كارتر" أصبح متأكدًا من العثور على المقبرة في هذا الموسم. وأبدى "كارتر" موافقته على أن يعيد حق الامتياز الخاص بالتنقيب في وادي الملوك إن لم يعثر على المقبرة.

بعد أن تقرر في "قلعة هايكلير" أن يتم السماح بالتنقيب في وادي الملوك لمدة فصل شتاء واحد آخر، لم يُهدر "كارتر" مزيدًا من الوقت. فعاد على الفور إلى مصر ووصل إلى وادي الملوك في الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1922. وصار من الممكن البدء في أعمال التنقيب في الأول من نوفمبر.

بدأ "كارتر" حشد العمال المصريين معه في العمل في موقع التنقيب أمام مقبرة "رمسيس السادس" الذي تمت إزاحة الحطام عنه منذ وقت طويل. وكانوا على وعي بالهدف الذين يسعون إليه. فاكتفوا بإزاحة

الطبقة العليا وأكواخ العمال التي لم يقترب منها أحدٌ منذ خمس سنوات. وبعد ثلاثة أيام، كان الوضع كما يلي: استقبل العمال المصريون "كارتر" بتحية مفادها أنهم عثروا أسفل كوخ العمال الأول، الذي بدأوا العمل به، على درجة سلم محفورة في الصخر. قال "كارتر" مهللًا: "لم نكن في محاولتنا الأخيرة نستخدم الفؤوس عندما قمنا باكتشاف فاق أقصى أحلامنا. بالتأكيد لم يحدث في تاريخ أعمال التنقيب بأكملها ما حدث هنا من اختصار مدة فصل شتاء كامل مخصص للتنقيب إلى فترة زمنية قصيرة عبارة عن ثلاثة أيام فحسب".

كتبت "كريستينا المهدي" قائلةً: "ما من شيء في تاريخ "توت عنخ آمون" بأكمله يماثل الطريقة التي ظهر بها للوهلة الأولى". وأضافت: "ما الذي يمكن أن يُقال كذلك عن "كارتر"؟ لقد كان في جميع الأوقات رجلًا يتمتع بذكاء يفوق المعدل الطبيعي - وربما يقول بعض الناس إنه كان عبقريًا - ويتمتع بقدرات خاصة في الحدس". رأت "المهدي" أن "كارتر" اعتبر علم الآثار في المقام الأول عملًا يشبه عمل المفتشين السريين. لذلك فحص جميع الخرائط والمخططات المتاحة عن وادي الملوك. وأردفت "المهدي" أن براهينه كانت منطقية وسديدة ولم تستند سوى على ما أجراه من بحث. ورغم ذلك فقد تساءلت "المهدي" عن مدى إمكانية وجود فرص للعثور على مقبرة بعد يومين من بدء العمل. هل كان الأمر ببساطة مجرد حظ؟

دللت "المهدي" على ذلك بقولها: "الحقيقة القاسية هي أن علم الآثار لا يفشي أسراره بسهولة هكذا لمجرد أن هناك من يتمنى ذلك. فعلم الآثار

يتطلب التفاني والصبر طوال سنوات. حتى وإن كانت هذه القصة تجعل الأمر يبدو وكأنه يمكن لأي شخص أن يأخذ مجرافًا في يده وأن يعثر على مقبرة بعد ذلك بيومين، فإن هذا الأمر غير صحيح. فهناك كثيرٌ من الأمور التي تقف خلف ما حدث".

جذبت "المهدي" الانتباه إلى الصور التي تم التقاطها في عام 1920 في موضع التنقيب. حيث ظهر في هذه الصور جدارٌ داعمٌ قيد الإنشاء وارتفاعه قرابة أربعة أمتار! قالت "المهدي": "إن قضية الجدار مثيرة للاهتمام". وأضافت: "فقد كان من شأنه أن يمنع انزلاق الرمل أمام مدخل مقبرة "رمسيس السادس" بحيث يتمكن الزوار من الدخول دون أن يصيبهم مكروه. لكن مكان بناء الجدار يستدعي التفكير! فقد تأسس قبل حتى مجرد التخمين في وجود المقبرة. فنشرات الأخبار والصور القديمة تظهر أنه عند اكتشاف المقبرة في عام 1922 كان الجدار قد تأسس بشكل يتوازى بالضبط مع جانبي مدخل المقبرة ومع السلم المؤدي إلى أسفل! وعلى وجه التحديد في الموضع الذي أتاح بعد عامين الدخول إلى المقبرة!".

ذات ليلة، وقبل أن أخلد إلى النوم بفترة وجيزة، أضاءت في عقلي فكرة ما. فنهضتُ وجلست إلى الكمبيوتر وبدأتُ في الكتابة: كان من الضروري أن تكون الأمور كافة سرًا على عائلة "عبد الرسول". فبالنسبة لهم كانت الأمور العادية عادية أكثر من اللازم، والأمور المألوفة مألوفة أكثر مما ينبغي، والأمور المنطقية منطقية أكثر مما يُتوقع. ولم يكونوا يكتفون

بالحقيقة المجردة. لم يكن أفراد عائلة "عبد الرسول" فلاحين؛ لم يكونوا مزارعين؛ إذ إنهم لم يبذروا البذور، بل جمعوا المحصول. فقد وضع ملوك قدماء المصريين البذور في التربة بالنيابة عنهم. ولم تكن سرقة هذه الثروة تكفيهم. فهم ليسوا لصوصًا.

كان من الضروري أن يبدو اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون" أمرًا تم بمحض الصدفة. وأن تكون لهذه المصادفة حكاية عجيبة؛ مثلما حدث في اكتشاف التمثال الجالس البديع الخاص بـ"منتوحوتب الأول" الذي تم العثور عليه في غرفة أسفل معبده الجنائزي بجوار المعبد الجنائزي لـ"حتشبسوت" في صخرة "الدير البحري". وقد سُمِي مدخل النفق العميق المؤدي إلى هذه الغرفة باسم "باب الحصان". فقد قيل إنه تم العثور على النفق بعد أن تعثرت هنا أقدام حصان "كارتر".

تمثلت المصادفة عند اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون" في العثور على درجة سلم محفورة في الصخر أسفل الكوخ الأول الذي كانوا قد بدأوا في العمل به. بعد ثلاثة أيام من بدء العمل بطريقة مثيرة للعجب. إلا أن الأمر الغامض تمامًا في الاكتشاف الأثري الأعظم في تاريخ وادي الملوك كان بناء السور!

عندما عثر "كارتر" وحشد العمال معه عن طريق الصدفة على أكواخ العمال في أول فصل شتاء، قاموا فيه بأعمال التنقيب، كان الأمر محفوفًا بالمخاطر. حيث بدأ الرمل الموجود أمام مقبرة "رمسيس السادس" في الانزلاق. فصار من الضروري بناء جدار داعم لكي يتمكن السياح من مواصلة الدخول إلى مقبرة "رمسيس السادس" المحببة لديهم دون التعرض لخطر. وكان هذا هو السبب في بناء الجدار. بدأ العمل فيه في عام

1920 ولم يكتمل بناؤه إلا في عام 1922. فمن أجل بناء الجدار البالغ ارتفاعه أربعة أمتار، اضطر العمال في البداية إلى الحفر لمسافة أربعة أمتار من مستوى سطح الأرض عند مقبرة "رمسيس" إلى درجة السلم الأولى في مقبرة "توت عنخ آمون" والمحفورة في الصخر. ومن هناك تم رفع السور حتى مسافة نصف متر أعلى مدخل مقبرة "رمسيس السادس". لكي يصير من الممكن فيما بعد، أي بعد اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون"، العمل في هذه المقبرة الجديدة دون التعرض لأي خطورة.

هذا ما ظهر في الصور التي التقطها "هاري بيرتون" عندما تم نقل المقتنيات الجنائزية للمقبرة إلى الخلاء. حيث يظهر فيها الجدار بحجمه الطبيعي.



12
أسفل شجرة "هوارد كارتر"

لطالما راودتني الرغبة أن أذهب إلى "قلعة كارتر"، أي إلى بيته. إلى الغرف التي كان يعمل وينام بها. فذهبنا إلى مصلحة الآثار للحصول على تصريح. تصافح "طايع" وكبير المفتشين لكنهما لم يُقبِّلا بعضهما بعضًا. قدم له "طايع" سيجارة وقال إنني زوجته وإنني مصورة وأخبره بما أريده. ابتسم لي كبير المفتشين بينما كان يرتدي زيه الرسمي وأخذ بتلذذ نفسًا من السيجارة التي قدمها له "طايع". تحدث الرجل مع "طايع" باللغة العربية دون أن يتوقف عن النظر لي بغموض. بعد ذلك قال "طايع" لي:

- لا يجوز لكِ الدخول إلى بيت "كارتر". لكن من حقك أن تدخلي البيت الذي عاش فيه في فترة عمله مفتشًا في مصلحة الآثار.

يقع المبنى خلف مكاتب شرطة الآثار؛ بيت مكون من طابق واحد ومبني من الطوب الطيني وبه حديقة زهور وشرفة فسيحة. وعلى واجهته لوحة ذهبية مكتوب عليها باللغة الإنجليزية وباللغة العربية أيضًا: **(بيت "كارتر" – تم تجديده في الفترة من يناير إلى فبراير 2006)**. زرت المنزل في مارس 2006. كان عبارة عن موقع بناء وفي كل الغرف كان يوجد أنقاض وسقالات. جلستُ في الشرفة. والتقط لي "طايع" سليل لصوص المقابر

المشتبه في سرقتهم لمقبرة "أمنحتب" صورةً وأنا أجلس في الشرفة التي جلس فيها "كارتر" أيضًا ذات يوم.

ثم ذهبنا إلى "قلعة كارتر". وددتُ أن أرى عن قرب البيت الذي شيده "كارتر" لنفسه عندما كان يعقد صفقات في فندق "وينتر بالاس" ويبيع اللوحات المائية والقطع الأثرية. يقع البيت عند تقاطع وادي الملوك والمعبد الجنائزي لـ"سيتي الأول". وبالقرب منه القبر الذي دُفِنَت فيه "فندية". في هذا البيت، وضع "كارتر" خططًا مع رئيس عماله. في هذه الغرف، انتهى "كارتر" من رسم خرائط وادي الملوك. هنا طهى أحدهم الطعام لـ"كارتر".

قدَّم "طايع" سجائر للحراس وقدموا هم لنا شايًا. احتسيناه معهم أسفل الشجرة التي علَّق "كارتر" عليها قفص عصفوره الكناري الأصفر. أسفل الشجرة التي زحف عليها ثعبان الكوبرا البالغ طوله مترين؛ أي ثعبان "الصل الفرعوني" الخاص بـ"توت عنخ آمون" وتسلل إلى القفص لكي يلتهم الطائر. شجرة القرن. شجرة لها تاريخ. التقطتُ لها صورًا فوتوغرافية.

في هذا المكان، احتسى "كارتر" أيضًا الشاي. في هذا البيت، أقام عندما كان يبحث عن مقبرة "توت عنخ آمون" وعثر عليها وأجرى فيها أعمال التنقيب. بينما كان "طايع" يتحدث مع الحراس باللغة العربية، فكرتُ في الليلة التي امتطى فيها "كارتر" ظهر أحد الحيوانات في ضوء القمر عائدًا إلى بيته، إلى هذا البيت. في الصباح حيث عثر "كارتر" على أول درجة سلم. ومع غروب الشمس، ظهر عند قاعدة الدرجة الثانية عشرة من السلم الجزء العلوي من باب مطلٍ بالأسمنت ومغلق بختم.

باب مغلق بختم؛ أي أن الأمر كان حقيقيًا بالفعل. كان من الضروري أن تكون هناك مكافأة على كل هذه السنوات من العمل الدؤوب! أظن أن شعوري الأول كان الفرح بأن ظني في الوادي لم يأتِ من فراغ. بينما أخذ "كارتر" يفحص الأختام، لاحظ وجود عارضة خشبية ثقيلة في أعلى المدخل حيثما سقطت منه بضع قطع من الأسمنت. وفي سبيل استكشاف طبيعة الممر، حفر "كارتر" أو رئيس عماله ثقبًا أسفل هذه العارضة. كان الثقب كبيرًا بما يكفي لوضع مصباح كهربائي فيه للإضاءة. أدركوا سريعًا أن الممر الموجود خلف الباب كان ممتلئًا عن آخره بالأنقاض والحصى.

"حانت اللحظة التي يمكن لخبير الحفر والتنقيب فيها أن يرتجف! فبعد سنوات من العمل العقيم إلى حدٍ ما وجدتُ نفسي وحدي - وبصرف النظر عن أن عمالي مصريون - على أعتاب كشف أثري ربما يكون عظيمًا. كل شيء، بالمعنى الحرفي لكلمة كل شيء، يمكن أن يكون خلف ذلك الممر. لقد تطلب الأمر أقصى درجة من ضبط النفس لكي لا أكسر مدخل الباب وأواصل البحث في الموقع".

أخذ "كارتر" يتفحص الكلام المكتوب على الأختام مرة أخرى بصورة عابرة باحثًا عن أي دليل، وكتب في وقتٍ لاحق: "لو كنت أعرف أن ختم "توت عنخ آمون" الواضح والجلي للغاية يقع على بعد سنتيمترات قليلة - أي ختم الملك الذي كانت غاية أمنياتي أن أعثر على مقبرته - لكنت واصلت أعمال الإخلاء ولكنت استمتعت بنومٍ أهدأ في الليل ووفرت على نفسي ثلاثة أسابيع من الشك. لكننا كنا في وقتٍ متأخر من الليل وكان الظلام قد حلَّ بالفعل".

أغلقوا الفتحة الصغيرة على مضض. وردموا الحفرة مرة أخرى لحمايتها في أثناء الليل. اختار "كارتر" أكثر الرجال الموثوق بهم من عماله من أجل أن يحرسوا الحفرة طوال الليل. "كانوا هم أنفسهم منفعلين مثلي". ومع ضوء القمر، هبط "كارتر" الوادي ممتطيًا ظهر أحد الحيوانات.

"كنت أرغب بالطبع أن أواصل أعمال الإخلاء على الفور لكي أعرف كل ما يحتويه الكشف الأثري. لكن اللورد "كارنارفون" كان لا يزال في إنجلترا، فاضطررت احترامًا له أن أؤجل كل شيء حتى إشعار آخر ولحين عودته. وهكذا أرسلتُ إليه في صباح يوم السادس من نوفمبر التلجراف التالي: "عثرتُ في الوادي على كشفٍ أثري رائع أخيرًا؛ مقبرة عظيمة بها أختام سليمة، غطيتُ كل شيء مرة أخرى لحين عودتك. خالص التهاني!".

هل ذهب "كارتر" في هذه الليلة، التي أضاءها ضوء القمر، فعلًا إلى البيت ممتطيًا ظهر حمار وربطه في الشجرة التي جلسنا أسفلها على الأرض واحتسينا الشاي؟ يطرح مزيدٌ ومزيدٌ من المتخصصين أسئلة بهذا الشأن. فمن أين عرف خبير الحفر والتنقيب أنه عثر على "كشف أثري رائع"؟ البعض مقتنع أن "كارتر" كان يعرف بالفعل أنه عثر على مقبرة الفرعون المنشودة عندما أرسل إلى اللورد " كارنارفون" التلجراف المنتشي بالنصر.

"سأحاول أن أحكي كيف سار الأمر برمته. لن يكون هذا بالأمر السهل، لأن الكشف المفاجئ جعلني في حالة من الذهول، وكانت الأشهر التالية ممتلئة بالأحداث لدرجة أنني لم أكد أجد وقتًا لأُمعِن التفكير". بهذه العبارات بدأ "كارتر" تقريره. "عندما أدوِّن الآن كل شيء، فإن هذا كله ربما يسهم في أن تتضح لي أنا نفسي الوقائع وأهميتها الكاملة".

عندما تم الكشف عن السلم، كان "كارتر" موجودًا مع عماله المصريين فقط. لا نعرف أسماءهم لكننا نعرف من كانوا رؤساء العمال. فقد وجَّه لهم "كارتر" الشكر في ختام مقدمة التقرير وأرفق به صورة أحد الخطابات.

"في الختام، أود أن أعرب لمجموعة العمال المصريين، الذين أدوا بإخلاص وضمير كل الأعمال التي كلفتهم بها، عن امتناني لخدماتهم. إن الخطاب، الذي يُظهِر بلغة إنجليزية غريبة حماسهم في أداء العمل في أثناء غيابي، يستحق أن يصير خطابًا خالدًا".

"الكرنك"، "الأقصر"، 5 أغسطس 1923

السيد "هوارد كارتر" المحترم!

أكتب لسيادتك هذا الخطاب على أمل أن تنعم بصحة جيدة وأرجو من الله القدير أن يحفظك ويعيدك لنا بسلام. أريد أن أخطر سيادتك أن المخزن رقم 15 على ما يرام والكنز على ما يرام؛ أي الكنز الموجود في المخزن الشمالي على ما يرام. الوادي والبيت على ما يرام. ويتم تنفيذ أوامرك في العمل وفقًا لما تكرمت بذكره. "الريس حسين" و"جاد حسن" و"حسن عوض" و"عبد الله أحمد" وكل خفراء البيت يودون أن يرسلوا لسيادتك أطيب تحياتهم.

أطيب تحياتي لسيادتك ولجميع أفراد عائلة اللورد وكل أصدقائكم في إنجلترا.

أتشوق لعودة سيادتك عما قريب.

خادمك المطيع للغاية

"الريس أحمد قرقر"

كان المقصود بـ"الريس حسين"، أول من ورد ذكره في الخطاب، هو الابن الأكبر للشيخ "محمد عبد الرسول" ووالد "حسين الصغير" الذي التقط له "كارتر" صورة مع قطعة حلي "توت عنخ آمون". وقد انتهى الخطاب بتوقيع "الريس قرقر" وهو رئيس العمال الأول. أما رئيس العمال الثاني لدى "كارتر" فكان "الريس حسين" الذي لطالما سانده منذ البداية وحتى النهاية. عندما كان "كارتر" يكتب في تقريره "نحن"، لم يكن يقصد بذلك دائمًا هو واللورد "كارنارفون" وإنما كان يقصد على الأرجح "الريس حسين" ومجموعة عماله المصريين.

اعترف كثيرٌ من علماء الآثار العظام أن رئيس العمال الموثوق به والخبير في عمله، والذي يُطلَق عليه "الريس"، يُعد شخصًا مهمًا جدًا لعملهم. فنجاح عملية الحفر والتنقيب يمكن أن يعتمد عليهم بدرجة كبيرة. لكن لم يكد أحدٌ تقريبًا يذكر أسماءهم، وإنما يقتصر ذكرهم على دفاتر الحسابات وكشوف المرتبات التي لا يتم نشرها أبدًا. غير أن "كارتر" قد خلَّد ذكر رؤساء عماله بصورة ملموسة عندما أعرب لهم عن شكره.

عندما أرسل "كارتر" تلجرافًا إلى اللورد "كارنارفون" من "الأقصر" بعد يوم من الكشف الأثري، كان أكثر من يثق بهم من عماله ما زالوا يحرسون المقبرة. وبدأوا بعد التلجراف في ردم الفتحة من جديد حتى صارت في مستوى سطح الأرض. "اختفت المقبرة. لا يبدو الآن أنه يوجد هنا أي مقبرة بالشكل الذي بدت عليه الأرض. كان يصعب عليَّ أنا شخصيًا في بعض الأحيان أن أقنع نفسي أن الأمر برمته لم يكن حلمًا".

لكن ما الذي حدث حقًا في يوم الرابع من نوفمبر عام 1922 هذا؟ لقد حكى "كارتر" أنه لم يحفر سوى ثقب صغير في أعلى المدخل لكي يتمكن من خلاله أن ينظر إلى الداخل وأن الثقب كان كافيًا لإدخال مصباح كهربائي. أم أن الأمر كله كان مختلفًا تمامًا؟

"في البداية، تم عمل فتحة في الزاوية العلوية للباب الأول المغلق بختم، كانت كبيرة بما يكفي للسماح بمرور شخص إلى الداخل. ثم بدأ العمل في النفق. أدى عمال الحفر عملهم على شكل سلسلة بحيث يمكن نقل الأحجار والسلال الممتلئة بالتراب نحو الخلف من عامل إلى آخر. ربما كانت سبع أو ثماني ساعات عمل كافية لكي ينتقلوا إلى الباب الثاني المغلق بختم؛ تم عمل ثقب فيه ثم عبروا إلى الداخل".

لا يصف "كارتر" عملية دخول العمال إلى الداخل في سياق هذه الليلة. فقد ورد هذا الوصف في تقريره الذي كتبه عن إخلاء الغرف الأمامية. وهكذا أخذ يصف سلوك لصوص المقابر الذين قال إنهم تسللوا ذات مرة بالفعل إلى المقبرة قبل ثلاثة آلاف عام. ولكن ماذا لو أن "كارتر" وعماله كانوا هم من حفروا بأنفسهم مثل هذا الثقب في الباب الأول المغلق بختم عند غروب الشمس؟ ثم صاروا بعد منتصف الليل بقليل عند الباب الثاني المغلق بختم، فحفروا فيه ثقبًا ودخلوا! ومع شروق الشمس خرجوا مرة أخرى؟

قطع عليَّ "طايع" حبل أفكاري وأيقظني من خيالاتي. فقد أراد أن نذهب. ودَّعنا حراس "قلعة كارتر" وشكرناهم على الشاي. ذهبنا إلى "العم محمد" في هذا المساء. جلستُ القرفصاء على رمال الصحراء بعيدًا بعض الشيء عن الرجال. وبينما أخذتُ أنظر إلى أضواء "الأقصر"، لم

أتمالك نفسي أن أفكر مرة أخرى في "كارتر". في درجة السلم الأولى، في الثقب الموجود في الزاوية العليا اليسرى. في تلك الليلة التي أنارها ضوء القمر. ما الذي حدث عندئذ حقًا؟ هل ساد صمت تام في وادي الملوك أم كان صوت المجاريف مسموعًا؟

ابتسمت شفتاي. شعرتُ أنني أحسد "كارتر" على هذه الليلة.

كان "كارتر" يعرف أنه يمكنه الاعتماد على عماله. فهم أشخاص كتومون. وكان وحده معهم في وادي الملوك. صنعوا ثقبًا في الزاوية العليا اليسرى للباب الأول المغلق بختم. وكان صوت المجاريف مسموعًا في تلك الليلة التي أضاءها ضوء القمر. وانتقلت سِلال ممتلئة بالتراب من يد رجل إلى يد رجل آخر نحو الوراء؛ أي إلى الهواء الطلق. بعد عشرة أمتار من السير وسط الأنقاض والأحجار، عثروا بالصدفة على الباب الثاني المغلق بختم. حفروا فيه ثقبًا وصاروا في مقبرة "توت عنخ آمون".

مثل هذه الطريقة في الدخول ليلًا إلى المقبرة ربما تفسر لماذا لم يُسرع "كارتر" في غمرة شعوره بالنشوة على الفور وفي المساء نفسه إلى "الأقصر" لكي يرسل تلجرافًا للورد "كارنارفون" ليخبره بـ"كشفه الرائع" وذلك بدلًا من أن يستلقي "كارتر" في الفراش في منزله أولًا مثلما ادعى. هل انتظر إلى الصباح لأن مكتب التلجراف كان مغلقًا بالفعل؟ لقد كان باستطاعته أن يرسل طوال الليل تلجرافات من فندق "وينتر بالاس"، ذلك الفندق العالمي. ألم يكن يجدر بـ"كارتر" حقًا أن يتأكد تمامًا أنها مقبرة "توت عنخ آمون" قبل أن يهنئ "كارنارفون" تلجرافيًا باكتشاف المقبرة العظيمة؟

ربما لم يكن "كارتر" على الإطلاق من دخل إلى المقبرة في تلك الليلة. كان عمر "كارتر" آنذاك قرابة الخمسين عامًا. وربما كان من الضروري عليهم أن يحفروا دهليزًا كبيرًا للغاية من أجله. هل كان "حسين" البالغ من العمر آنذاك اثني عشر عامًا هو من دخل إلى المقبرة؟ كان "حسين" صبيًا نبيهًا. إن الابن الأصغر للعم "محمد"، الذي يجلس بجواري في الرمال وينظر معي إلى أضواء "الأقصر"، يبلغ من العمر أيضًا اثني عشر عامًا. وهو صبي نبيه كذلك. أنا متأكدة أن أحدهم ربما يرسله عبر دهليز ما إلى إحدى المقابر لكي يجلب دليلًا ما. ربما دخل "حسين" إلى المقبرة وأحضر منها إلى "كارتر" بالخارج بضع قطع من الحُلي التي من السهل عليه حملها، وذلك باعتبارها دليلًا، ثم عاد ووضعها مرة أخرى بالداخل. وردم عمال "كارتر" النفق من جديد وأسرع "كارتر" في أثناء ذلك إلى "الأقصر" واستطاع أن يرسل التلجراف إلى اللورد بينما اعتراه شعور بالسعادة. إذ إنه كان متأكدًا تمامًا عند إرسال التلجراف من أنه لم يعثر على مقبرة خاوية مثلما حدث قبل ذلك عدة مرات، وإنما عثر على كشف أثري رائع؛ مقبرة بها أختام سليمة.

𓂀

قفز الصبي الصغير، الذي جلس بجواري، واقفًا وركض إلى التليفزيون عندما علا الهتاف من خلفنا: "مبروك، مبروك". إذ إن الفريق المُفضَّل لديه قد أحرز الهدف الثالث وصار على وشك الفوز. لم أتمالك نفسي أن أفكر في يوم السادس والعشرين من نوفمبر عام 1922 عندما هتف بعض الناس

في وادي الملوك أيضًا قائلين: "مبروك، مبروك". إذ كان اللورد "كارنارفون" قد وصل إلى "الأقصر". وحانت لحظة القرار. عندئذ حفر "كارتر" بأيادٍ مرتجفة فتحة صغيرة في الزاوية العليا اليسرى للباب الثاني المغلق بختم. وأجرى اختبارًا بالضوء خوفًا من وجود غازات سامة. ثم زاد من اتساع الثقب وأدخل إليه شمعة ونظر إلى الداخل.

سأله اللورد الذي كان يقف خلفه: "هل يمكنك أن ترى شيئًا؟ تناقل بعض الناس إجابات مختلفة. فقد قال "كارتر" نفسه أنه تلعثم قائلًا: "أجل، أشياء رائعة!". بينما تذكَّر آخرون، كانوا حاضرين أيضًا لهذا المشهد، أن "كارتر" صاح قائلًا: "رائع، عظيم، يا إلهي، كم هو جميل!". غمرت "كارتر" مشاعر الانبهار وعجز عن الكلام. ذهب، ذهب في كل مكان!

لقد باح وادي الملوك بأعظم أسراره! توقف الزمن لثوانٍ في جاذبية ساحرة. للحظة فحسب، ثم انطلقت هتافات الفرح. "مبروك، مبروك، مبروك، مبروك!". صفق العمال المصريون وأطلقوا طلقات نارية في السماء من بنادقهم! فردَّ عليهم حراس المقابر الفرعونية الأخرى في الوادي بإطلاق طلقات نارية في الهواء أيضًا. رقصوا في سعادة محتفلين بأعظم حدث في تاريخ الاكتشافات الأثرية في وادي الملوك. دخل الرجل الأرستقراطي "إيرل كارنارفون الخامس" سليل نبلاء إنجلترا، الذي لم يسبق له قط أن تبادل أي كلمات مع العمال المصريين، في فيض من الفرحة العارمة. فاحتضن وقبَّل كل العمال المصريين الواقفين حوله وربت على أكتافهم وصافحهم! هذا ما حكاه لي "طايع" والعم "نوبي" أحفاد الرجال الذين قبَّلهم اللورد.

ثم زاد "كارتر" من اتساع الثقب وأدخل مصباحًا كهربائيًا. حيوانات غريبة وعربات ذهبية وأثاث ذهبي وأرائك ذهبية! "من المؤكد أنه لم يسبق لأحد قط في تاريخ أعمال الحفر والتنقيب بأكملها أن رأى شيئًا رائعًا مثل الأشياء التي كشف عنها آنذاك ضوء مصباحنا الكهربائي، عندما نظرنا إليه عبر الثقب المطل على المدخل المطلي بالأسمنت".

لقد أفصحت قبلات اللورد "كارنارفون" عن ابتهاجه بالذهب أكثر مما تفصح عنه ألف كلمة. لكن "كارتر" أيضًا لم يكن في غاية الرزانة عندما كتب: "أظن أن أغلب خبراء الحفر والتنقيب يعترفون أن شعورًا بالخجل، أو حتى بالحرج، يتسلل إليهم عندما يتوغلوا في غرفة أغلقتها أيادٍ تقية بإحكام ووضعت عليها أختامًا طوال قرون كثيرة هكذا. في لحظات كهذه، يفقد الزمن معناه تمامًا".

"هذا هو الشعور الذي سيطر علينا في بادئ الأمر. سرعان ما تبعته مشاعر أخرى؛ سعادة المستكشف، وحرارة الانتظار، والنزعة الغامرة التي تنشأ عن الفضول نحو فك الختم ورفع الأغطية عن الصناديق. فكرة أو شعور الباحث بالسعادة الخالصة، أننا على وشك أن نضيف صفحة أخرى للتاريخ أو حل قضية علمية، شعور الشخص الباحث عن الكنز بالانتظار والترقب، لماذا لا نعترف بهذا؟ هل دارت في رأسي عندئذ حقًا هذه الأفكار أم أنني توهمتها فيما بعد؟ لا أدري. لقد تشتت عن الموضوع الأساسي بسبب الكشف الأثري الذي عطَّل ذاكرتي وليس بسبب رغبتي في إنهاء الأمر بشكل درامي".

كانوا قد رأوا ما يكفيهم. "قمنا بسد الثقب مرة أخرى وأغلقنا الشبكة الخشبية وتركنا عمالنا المصريين ليقوموا بالحراسة وامتطينا ظهور حميرنا وهبطنا إلى الوادي باتجاه منازلنا في صمت ونحن غارقون في أفكارنا".

لقد طرحت «ليلة الليالي» الثانية هذه كثيرًا من الألغاز أيضًا. إذ روى "كارتر" أنهم ناموا بالكاد في هذه الليلة بسبب شعورهم بالريبة. إلا أن "توماس هوفينج" مدير متحف "متروبوليان" كتب في كتابه الأكثر مبيعًا "الفرعون الذهبي توت عنخ آمون" أن الأربعة لم يناموا جيدًا لأنهم قضوا الجزء الأكبر من الليل في المقبرة وفتشوا كل غرفة فيها على حدة. وأنهم حفروا ثقبًا في الجدار بين كلا التمثالين الحارسين الأسود والذهبي، حتى أنهم تقدموا ووصلوا إلى غرفة الدفن. بينما ادَّعى "كارتر" أن الثقب، الذي بدا مغطى بالأسمنت، كان من صنع لصوص في عصر قدماء المصريين.

استند "هوفينج" في هذا إلى ما قاله عالم الكيمياء "ألفريد لوكاس" الذي كان على مدار سنوات عديدة وفي فترات غير منتظمة عضوًا في فريق عملية إنقاذ مقبرة "توت عنخ آمون" حين قال: "فيما يتعلق بالثقب الذي حفره اللصوص في غرفة التابوت، أقول إن السيد "كارتر" واللورد "كارنارفون" وابنته قد دخلوا بالتأكيد إلى غرفة الدفن قبل الافتتاح الرسمي للمقبرة"، وأضاف "لوكاس": "بعد قليل من بداية عملي مع "كارتر"، أراني الموقع المغلق الذي أُعيد وضع الختم عليه. وعندما قلت له إن هذا لا يبدو عملًا يرجع إلى عهد ماضٍ، اعترف أن هذا العمل لا يرجع إلى الماضي وأنه هو من فعل ذلك".

بصدق تام! لو كنت مكان "كارتر" لم أكن لأعود إلى المنزل ممتطية ظهر أحد الحيوانات بعد يوم كهذا. أرجو ألا يكون "كارتر" قد فعل هذا. أرجو أن إدراكه السليم ظل ملازمًا له في "ذلك اليوم الفريد، الرائع جدًا، مثلما عشته آنذاك ومثلما لن أعيشه مرة أخرى". أرجو هذا له وأتخيل أنني أراهم جميعًا أمامي.

عندما غادر الزوار وادي الملوك في تلك الليلة؛ إذ لم يعد لديهم ما ينشغلون به هناك، نهض "حسين" واقفًا وهبط درجات السلم الستة عشرة بخطوة متمهلة عبر الممر البالغ طوله عشرة أمتار وارتفاعه مترين. ثم تبعه "كارتر" واللورد وابنته "إيفلين". أنار "كالندر" المشهد بالمصباح.. بينما فك "حسين عبد الرسول" ابن الملك السري لـوادي الملوك الشيخ "محمد عبد الرسول" ختم السر الأعظم لعائلته وأجداده وأسلافه والذي ظل في طي الكتمان جيلًا بعد جيل.. وقف "حسين عبد الرسول" مع "هوارد كارتر" واللورد "كارنارفون" و"إيفلين" و"كالندر" أمام مقبرة "توت عنخ آمون". وبإيماءة من المضيف سمح "حسين" للأغراب بالدخول. وقف ابنه "حسين الصغير" بجواره مثلما يقف بجوار والده في كل مكان. ظلوا واقفين في الغرفة المقدسة في صمت، شعورًا منهم بالخجل والرهبة. تلك الغرفة التي أُغلِقَت بإحكام ووضع عليها ختمٌ قبل قرون عديدة.. أخرجت "إيفلين" الرجال من حالة التجمد، التي أصابتهم، وأومأت لـ"كالندر" بالمصباح نحو العرش الذهبي.

تلألأ في الضوء المُسلط على المسند الخلفي تمثال الملك الشاب مرتديًا اللازورد وهو يجلس على كرسي عرشه، بينما تقف الملكة أمامه وتلمس

كتفه بيدها في حنان. مشهد من حياة "توت عنخ آمون"، لم يحق لأي عين بشرية أخرى أن تراه قبل ذلك أبدًا. في لحظات كهذه، يفقد الزمن معناه. نسي "كارتر" كل سنوات خوفه وأمله. نسي اللورد "كارنارفون" أنه لورد. وأخذا ينظران فيما حولهما في ذهول ويشيران إلى هذا وذاك. قضيا ساعات عديدة في الغرفة..

ليلة الليالي ظلت حكرًا على من شاركوا فيها! كان عليهم أن يصمتوا على ما حدث فيها وقد صمتوا. لم يتحدث عنها "حسين الصغير" إلا عندما صار عمره سبعين عامًا؛ إذ قال لصحفي بريطاني إنه لقد كان هناك إصرار شديد على أن يكون هو و"حسين الكبير" أول من يدخل إلى الغرفة الأمامية مع "كارتر". وقد أعلن الشيخ "حسين" أن اللورد "كارنارفون" أخذ لنفسه من المقبرة "شيئًا صغيرًا"، أما بالنسبة لـ"كارتر" فلم يأخذ شيئًا.

لم يكن "توت عنخ آمون" ملكًا عاديًا. فقد فاق كل الخبرات والتجارب. ولذلك كانت هناك كثيرٌ من الأمور التي يجب القيام بها هناك. أولها تأمين المقبرة من السرقة. كان معهم شبكة خشبية لكنها لم تكن كافية. فلا بد من وجود بوابة من قضبان حديدية قوية لتأمين المقبرة. ولذا صار من الضروري ردم المقبرة مرة أخرى لحين تصنيع هذه البوابة.

وفي الثالث من ديسمبر عام 1922، أعاد عمال "كارتر" المصريون حفر المقبرة بالمجاريف حتى وصلوا إلى سطح الأرض. بينما عاد اللورد "كارنارفون" وابنته "إيفلين" إلى إنجلترا وعاد "كارتر" إلى القاهرة لكي

يطلب تصنيع بوابة حديدية ويشتري بعض الأشياء لنفسه. عن هذا، كتب "كارتر" قائلًا: "تركت "كالندر" لكي يحرس المقبرة في أثناء غيابي".

هل كان "كالندر" من يحرس المقبرة وحده؟ لا، بل حرسها أيضًا أكثر من كان يثق بهم "كارتر" من عماله. فقد جلسوا ليلًا ونهارًا ومعهم أسلحتهم أمام المقبرة وأشعلوا النار وصنعوا عليها الشاي ولم يسمحوا لأحد بالاقتراب من "توت عنخ آمون". بينما طهت النساء الطعام لهم في المنازل وأحضره لهم الأطفال.

لقد صاروا عندئذ أبطالًا. فقد عرف الناس في سلسلة جبال البر الغربي كلها أن الشيخ "محمد" هو من جعل "كارتر" يكتشف المقبرة. كما عرف الجميع لوقتٍ طويل أيضًا أن هذه المقبرة تمتلئ بالذهب. فصار الناس يلاحقون عمال "كارتر" المصريين بنظرات يشوبها الإعجاب ويشوبها الحسد أكثر بكثير أيضًا. فقد ظن الجميع أن هؤلاء الرجال سيحصلون على نصيبهم من ثروة "توت عنخ آمون". مثلما صدَّق الناس في القرية أيضًا مختلف الشائعات التي دارت عنهم. إذ قيل إن ثلاث طائرات هبطت في وادي الملوك ثم غادرت إلى وجهة مجهولة بعد أن تم تحميلها بالكنوز. لقد صدَّق الناس هناك تلك الشائعات مثلما يصدقون اليوم أن عائلة "عبد الرسول" قد دفنوا نصيبهم من ثروة "توت عنخ آمون" في الرمال في مكان ما في وادي الملوك أو في سلسلة جبال البر الغربي. لكنهم لا يعرفون فقط أين يمكن العثور على هذا الكنز الذهبي. فما زال أهل القرية في "القرنة" يبحثون عنه حتى اليوم. إن أفراد عائلة "عبد الرسول" وحدهم من لا يبحثون عما يعد مجرد شائعة.

كانت ليالي طويلة وأحاديث طويلة وصمتًا طويلًا. فقد حرس الرجال المقبرة على مدار ليالٍ طويلة ساخنة. لم يعودوا إلى منازلهم وإنما تناوبوا العمل والنوم في إحدى المقابر التي كانت مغلقة ولا يزورها السياح. أما في الليل، فكانوا يلفون أغطية من الصوف حول أجسادهم، فليالي الشتاء في مصر باردة.

بينما وقف أهل البلد على الجبال المحيطة بالمقبرة وهم يشهرون أسلحتهم. إذ كانوا على دراية بالتضاريس وبكل مخبأ وكل منزلق وكل طريق سري قد يتسلل منه الدخلاء.

عندما عاد "كارتر" من القاهرة ومعه الباب الحديدي وأعاد العمال حفر المقبرة بالمجاريف، اهتزت المنطقة بأسرها من فرط الإثارة بسبب المقبرة والذهب والأحجار الكريمة الموجودة فيها. بينما راود الخوف البعض من أن يشن لصوص المقابر هجمات عليهم. فكانت هناك ثلاث مجموعات مختلفة من الحراس تتناوب الحراسة وتقف على أهبة الاستعداد: الحراس الرسميين التابعين لمصلحة الآثار، وفرقة من جنود الجيش المصري، ومجموعة مختارة من طاقم عمال "كارتر".

حمى أعضاء فريق التنقيب أنفسهم من السرقات العشوائية الصغيرة بأن أدوا بأنفسهم الأعمال المتعلقة كافة بالقطع الأثرية المكتشفة. وبالإضافة إلى ذلك تم تدعيم هذا الفريق. إذ كان "كارتر" قد أرسل من القاهرة تلجرافًا إلى "ألبرت ليثجو" كبير أمناء متحف "متروبوليان" في "نيويورك" وقال فيه: "كشف ضخم، أحتاج لكل مساعدة. هل يمكنك أن ترسل لي "بيرتون"؟". فأرسل "ليثجو" على الفور تلجرافًا قال فيه:

"برجاء أن يقدم "ببرتون" وأي عامل آخر خدماتهم". وفي الوقت نفسه، أبلغ "ليثجو" قائد البعثة الاستكشافية "هربرت إي وينلوك" أن عليه أن يفعل كل ما في وسعه من أجل "هوارد كارتر". قاد "وينلوك" آنذاك أعمال حفر وتنقيب تجري لصالح متحف "متروبوليان" ولم يكن يفصل بين موقعها ووادي الملوك سوى جدار جبلي. فتولى "وينلوك" أعمال الإخلاء. ربما كان "وينلوك" التلقائي والمرح صديق "كارتر" الوحيد في كل هذه السنوات.

أثبت المصور الفوتوغرافي "هاري بيرتون"، الذي كان يتناقش مع نفسه بحماس في أثناء عمله، أنه أفضل شخص ليس في التقاط صور فوتوغرافية للتفاصيل التقنية للأشياء فحسب وإنما في تصوير روعتها أيضًا. وقد سجَّل كل الأحداث بدءًا من الكشف عن درجة السلم الأولى وحتى نقل "توت عنخ آمون" إلى المتحف في القاهرة. والأربطة الملفوفة حول تماثيل الحراس الموجودة بالحجم الطبيعي والتي كان من شأنها ربما أن تحرس الملك الفرعوني في أثناء نومه الأبدي. وتنظيف التابوت الحجري من طبقات القشور المتراكمة عليه والتي نشأت بفعل صمغ الراتنج والمراهم والقار. وفتح الضريح الرابع والأخير الذي كان يضم تابوت الملك الذهبي. بينما تم حزم القطع الأثرية المكتشفة ليتم نقلها إلى غرفة المعمل. ثم تم رفعها من المقبرة على نقالات وإحضارها إلى المعمل عن طريق العمال المصريين وبرفقتهم جنود مسلحون.

ظهر في هذه الصور الملتقطة العمال المصريون وهم يرتدون جلابيب ناصعة البياض ويلفون قماشة حول رؤوسهم ويقفون جنبًا إلى جنب مع

"كارتر"، و"كالندر"، وعلماء متحف "متروبوليان" القادمين من "نيويورك". هل كان هؤلاء هم رؤساء عمال "كارتر"؟ أظن أنني أرى الوجوه نفسها مرارًا وتكرارًا. وقد ظهروا في الصور وهم ينحنون مع "كارتر" أعلى القطع الأثرية المكتشفة ويقفون بجواره بينما يحبس هو أنفاسه ويفتح صندوق مومياء "توت عنخ آمون". وقد أزالوا الغبار بالفرشاة عندما كشف "كارتر" صندوق تابوت "توت عنخ آمون" ولفوا معه المقتنيات الثمينة بشرائط عريضة من القماش. بينما لا تذكر التعليقات الأصلية على الصور سوى قادة العمل الأوروبيين.

أنا على يقين من أن كثيرًا من المؤلفين الذين كتبوا عن عائلة "عبد الرسول" لا يعرفون أن هؤلاء العمال الأثريين المهرة ينتمون إلى ما يُعرف بعشيرة "لصوص المقابر المعروفين ذوي السمعة السيئة".

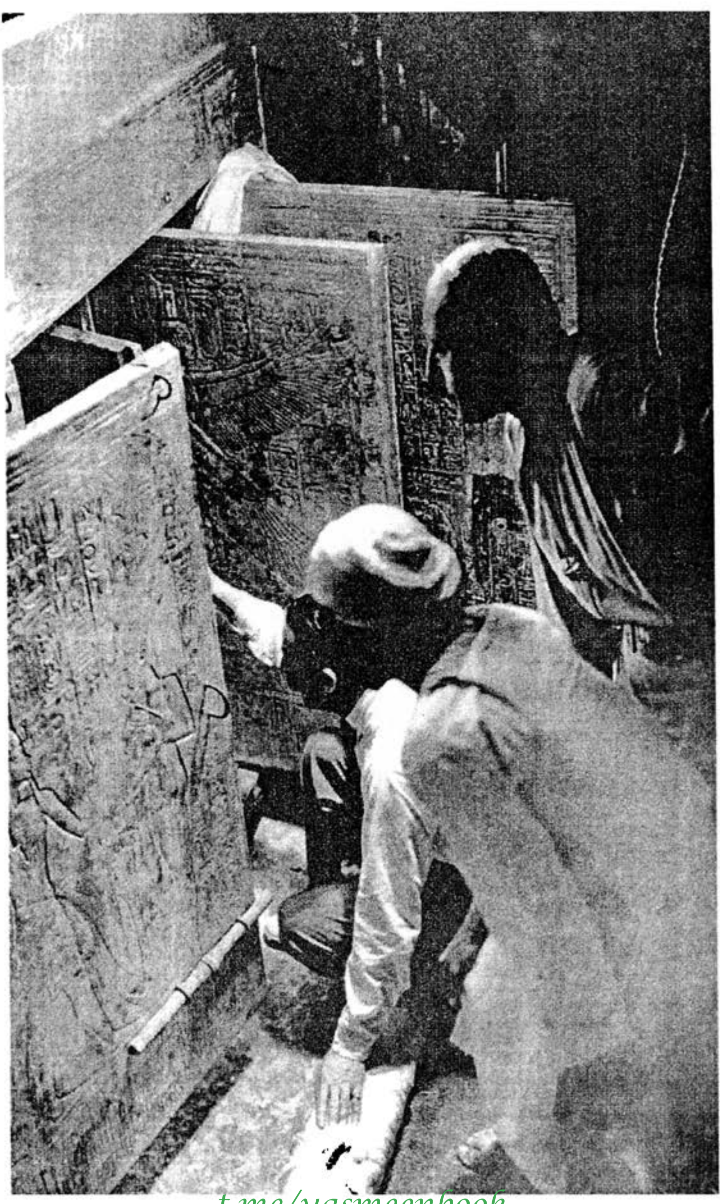
في أثناء عمليات إزالة المخلفات، ظهرت آثارٌ تخص أشخاص ممن ينهبون القبور. لقد تسللوا إلى المقبرة مرتين على الأقل. ولا بد وأن الممر بين الباب الأول والثاني المغلقين بختم كان مفتوحًا في وقت محاولة النهب الأولى. ثم تم ملؤه بعد ذلك بالأحجار والأنقاض. بينما تمت محاولة النهب الثانية عبر نفق تم حفره في الزاوية العليا اليسرى. لكن اللصوص لم يتمكنوا سوى من استخراج المقتنيات الصغيرة لأن النفق كان ضيقًا للغاية، وهو ما كتبه "كارتر" في الموضع الذي نقلته بالفعل.

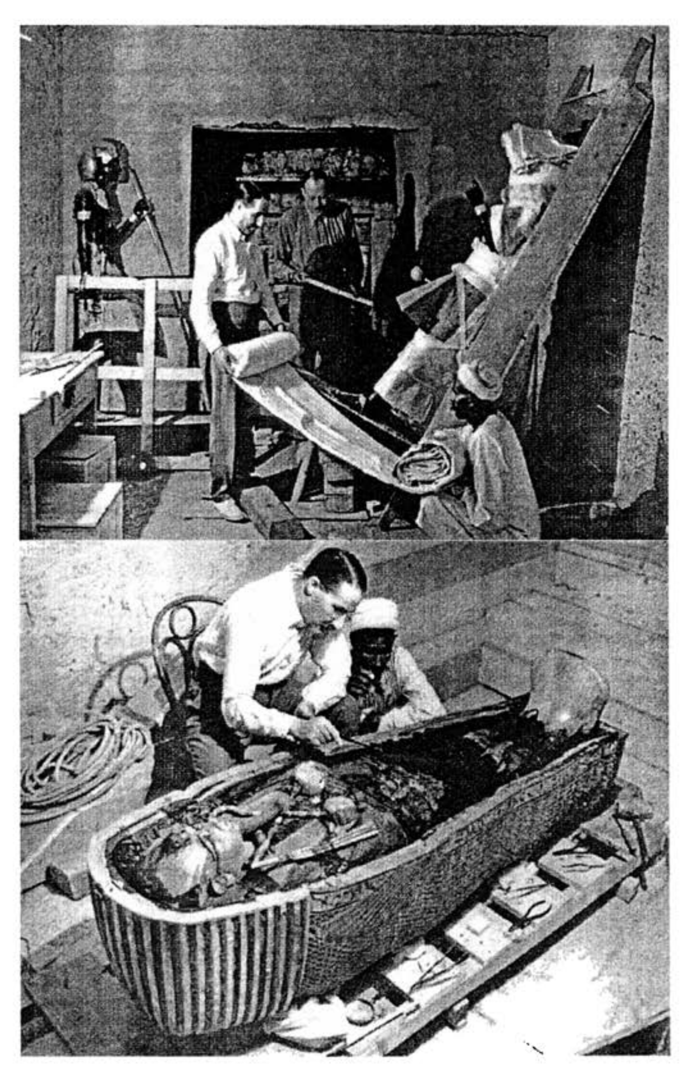
واصل "كارتر" ما كتبه قائلًا: "ربما تكون سبع أو ثماني ساعات عمل كافية لكي يصلوا إلى الباب الثاني المغلق بختم. حفروا ثقبًا ودخلوا من خلاله. ثم اندفعوا بجنون مع بداية حلول الظلام بعد أن أتموا عملية

السرقة. كانت الغنيمة المنشودة بالطبع هي الذهب. لكنه كان بالتأكيد في شكل يسمح بحمله. لا بد وأن اللصوص قد جنَّ جنونهم عندما رأوا الذهب يلمع من كل الاتجاهات على المقتنيات المطلية بالذهب التي لم يستطيعوا أن ينقلوها بعيدًا. ولم يكن هناك متسعٌ من الوقت أمامهم لكي يكشطوا الذهب من عليها". لن نعرف أبدًا ما المقتنيات الثمينة التي عثر عليها اللصوص في الصناديق وحملوها بعيدًا.

إلا أن هناك تفصيلة قد اتضحت بعد ذلك: "لكننا نعلم أنهم استولوا على أحد المقتنيات الثمينة جدًا. إذ كان أحد الصناديق الخشبية الصغيرة يضم حامل قاعدة تمثال صغير مصنوع من الخشب المطلي بالذهب ولا تزال توجد عليه آثار أقدام. لقد اختفى التمثال الصغير نفسه ولا يوجد أدنى شك أنه كان مصنوعًا من الذهب الخالص وربما كان على هيئة "آمون" ويشبه إلى حد بعيد التمثال الذهبي الصغير لـ"تحتمس الثالث" الموجود في مجموعة الآثار التي يقتنيها "كارنارفون" ". اضطررتُ إلى التفكير في "حسين الصغير" مرة أخرى الذي قيل إنه كان في الغرفة الأولى مع والده و"كارتر" واللورد "كارنارفون" فحسب. والذي قال إنه رأى اللورد "كارنارفون" يأخذ معه "شيئًا صغيرًا". لا أحد يستطيع إثبات ذلك، فلا توجد أي أدلة على ذلك.







في أثناء العمل في مقبرة توت عنخ آمون: هوارد كارتر مع مراقبيه المحليين. أحدهم هو حسين عبد الرسول، والد "حسين الصغير"، وهو رابض على السقف وتم تصويره لاحقًا وهو يرتدي حلية توت عنخ آمون الصدرية

عثروا في صندوق صغير ذي غطاء متزحزح إلى الوراء في الغرفة الأمامية على حفنة من خواتم ذهبية معقودة بقطعة قماش من الكتان وذلك بجوار جعران ذهبي ومعجون الزجاج الأزرق اللازوردي. عن هذا كتب "كارتر": "كانت هذه الخواتم بالذات صالحة لإغراء أي لص. كانت قيمتها الفعلية كبيرة. ورغم ذلك كان من السهل إخفاؤها. أي شخص زار مصر سيتذكر التصرف التالي: عندما يعطي أي شخص مالًا لأحد الفلاحين، فإنه يتناول في المعتاد أحد أطراف غطاء رأسه ويضع العملات المعدنية في إحدى الثنيات ويطويها مرتين أو ثلاث مرات لكي يثبت العملات المعدنية في مكانها وآخر شيء يربط الكيس لتأمينه. كانت الخواتم مربوطة بالطريقة نفسها بالضبط؛ الثنية نفسها في القماش وطريقة اللف نفسها من أجل إعداد كيس والعقدة الفضفاضة أيضًا. كان هذا بلا شك من صنع أحد اللصوص. لم يكن معه غطاء رأس – فالفلاحون لم يكونوا يرتدون أغطية رأس في ذلك الوقت – وإنما استخدم وشاح الملك، الذي عثر عليه في المقبرة، وثبَّت فيه الخواتم لكي يصير حملها أسهل" وتساءل "كارتر": "كيف ظلت هذه الصُرَّة الثمينة وبها الخواتم في المقبرة ولم يحملها أحدهم بعيدًا؟".

ومن جديد، تخيلتُ أنني أرى "حسين الصغير" ماثلًا أمامي. بينما وقف وحيدًا في الغرفة الأمامية وحمل المصباح الكهربائي. وأخذ يضيء ما حوله ويحبس أنفاسه. وظل يبحث عن شيء ما يستطيع أن يحمله إلى الخارج. فرأى الخواتم ولفها في قطعة قماش حتى لا تضيع. ودسَّ جسده في الدهليز الضيق ومعه الخواتم الموضوعة في العقدة. وأراها لـ"كارتر"

وهو يحبس أنفاسه. شعر "كارتر" بالسرور أن المقبرة لم تتعرض للنهب. وزحف "حسين" مرة أخرى بسرعة عبر النفق إلى المقبرة. ووضع قطعة القماش وبها الخواتم الملفوفة في عقدة في الصندوق الصغير بجوار الجعران الذهبي. وهناك تم العثور عليها.

في السابع عشر من فبراير عام 1923، تم فك آخر الأختام التي كان من شأنها أن تحرس "توت عنخ آمون". وفُتِحت الغرفة الداخلية. أنزل العمال كراسي من المدخل إلى المقبرة وحملوها إلى أسفل حيث الغرفة الأمامية التي تم إخلاؤها. انشغل "كارتر" و"كالندر" و"الريس حسين" بالباب المغلق بختم. في حين أخذ الضيوف، الذين سُمِح لهم بحضور مراسم الاحتفال، يصلون شيئًا فشيئًا وتبوؤوا مقاعدهم.

عندما اعتلى "كارتر" المنصة، كانت مشاعره مختلطة بشكلٍ غريب كما ارتجفت يداه عندما بدأ في الحديث. "كان الباب المغلق بختم أمامنا هناك وعندما فتحناه الآن، صرنا كأننا نجتاز آلاف السنين. كأننا في حضرة ملك جلس على عرش الحكم قبل ثلاثة آلاف عام".

بعد عشر دقائق تقريبًا، حفر "كارتر" ثقبًا يكفي لإدخال مصباح كهربائي. سقط ضوء المصباح على جدار من الذهب! فبدأ "كارتر" في إزالة بضعة أحجار من السور بحذر. لو تحرك أي حركة بسيطة خاطئة، ربما تسقط الأحجار الثقيلة في داخل الغرفة. بعد إزاحة بعض الأحجار القليلة تم حل سر الجدار الذهبي؛ إذ إن صندوقًا ضخمًا، كان مبنيًا لحماية

التابوت، هو ما يسد طريقهم. استطاع عندئذ الضيوف أيضًا أن يروه. "بينما أُزيل حجرٌ تلو الآخر وظهرت الناحية الذهبية الخارجية للصندوق شيئًا فشيئًا، استطعنا أن نشعر بقشعريرة الانفعال الذي اعترى المشاهدين الموجودين خلف الصندوق".

عندما صارت الفتحة كبيرة بدرجة كافية، مر خلالها "كارتر" وتبعه اللورد "كارنارفون". ثم ظهر الاثنان بعد قرابة عشرين دقيقة. لم ينطقا بكلمة وإنما رفعا أيديهما فحسب، كإشارة منهما لعجزهما عن الكلام مما رأياه. وبعد أن غادر "كارنارفون" غرفة الدفن بقليل، أدلى للصحفي الخاص به بحديث. "من الصعب عليَّ أن أصف مشاعري عند دخول غرفة الدفن، فأنا لم أكن أتوقع حتى في أحلامي أن أرى المنظر الذي ظهر أمام عيني".

عند هذا الجدار الذهبي، انتهى بحث "كارنارفون" عن الإله الذهبي. فقد نظر من خلف الضريح الذهبي في عيني إله الموت "أنوبيس"، الذي يتخذ رأسه هيئة رأس حيوان "ابن آوى"، والذي كان يحرس الخزانة. وقد وافت المنية اللورد "كارنارفون" بعد أسابيع قليلة من دخوله إلى غرفة الدفن وذلك إثر إصابته بعدوى نتيجة لدغة بعوضة مصابة. وقبل أن يتبع "كارنافون" "توت عنخ آمون" إلى العالم الآخر، قال لأحد أصدقائه: "لقد سمعت النداء. أنا مستعد".

كانت وفاة اللورد "كارنارفون" صديق "كارتر"، الذي كان يدعمه بالمال، ضربةً قويةً لـ"كارتر". ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، أخذ "كارتر" يعتمد على نفسه. وصارت المشكلات، التي مرَّ بها قبل وفاة "كارنارفون"، غير مهمة بالمقارنة بالمشكلات التي واجهها عندئذ. فقد نشأت خلافات

جادة بينه وبين الحكومة المصرية بشأن تمديد ترخيص الحفر والتنقيب، وكذلك بشأن توزيع القطع الأثرية المكتشفة. كما نشأت توترات بينه وبين "بيير لاكو" المدير الجديد لمصلحة الآثار.

كان "كارتر" يحتقر "لاكو" ويعتبره شخصًا بيروقراطيًا تافهًا وعالمًا عديم الأهمية. وقد نصح "وينلوك" "كارتر" أن يكون حذرًا في تعامله مع "لاكو". وهو ما لم يكن "كارتر" يجيده.

عقد "لاكو" العزم على أن يلغي ترخيص الحفر والتنقيب الذي كان بحوزة "هوارد كارتر" وأن يضع نهايةً لأعمال الحفر والتنقيب التي يقوم بها. ولذلك جعل حياة "كارتر" صعبة بكل السبل. فطالب بوجود مراقب رسمي بصفة دائمة. عندما كان اللورد "كارنارفون" لا يزال بقيد الحياة، لم يتمكن "لاكو" من فرض هذا الأمر؛ إذ كان "الملك فؤاد" ملك مصر صديقًا شخصيًا لـ"كارنارفون"، وذلك ضمن عدة شخصيات أخرى ذات نفوذ أيضًا ارتبطت بعلاقة صداقة مع "كارنارفون". لكن بعد وفاة "كارنارفون"، صار "كارتر" وحيدًا مع مقبرة "توت عنخ آمون" ومع عماله المصريين.

𓂀

كم وددتُ أن أذهب مرة أخرى إلى مقبرة "توت عنخ آمون". لقد مرت سنوات طويلة منذ آخر زياراتي للمقبرة. لا أعرف عدد المرات التي أعربت فيها عن هذه الرغبة بالفعل. فقد جلسنا ذات يوم مع أبناء عمومة

"طايع" مرة أخرى في حديقة مطعم "فرعون" وراودتني هذه الرغبة من جديد. قال "طايع":

- بكرة إن شاء الله.

وحكى لأبناء عمومته عما أريده. ثم أومأ بيده إيماءة ذات معنى، وفجأة أدركت لماذا استغرق الأمر وقتًا طويلًا هكذا حتى ذهبنا إلى المكان الذي رغبت في زيارته، لماذا ظللنا دائمًا في انتظار "بكرة إن شاء الله". إذ كان من الضروري ألا يبدو "طايع" أمام أبناء عمومته بمظهر الرجل الذي أطاع زوجته. الذي يفعل ما تريده. وإلا كان سيفقد ماء وجهه.

ذات مساء، عندما كنا في المنزل بمفردنا ولم يكن بإمكان أحد من أبناء العمومة أن يسمعنا، استجمعت كل ما أتمتع به من جاذبية وأعربت عن رغبتي في أن أذهب إلى مقبرة "توت عنخ آمون"، "بكرة إن شاء الله". وبالفعل ذهبنا في صباح اليوم التالي.

كان الطقس حارًا جدًا في وادي الملوك. تقدمنا ببطء، لأن "طايع" كان يُلقي التحية على الجميع. كما كان الحراس وبائعو الهدايا التذكارية يلقون عليه التحية كلما سرنا بضع خطوات. قبلات يمينًا، قبلات يسارًا، أحضان، ربتات على الكتف. كنت أضطر تارةً لمصافحتهم، وتارة أخرى يتركني "طايع" أقف وأنتظر. صار الطقس في وادي الملوك أكثر سخونة شيئًا فشيئًا. وكان "طايع" قد أحضر معه زجاجة ماء وشربتها عن آخرها.

وقفنا أخيرًا أمام مقبرة "توت عنخ آمون". كان صف المنتظرين المتعرج طويلًا، ولم يكن يشبه ثعبان الكوبرا المقدس. وقفتُ في الصف. أجلسني

"طايع" في الظل بجوار رجال الشرطة الذين يحرسون المقبرة. لكن في تلك الأثناء، فقدتُ شغفي وجلستُ بجوار "طايع". بينما كنت أجلس في الظل، أخذت أتساءل بجدية عما أبحث عنه حقًا في مقبرة "توت عنخ آمون". فالمقبرة لم تكن تضم سوى قناع إله ميت، سبق لي وأن رأيته بالفعل.

كنتُ في الواقع لا أريد سوى رؤية الجدار الموجود بين الغرفة الأمامية وغرفة التابوت. أي الجدار الذي أزاحه "كارتر" لكي ينتشل صندوق التابوت. كانت الصور مقصوصة وتحمل أرقامًا لكي يكون من السهل تركيبها مرة أخرى: صورة الملك "آي" ومعه شعار الملك وفراء الفهد الخاص بالكاهن "سم" عندما قام بالطقوس الجنائزية لـ"توت عنخ آمون" عند فتح الفم المعتاد في عملية تحنيط المتوفى، وذلك لكي يتحد مع "أوزوريس". بينما وقف "توت عنخ آمون"، وهو يرتدي باروكة وربطة رأس ومئزرًا أبيض، أمام الإلهة "نوت" إلهة السماء التي "تبث الصحة والقدرة على التنفس في فتحتي أنفه".

بدا الصندوق المطلي بالذهب مذهلًا. كان حجمه يملأ الغرفة بأكملها. ولم يكن يفصله عن الجوانب الأربعة للغرفة سوى فجوة تبلغ حوالي خمسة وستين سنتيمترًا وقد كاد أن يصل ارتفاعه إلى السقف. أخبر "كارتر" المراسلين قائلًا: "لقد اصطدمت رؤوسنا وانحشرت أصابع أيدينا"، وأضاف: "اضطررنا لأن ندخل ونخرج ملتويين ومتعرجين مثل العِرسة، وأن نعمل في أكثر الأوضاع المتعبة". لكن لم يكن بإمكان رجل بالغ أن يحمل الغطاء الذهبي للصندوق. وقد تنامى إلى علم "توماس هوفينج" أن "كارتر" "اختار صبيًا صغيرًا نبيهًا ليتسلق بمهارة على

الغطاء الذهبي ومن هناك أخذ هذا الصبي لساعات يدفع البكرات والأوتاد إلى المكان المطلوب". كنتُ على يقين تام أن هذا الصبي هو "حسين الصغير". هل وددتُ أن أذهب إلى مقبرة "توت عنخ آمون" لكي أستشعر بكل حواسي كيف تسلق "حسين الصغير" على غطاء الصندوق الذهبي متحركًا هنا وهناك طوال ساعات وجسده في وضع غير مريح بينما انحشرت أصابع "كارتر" وعماله المصريين؟

بينما اقترب العمل من لحظته الحرجة وشعر "كارتر" أنه على شفا الإصابة بإنهاك تام، أرسل "بيير لاكو" خطابًا طويلًا باسم مصلحة الآثار وأكد في خطابه على حق الدولة المصرية في الحصول على المقتنيات كافة الموجودة في المقبرة. وشنَّ أربعة من علماء الآثار ذوي الشهرة العالمية؛ وهم "جيمس برستد" و"ألان جاردنر" و"ألبرت ليثجو" و"بيري نيوبيري"، هجومًا مضادًا على "لاكو" وذلك في خطاب وضعوا فيه تصرفات مصلحة الآثار في مجملها موضع الاتهام. تفاجأ "لاكو" من هذا الموقف واعتراه شعور بالغضب. لكن أحدًا لم يعرف كيف سيكون رد فعله.

تمت دعوة الضيوف مرة أخرى ليشهدوا افتتاح التابوت الحجري. رُفع غطاء التابوت الحجري على البكرات سنتيمترًا تلو الآخر. ومن أسفله، ظهر "توت عنخ آمون" للمرة الأولى في كامل بهائه. ملأت الصورة الذهبية للفرعون الشاب التابوت الحجري بأكمله. كان وجهه مغطى بقناع من الذهب. وعلى جبهته رأس طائر العقاب وثعبان كوبرا منتصب القامة. عن هذا كتب "كارتر" قائلًا: "حاكم مجهول، لم يعد مجرد اسم مجهول،

حاكم، دخل من جديد عالم الحقيقة والتاريخ!"، وأضاف: "لقد كشفت المقبرة عن سرها!".

في صباح اليوم التالي، اصطحب "كارتر" الصحفيين لمعاينة المقبرة معاينة أولية. كان "كارتر" قد خطط في أن تذهب زوجات عماله إلى المقبرة في فترة ما بعد الظهر. إلا أن أحد تعليمات الوزارة قد وردت في تلك الأثناء: لقد أرسلت الوزارة في صباح ذلك اليوم تلجرافًا باسم الأشخاص الذين يحق لهم تفقُّد المقبرة. وأرسلت أيضًا رسالة أنه يُحظَر على جميع النساء، ممن لا يسمح لهن الدخول بشكل رسمي، أن يدخلن إلى المقبرة. كان مبرر ذلك أنه لا يصح أن تطالب نساء أجنبيات الدخول إلى المقبرة قبل أن تدخلها زوجات الوزراء المصريين. كما قيل إنه لا يجوز للنساء المسلمات المتزوجات من العمال المصريين - وفقًا لعقيدتهم - أن يدخلن إلى قبر رجل غريب عنهن! وأمر مدير مصلحة الآثار "بيير لاكو" رجال الشرطة المسلحين بالقدوم إلى المقبرة من أجل منع النساء من الدخول إليها.

شعر "كارتر" بغضب عارم. فقطع، من تلقاء نفسه، الكابل الكهربائي في المقبرة وأغلق البوابة الحديدية. وثبَّت إخطارًا في لوحة الإعلانات مفاده أن المقبرة مغلقة وأنه لا يمكن تنفيذ مزيد من الأعمال فيها. وفي تلك الأثناء، علَّق غطاء التابوت الحجري في داخل المقبرة على أحبال واهنة جدًا وجعل التابوت مهددًا بالتدمير.

وصف "توماس هوفينج" بإسهاب التطورات الدراماتيكية التي حدثت في الأسابيع التالية. فبوصفه مديرًا لمتحف "متروبوليان" للفنون في "نيويورك"، كان "هوفينج" مُطَّلعًا على جميع المستندات والمراسلات

الخاصة بالأطراف الفاعلة في هذا الأمر. بناءً على أوامر أصدرها "كارتر"، صار "توت عنخ آمون" عندئذ في حراسة عماله المصريين؛ وهم "الريس أحمد قرقر"، و"الريس حسين عبد الرسول" ورجالهما. عندئذ ذهبت إلى وادي الملوك مجموعة من الشخصيات ذائعة الصيت: "بيير لاكو" مدير مصلحة الآثار، والمحافظ، ووزير الداخلية، ورئيس القسم القانوني في وزارة الأشغال العامة. كانوا في حراسة رجال شرطة مسلحين يمتطون ظهور الخيل. وقف رجال "كارتر" أمام باب المقبرة لحمايتها. أمرهم المحافظ أن يتنحوا جانبًا. فاضطروا للاستسلام ولم يستطيعوا أن يمنعوا اقتحام المقبرة وفتحها عنوةً. حاول رجال "كارتر" حماية معمل الصور لكن تم إبعادهم، فتراجعوا إلى مقبرة تقع بالقرب من مقبرة "توت عنخ آمون". دخل بعض الرجال إلى مقبرة "توت عنخ آمون" وأنزلوا بحذر غطاء التابوت الحجري عن الحبال للحيلولة دون وقوع كارثة أثرية.

ما الذي دار في نفس "حسين عبد الرسول" في هذه الساعات؟ أستطيع أن أتخيل الأمر كما يلي: وجَّهت مصلحة الآثار البغيضة ضربةً أخرى. وهو ما يفسر لماذا تتجهم وجوه "طايع" وأعمامه وأبناء عمومته حتى اليوم عندما يرد ذكر كلمة "مصلحة الآثار". إذ كان "أوجست مارييت" قد أمر ذات مرة بتعذيب "محمد عبد الرسول" بأكثر الطرق قسوةً. كان "توت عنخ آمون" يعدُّ سرًا عائليًا يخص عائلة "عبد الرسول"؛ إذ كانوا يعتبرون مقبرة "توت عنخ آمون" إرثًا لهم. وقد باحوا بذلك الأمر إلى "كارتر". إلا أن هذه المقبرة آنذاك قد سُرقت منهم؛ أي ممن كانوا فيما سبق "لصوص

مقابر" كما سموهم وصاروا في أثناء ذلك "أكثر من يحظون بالثقة من بين العمال" عند انتشال الكنوز.

صار الصراع الدائر بشأن السيطرة على المقبرة قضية تخص الدولة وانشغلت بها الحكومات من كلا الجانبين. إذ كان "سعد زغلول" قائد حركة الاستقلال المصرية قد صار قبل فترة وجيزة رئيسًا للحكومة بإجمالي تسعين بالمائة من أصوات الناخبين. ورأى أن من واجبه أن يحافظ على كرامة الأمة ويبسط سيطرته على أعمال الحفر والتنقيب التي تجري في أراضيه. كما أصر على تحديد أيام كافية للشعب المصري من أجل زيارة الأماكن الأثرية. وسعى رئيس الوزراء البريطاني "ماكدونالد" ألا تتأجج التوترات مع مصر أكثر من ذلك، فأكد أمام البرلمان أن أعمال الحفر والتنقيب لا تخضع سوى للقوانين المصرية. وأضاف أن مشروع "كارتر" يخصه وحده وليس مشروعًا حكوميًا يخص بريطانيا العظمى.

وهكذا لم تعد لدى "كارتر" فرص لتحقيق أي نجاح. إذ تم إلغاء ترخيصه القديم الذي كان يسمح له بالحفر والتنقيب، وتم إصدار ترخيص جديد سارٍ لمدة عام فقط. وبأوامر من مصلحة الآثار، تم خفض مرتبته في العمل ليصبح مجرد «مشرف». كما تم تعيين خمسة مساعدين مصريين يرافقونه من أجل مراقبة ما يؤديه من أعمال. ففقد "كارتر" أعصابه وغادر مصر.

روى "توماس هوفينج" أن "حسين عبد الرسول" لعب دورًا رئيسيًا في الأحداث الدرامية، التي وقعت في الأسابيع التالية، وذلك بوصفه حلقة الوصل بين الأطراف المتنازعة. إذ كان ممثلًا لـ"كارتر" و"وينلوك" في

اللجنة الخاصة التي تفقدت المقبرة بعد أن غادرها "كارتر". كما كان من شأن "حسين" أن يساعد "لاكو" في جرد جميع المقتنيات. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كلَّف "وينلوك" "حسين" أن يكتب له تقريرًا يوميًا عن الأعمال التي تجرى. فأخذ "حسين" يُقدِّم تقارير مفصلة وشدَّد عليه "وينلوك" أن يذكر كل شيء في تقاريره.

لكن بعد ذلك جاء "حسين عبد الرسول" بأخبار مثيرة للقلق. كانت الأخبار شديدة الحساسية لدرجة أنه لم يود أن يدونها. فأوقظ "وينلوك" من نومه في منتصف الليل. إذ كان رجال "لاكو" قد اقتحموا قبل قليل المقبرة التي استخدمها "كارتر" مخزنًا وغرفة طعام. في بادئ الأمر، ظهر كل شيء على ما يرام. بينما أظهر التفتيش أن "كارتر" كان قد صنف ورتب جميع الأغراض الموضوعة في صناديق بصورة منظمة ودقيقة بشدة. لكنهم وجدوا في الختام صندوقًا أيضًا مكتوبًا عليه "نبيذ أحمر". ففتحه "لاكو" ووجد فيه أسفل طبقة من القطن الواقي رأسًا خشبيًا لصبي بالحجم الطبيعي على قاعدة من زهور اللوتس المقدسة. يشبه به، بلا أدنى شك، ملامح "توت عنخ آمون" ويرجع أصله إلى المقبرة. ولم يتم تسجيله في أي قائمة من قوائم جرد محتويات المقبرة.

"كلام، كلام"، حكى "حسين عبد الرسول" لـ"وينلوك"، الذي تسمَّر في مكانه، أن كثيرًا من الاضطراب ساد وسط المفتشين المصريين. لم يراود المراقبين أدنى شك في أن "كارتر" قد اختلس هذه القطعة الأثرية الثمينة المهمة في تاريخ الحضارة. وأُرسِل تلجراف على الفور لرئيس وزراء مصر. هل كان "كارتر" لص مقابر؟ هل خدع الحكومة المصرية والمجتمع الدولي

للآثار بأكمله وأراد أن يحتفظ لنفسه بالرأس؟ اتضح لـ"وينلوك" على الفور أن مثل هذا الشعور بالشك كان أمرًا كارثيًا وسط ما ساد في هذه الأسابيع من انفعالات حادة. وفي أثناء نقل الرأس إلى المتحف في القاهرة، اجتهد "وينلوك" في تقديم تفسيرات وحجج وأرسل لـ"كارتر" تلجرافات تحذيرية مشفرة، ورجاه أن يجد تبريرًا قابلًا للتصديق.

لم يقتنع أحد حقًا بتفسيرات "كارتر". إذ قال إن الرأس كان موجودًا في أنقاض المقبرة عند المدخل وأنه وُضِع جانبًا من أجل ترميمه بشكل عاجل. غير أن الجزء الأول من تقرير "كارتر" عن القطع الأثرية المكتشفة في المقبرة كان قد صدر في تلك الأثناء بالفعل ولم يشر إلى وجود الرأس. كما أن صحيفة التنقيب الرسمية المكتوبة بخط اليد لم تورد ذكر الرأس. غير أن الفضيحة لم تنتشر. ففي سبيل التستر على القضية، تحالف الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون في مواجهة الحكومة المصرية التي سعت لوضع جميع علماء الآثار الأوروبيين تحت سيطرتها.

في التاسع عشر من نوفمبر، تعرض قائد القوات البريطانية في مصر للقتل رميًا بالرصاص على أيدي قوميين في القاهرة. اتخذت بريطانيا هذا الأمر ذريعة لاحتلال البلاد عسكريًا. فاضطرت الحكومة المصرية برئاسة "سعد زغلول" إلى الاستقالة وحل محلها نظامٌ موالٍ للبريطانيين. كان رئيس الوزراء الجديد صديقًا قديمًا لـ"كارتر". فاستطاع "كارتر" أن يعود إلى مصر.

كان عماله المصريون بانتظاره. فصفقوا له وعانقوه وقبَّلوه كما جرت العادة بين الرجال في مصر. كلَّف "كارتر" رؤساء عماله باستقدام رجال

وصبية من أجل الكشف عن مدخل المقبرة مرة أخرى. وصار استمرار العمل أمرًا ممكنًا.

عندما تحدثنا ذات مرة من جديد مع العم "نوبي" عن "الريس حسين" رئيس العمال لدى "كارتر"، أراني العم "نوبي" صورة عائلية تاريخية. ظهر فيها "كارتر" ومساعده "آرثر ك. ماس" وهما يجلسان على طرف التابوت الحجري وينظران إلى قناع "توت عنخ آمون" الذهبي. بينما وقف "الريس حسين" بجوار التابوت وأدار الرافعة.

تم التقاط هذه الصورة الفوتوغرافية عندما بدأ العمل في المقبرة. وصف "كارتر" كيف اضطروا لرفع الغطاء عن التابوت الخارجي. حيث شيدوا ما يشبه الونش بالاستعانة ببكرات مركبة وبكرات وجهاز فرامل. كان فريق الحفر والتنقيب الأمين يتمتع بخبرات وفيرة في مثل هذه الإنشاءات، فتم رفع الغطاء بسهولة وصار التابوت الثاني مكشوفًا. انتهى العمل في وقت أقصر مما تخيلوا. عن هذا كتب "كارتر" قائلًا: "أغلقنا المقبرة مرة أخرى حتى جاء "هاري بيرتون" ليلتقط صوره الفوتوغرافية".

كان عليَّ أن أتخيل مشهد التقاط الصورة الفوتوغرافية كما يلي: عندما جاء "بيرتون"، تسلَّق "كارتر" و"ماس" على طرف التابوت الحجري ونظرا إلى أسفل نحو الفرعون الذهبي المتخذ شكل "أوزوريس" كأنهما لم يسبق لهما أن رأياه من قبل. كان من الضروري أن يبدو المشهد حقيقيًا. فطلب "بيرتون" من "الريس حسين" أن يقف مرة أخرى في

مكانه؛ أي عند الرافعة. فبدا هذا المشهد، الذي تم إخراجه بصورة فنية، كأنه لقطة عفوية.

إلا أن أشهر صورة لعائلة "عبد الرسول" في مقبرة "توت عنخ آمون" لم تكن قد التُقِطت بعد.

عند إخلاء الخزانة، وجد "كارتر" كثيرًا من قلادات الصدر النفيسة في صناديق خشبية كبيرة. "لقد ارتدى الملوك المصريون قلادات الصدر بأشكال عديدة لكنها تشابهت في كثيرٍ من التفاصيل. وقد تم العثور على قطع نفيسة كثيرة من قلادات الصدر هذه في الصناديق الخشبية الكبيرة. كان بعضها مكتملًا بينما فقد بعضها الآخر أجزاءً منه. ومن غير المستبعد أن بعضًا منها كان أوسمة. انظر على سبيل المثال إلى قطعة الحلي التي تُسمَى بــ"ميلاد الشمس" والتي تطغى على كل ما تم اكتشافه من هذا النوع حتى ذلك الوقت".

تتكون قطعة الحلي هذه من جعران مصنوع من حجر تركي كريم وموضوع في زورق من الذهب الخالص. وبجوار الجعران ثعابين منتصبة القامة. ومن كلا الجانبين أربعة جعرانات أصغر قليلًا وموضوعة على شريط من لآلئ ملونة. وفي الختام هناك طائرا عقاب مقدسان. بينما ضم القفل ثعباني كوبرا مقدسين ملفوفين.

كتب "كارتر" قائلًا: "إن الشكل الرمزي لقطع الحلي يحمل في طياته مغزى أخيرًا أكثر عمقًا. فمن الناحية الميثولوجية يتعين النظر إلى المجوهرات الملكية باعتبارها مقدسة. إذ يظن بعض الناس أنها تتمتع بقوى سحرية".
إن الجعران يعد شكلًا آخر لإله الشمس؛ أي على هيئة الخنفساء المعروفة –

في هذه الهيئة تغادر الشمس المولودة حديثًا "كهف الفجر" في بداية رحلتها اليومية. كرمز للشمس وتغير الحال. سمى "كارتر" قلادة الصدر هذه "ميلاد الشمس". لا بد وأن قطعة الحلي هذه قد خلَّفت فيه انطباعًا أكثر من قطع الحلي الأخرى العديدة التي تم العثور عليها. إذ إنه لم يورد ذكر أي قطعة حلي أخرى أو أطلق عليها تسمية بهذه الطريقة. ووفقًا لمعتقد المصريين القدماء فقد جعل "كارتر" بذلك قطعة الحلي خالدة.

أخرج "كارتر" قطعة حلي "ميلاد الشمس" هذه، التي قال عنها إنها كانت وشاحًا مقدسًا، من الصندوق الخشبي الكبير وحملها بعناية ذاهبًا بها إلى "حسين عبد الرسول" البالغ من العمر اثني عشر عامًا. كان "حسين" موجودًا هناك مثلما يحدث في كل يوم يؤدي فيه عملًا. كان واقفًا عند الخزانة وهو يرتدي جلبابه الأبيض ويلف قماشة حول رأسه. وضع "كارتر" التحفة الفنية حول صدر "حسين" الصغير وأغلق قفل ثعبان الكوبرا المقدس في مؤخرة العنق. تراجع بضع خطوات إلى الوراء وأخذ يتأمل الصبي. ربما دار برأسه أن "توت عنخ آمون" الصغير بدا هكذا بالتأكيد عندما ارتدى القلادة. لم يكد "حسين" يجرؤ على أن يتنفس. إذ وقف منتصب القامة في سكون تام ووقار. كانت القلادة ثقيلة الوزن. استدعى "كارتر" "هاري بيرتون" والتقط أفضل مصور فوتوغرافي في عصره صورة للصبي المصري الذي ارتدي قلادة ملك فرعوني.

اضطر "حسين" للوقوف طويلًا هكذا. إذ إن "هاري بيرتون" وضع، في بادئ الأمر، غطاءً أبيض للخلفية. ثم وضع مصابيح في كل الجوانب لكي يضيء المشهد بالصورة اللائقة. لم يكن مسموحًا أن يظهر ظل

"حسين" في الخلفية. كما كان من الضروري أن يسحب "حسين" جلبابه الأبيض والقماشة الملفوفة حول رأسه إلى أعلى لكيلا يندمجا مع القماش الأبيض الموجود في الخلفية. اضطر الصبي الصغير للدوران حتى يظهر المقطع الجانبي لوجهه وتظهر عينه اليمنى برموشها. ثم حانت أخيرًا لحظة التقاط الصورة!



حسين عبد الرسول بقلادة توت عنخ آمون الصدرية

من دون هذه الصورة، ربما لم تظهر الخلفيات الحقيقية لاكتشاف "توت عنخ آمون" أبدًا. إذ التزم "كارتر" الصمت. والتزمت عائلة "عبد الرسول" الصمت. ولم يكسر "الشيخ حسين" حاجز الصمت وسمح بالتقاط صورة فوتوغرافية له مع صورته، عندما كان صبيًا، إلا بعد سبعين عامًا أي عندما بلغ عمره اثنين وثمانين عامًا. حكى الشيخ للصحفيين الحكاية نفسها. "كانت القلادة من أجل الصورة الفوتوغرافية فقط". غير أن "حسين" حكى لنسله؛ أي لأبنائه وأحفاده، أن "كارتر" أهداه هذه القلادة. زاد الحديث عن هذه الحكاية الأسطورية وعندما صار "حسين" في الثمانين من عمره، قال للصحفيين: "كان عليَّ أن أسلم القلادة في متحف القاهرة. لم يعطوني في مقابل ذلك حتى بقشيشًا". إلا أن "حسين" ظل يتذكر "كارتر" بوضوح. "كان مستر "كارتر" رجلًا لطيفًا راقيًا. لقد بعثت عيناي الطفوليتان المندهشتان في نفسه السرور مثلما فعل الكشف الأثري الرائع الذي حققه في المقبرة الملكية التي لم يكن أحدٌ قد عبث بها حتى ذلك الوقت".

عندما اضطررت في تلك الأثناء أن أسافر إلى سويسرا، أهداني "طايع" صورة "حسين" عندما كان صبيًا. وضعت لها إطارًا وعلقتها بجوار صورة "حسين" عندما صار طاعنًا في السن وهو يحمل صورة صباه. كما كانت وثيقة زواجي البديعة المكتوبة باللغة العربية، والتي لم أستطع قراءتها، مُعلَّقة على هذا الحائط أيضًا.



لا تزال هناك مناقشات محتدمة عن "هوارد كارتر" حتى اليوم. هل كان هو في الحقيقة لص المقابر الأكبر عندما كان لصوص مقابر "القرنة" هم عماله الذين يثق بهم منذ وقت طويل بالفعل؟

عندما حصل اللورد "كارنارفون" على ترخيص التنقيب في وادي الملوك، كانت القاعدة السارية كالتالي: إذا تم العثور على مقبرة لم يسبق لأحد أن وصل إليها، فإن مقتنياتها كافة تصير مملوكة لمصر ويمكن ترك بعض المقتنيات لمن يحمل ترخيصًا بالتنقيب من أجل تغطية التكاليف التي تحملها، ويرجع ذلك الأمر لتقدير مصلحة الآثار والحكومة المصرية. أما في حالة وجود موقع أثري، تعرض من قبل للنهب، فكانت توجد قاعدة أخرى وهي أنه يتعين على المتحف أن ينتقي القطع الأثرية التي يود الاحتفاظ بها. أما بقية القطع بأكملها فتصبح من حق من عثر عليها. ومن هذا المنطلق، كان من مصلحة "كارنارفون" أن تكون مقبرة "توت عنخ آمون"، التي عثر عليها، قد تعرضت قبل ذلك للنهب. ولذلك شرح "كارتر" في عديدٍ من كتاباته أنهم لم يكونوا أول من دخل إلى مقبرة "توت عنخ آمون" وأن هناك لصوص مقابر قد سبقوهم في ذلك.

لم يقتنع الجميع بما قاله "كارتر". وقيل إنه هو نفسه من دخل إلى مقبرة "توت عنخ آمون" قبل إعلان افتتاحها الرسمي وتعمَّد أن يُخلِّف هناك فوضى وأن يسرق مجموعة من الأشياء القيِّمة، لكي لا يضطر أن يسلم الحكومة المصرية كل ما عثر عليه وفقًا لما كان منصوصًا عليه. ويرى بعض علماء الآثار وعلماء المصريات أن قطاع الطرق لم يدخلوا إلى المقبرة أبدًا. وأن ما قيل عن لصوص المقابر أسطورة عظيمة اختلقها

"هوارد كارتر". ودارت حوله شكوك أنه هو نفسه من سرق التمثال الصغير. وأنه هو من ترك قطعة القماش التي كان بها خواتم، والتي تم العثور عليها في المقبرة. حتى أن بعضهم زعم أن بصمات الأقدام، التي نسبها "كارتر" لأحد اللصوص التي ظهرت على الصندوق الكبير الموجود في الغرفة الجانبية، لم تكن بصمات أقدام أحد لصوص المقابر من عهد مضى، وإنما كانت بصمات أقدام "كارتر" نفسه.

هناك بالطبع تكهنات أيضًا أن عائلة "عبد الرسول" كانوا من أوائل لصوص المقابر هؤلاء. وأن "كارتر" فاجأهم في المقبرة فتركوا من فرط الفزع قطعة القماش الملفوف بها الخواتم. وأن "كارتر" اكتفى بعد ذلك بإعادة "قطعة قماش لصوص المقابر" هذه إلى عصرها الذي تنتمي إليه وقدمها لمصلحة الآثار المصرية بوصفها دليلًا.

بعد عشر سنوات من اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون"، كان "كارتر" قد حزم القطعة الأخيرة من الألفي قطعة أثرية وعاد إلى إنجلترا. بينما أصابه المرض ولم يستعد صحته ثانية أبدًا. سافر "كارتر" بضع مرات أيضًا إلى مصر لكنه لم يقم بعمليات حفر وتنقيب أخرى. ووافته المنية في إنجلترا في الثاني من مارس عام 1939 عن عمر ناهز خمسة وستين عامًا. كانت "الليدي" "إيفلين" من بين القلائل المشاركين في جنازته.

أوردت الصحافة، التي خاض معها "كارتر" معارك ضارية لسنوات، نعيًا له بعباراتٍ طيبة. حيث احتفى به الناس في شتى أرجاء العالم

باعتباره عالم آثار عظيمًا. في حقيقة الأمر، لم يكن زملاؤه من المتخصصين ممن عاصروه يقدرونه بدرجة كبيرة. إذ إنه لم يتلقَ تعليمًا أكاديميًا. ولكنه علَّم نفسه بنفسه. ولم يذهب إلى مدرسة أو جامعة عريقة. كتب "توماس هوفينج" بعد خمسين عامًا من اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون": "لقد وضعه افتقاره إلى أساس علمي متين في مكانة قريبة من "جيوفاني بلزوني"، ذلك الممثل البراق لعلم الآثار في بداياته والذي حظي بتقدير كبير من "كارتر". ومن هذه الناحية، ربما يكون أفضل وصف له أنه آخر وأعظم باحث عن الكنوز في مصر".

وضع السير "واليس بودج" مدير مجموعة الآثار المصرية في المتحف البريطاني يده على النقطة الحاسمة قائلًا: "كان "كارتر" مؤهلًا على أكمل وجه للعمل الذي نفَّذه لصالح اللورد "كارنارفون". إذ كانت معرفته باللغة العربية العامية ممتازة وكانت لديه خبرة كبيرة في التعامل مع السكان وتجار التحف الأثرية في البلاد. كما كان خبيرًا للغاية في الحفر والتنقيب بصورة عملية".

قُرب "كارتر" من المصريين كان كغصة في حلق علماء الآثار المعاصرين له. إذ كان "كارتر" مُطلعًا على معارف المصريين ومهاراتهم. فمنذ أن جاء "كارتر" إلى مصر في شبابه، أنجز معهم كل ما أنجزه. وكان طوال حياته متحالفًا مع عائلة "عبد الرسول". وما زالوا يعتزون بذكراه حتى اليوم. لقد جاء "كارتر" من بلدٍ بارد إلى شمس مصر الحارقة. ولم يكن بمأمن من المخاطر في هذا البلد. حيث استسلم "كارتر" لأكبر المخاطر، ولم يتمكن من الخلاص منه. أشبع عالم الموتى هذا نهم "كارتر" للحياة

وتعطشه للعلم. وبذلك وقع بين عالمين. لكنه لم ينتمِ إلى هذا العالم أو ذاك. فلم ينتمِ لا إلى علماء الآثار ولا إلى أهل "القرنة". كان يشعر بالألفة في كلا العالمين، ولكنه كان أيضًا غريبًا.

قيل إن "كارتر" أخبر معارفه المقربين منه في أيامه الأخيرة أنه يعرف أين يمكن العثور على مقبرة "الإسكندر الأكبر" لكنه أضاف أنه سيفارق الحياة دون أن يبوح بسره. لقد عرف الشيخ "محمد عبد الرسول" مثل هذا السر الذهبي. كما كان على دراية بمقبرة أخرى بها كثير من الذهب الذي قد يملأ متحفًا. قيل إنها أكبر من مقبرة "توت عنخ آمون" وأكثر ثراءً منها. عندما تُوفي الشيخ "محمد عبد الرسول" عام 1926، لم ينقل سره لأي من أبنائه. ولم يبح لأحد بأين تقع المقبرة. لقد التزم هو أيضًا الصمت.



"الشيخ علي" وكنز "سيتي الأول"

في خريف عام 1960، تصدَّر اسم عائلة "عبد الرسول" من جديد عناوين الصحافة العالمية. إذ كتبت صحيفة فرنسية: "في درجة حرارة بلغت خمس وستين، يعمل خمسة وستون عاملًا وهم عراة تمامًا على عمق مائتي متر بحثًا عن كنز الملك "سيتي الأول". ويقوم شخص عربي، يبلغ من العمر خمسين عامًا، بتقديم التمويل اللازم لذلك". كان الشخص العربي البالغ من العمر خمسين عامًا هو "الشيخ علي عبد الرسول".

قال "الشيخ علي" لأحد الزوار ذات مرة: "لقد قال جدي الأكبر لجدي: هناك، هناك بالضبط يوجد كنز "سيتي الأول". أنا أعرف هذا، ولكنني خدعت "بلزوني" لكي لا يواصل الحفر والتنقيب. إذ ظللت أقول له مرارًا وتكرارًا أنه لا يوجد شيء يمكن العثور عليه". وقد ائتمنني والدي على هذا الحديث وعلى الموقع الدقيق للكنز قبل وفاته".

يعد البحث عن كنز "سيتي الأول" دراما من أربعة فصول. إذ كان "بلزوني" أول من بدأ في الكشف عن الممر الخفي السري الموجود أسفل التابوت الحجري في داخل المقبرة، دون أن يحالفه النجاح. إلا أن نبأ الكنز المدفون ظل مثيرًا للاهتمام.

كما أصابت حمى البحث عن كنز "سيتي الأول" "جاستون ماسبيرو"، ذلك الرجل الرزين، أيضًا، ففي يناير عام 1882، أي بعد عام من

اكتشاف الخبيئة وإخلائها بسرعة البرق، ذهب "ماسبيرو" بصحبة "محمد عبد الرسول" و"إميل بروجش" مرة أخرى إلى كهف المقبرة، الذي صار خاويًا. وكتب قائلًا: "لقد فحصنا غرفة الدفن بعناية فائقة. هل كان هناك شيء ما يربط بين المكان هنا وبين الجانب الآخر من الجبل؛ أي ممر يؤدي إلى وادي الملوك أو ربما إلى مقبرة "سيتي الأول" الذي لم ينقب أي شخص في ممر مقبرته بشكل كامل أبدًا؟". لكن "ماسبيرو" لم يستطع اكتشاف أي ممر سري وبحث عنه مرافقوه دون جدوى أيضًا.

واصل "علي عبد الرسول" البحث بعد ثمانين عامًا تقريبًا. لم يفعل هذا سرًا وفي الخفاء، ولم يكن الأمر يعد سرقةً لأحد المقابر مثلما حدث في عصور سابقة. فقد طلب "الشيخ علي" ترخيصًا من مصلحة الآثار في القاهرة. وسمحوا بالفعل لمن يُدعى بأنه"ملك اللصوص" بالبحث عن الكنز. لكن كان يرافقه دائمًا موظف رفيع الشأن من مصلحة الآثار. استثمر "علي" في عملية البحث ستمائة جنيه. إذ كان على قناعة أنه يوجد في آخر النفق كنزٌ، ربما يكون أكبر من كنز "توت عنخ آمون". فقد شنَّ "سيتي الأول" كثيرًا من حروب الفتح ولا بد وأن هناك مقتنيات فخمة قد دُفِنَت معه.

بعد ستة أشهر من العمل، كشف العمال أسفل المقبرة عن نفق طوله مائة وأربعون مترًا ويؤدي إلى مسافة عميقة بطريقة منحدرة. أدَّى النفق، من المكان الذي ضمَّ ذات يوم التابوت المصنوع من المرمر والخاص بـ"سيتي الأول"، إلى الصخور. كانت سلال الأنقاض والحصى تنتقل من رجل إلى رجل آخر وتُوضَع في الهواء الطلق. لكن وقعت بعض المشكلات.

قاوم رجال "القرنة" درجات حرارة قاسية. وعانوا في الهواء الخانق من نقص الأكسجين. تم تدعيم النفق، الذي كان على وشك الانهيار، بعوارض خشبية. كما تم مد ماسورة مياه من أجل استخدامها في التبريد. وتسبَّب مكبس هواء مزعج في تحويل موقع الحفر إلى موقع بناء يعج بالضوضاء.

كان العمال قد كشفوا بالفعل عن أربعين درجة سلم عندما عثروا بطريقة غير متوقعة على كتلة حجرية تم وضعها في الحائط وتدعيمها بثلاث كتل حجرية مكعبة مثبتة في الأرض. هنا انتهى بحث "الشيخ علي" عن كنز "سيتي الأول". حيث اضطر "الشيخ علي" لأن يدفن حلمه على مسافة مائتي متر، بعد أن نفد ماله بما لم يسمح له بمواصلة الحفر. ولم تقدِّم له الحكومة دعمًا، كما توقفت مصلحة الآثار عن التصريح له بالحفر. وحتى وفاته، لم يفقد "الشيخ علي" الأمل في مواصلة الحفر يومًا ما وأن يكشف سر العائلة القديم. ونُسِبَ إليه أنه قال: "إن كنز "سيتي الأول" سيجعل عائلة "عبد الرسول" خالدة وثرية!". وقيل إن الحكومة وعدته بالحصول على ربع ما يعثر عليه من كنز.

أما المحاولة الرابعة للعثور على الكنز، فقد قام بها رجلٌ عام 1964، عندما كان طالبًا جامعيًا ملتحقًا حديثًا بجامعة "الإسكندرية"، وكان عمره آنذاك سبعة عشر عامًا. إذ ظل هذا الرجل جالسًا طيلة ليالٍ في فندق "المرسم" برفقة "الشيخ علي" وهو يرهف السمع إلى حكاياته مشدوهًا. هذا الرجل هو "زاهي حواس" الذي كتب قائلًا: "هذه العائلة تعرف أسرار الماضي. إنهم يعرفون الأماكن التي يمكن اكتشاف مقابر فيها ويتمتعون بموهبة فريدة في العثور على المداخل الخفية للمقابر المغلقة بأختام، والتي

أخفاها المصريون القدماء بحرص شديد". وأضاف أن أفراد عائلة "عبد الرسول" قد دلُّوا على سبيل المثال "فيكتور لوريت" للعثور على القطع الأثرية التي اكتشفها. عندما عاد عالم الآثار الشاب "زاهي حواس" إلى "طيبة" في عام 1973، أي في وقت حرب أكتوبر مع إسرائيل، من أجل القيام بأحد أعمال الحفر والتنقيب، جلس من جديد مع "الشيخ علي عبد الرسول". عن هذا حكى "حواس" قائلًا: "قال "الشيخ علي" إنه يشعر أنني مختلف عن باقي علماء الآثار المصريين الشباب. وإنه يعرف أنني سأكون ذات يوم عالم آثار ذا مكانة. واصطحبني إلى مقبرة "سيتي الأول" وقال لي إنني لو أصبحت ذات يوم عالم آثار عظيم الشأن، فإنه ينبغي عليَّ أن أعود إلى هنا وأستكشف ما الذي يوجد في نهاية النفق".

حدث ذلك في عام 2007. إذ كتب "زاهي حواس" قائلًا: "قررتُ أن أحقق حلم "الشيخ علي" ". وللمرة الأولى، يتم تشكيل فريق للتنقيب والحفر، أفراده جميعًا مصريون. لو كان هناك بالفعل كنز بانتظارهم، فإن هذا الكشف الأثري المثير كان سيبرهن على كفاءة أبناء الوطن. تأججت التوقعات بفعل مقاطع فيديو لما يجري من أعمال وكذلك بفعل تحقيقات صحفية ومحاضرات. هل يؤدي الممر إلى خزانة سرية، أو حتى إلى مقبرة "سيتي الأول" التي لم يتم فتحها؟ هل الممر يتمتع بقيمة روحانية فحسب؟ بدأ "زاهي حواس" في الحفر في الموضع نفسه الذي توقف فيه "الشيخ علي" عن العمل. ومن جديد، تم العثور على سلالم تؤدي إلى مسافة عميقة بالأسفل. لكن بعد مائة وأربعة وسبعين مترًا انتهى الممر بشكل مفاجئ إلى صخرة ضخمة. وانتهت عام 2010 أعمال

الحفر والتنقيب بشكلٍ رسمي وتبدد الحلم، الذي استمر طيلة قرن، في العثور على الكنز الفرعوني المختبئ. كما لم تؤدِ تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين نفسها إلى إحراز نجاح في ذلك الأمر. وقد قال لي العم "نوبي" إن "الشيخ محمد" لم يستخدم - شأنه في ذلك شأن أسلافه - وسائل تقنية في عصور سالفة في سبيل العثور على المقابر. وإنما استخدم فقط عصاه ذات النتوءات وأذنيه اللتين تتمتعان بحاسة سمع جيدة. فكان ينقر بالعصا على مجموعة الصخور ويسمع أين توجد المقابر.

𓂀

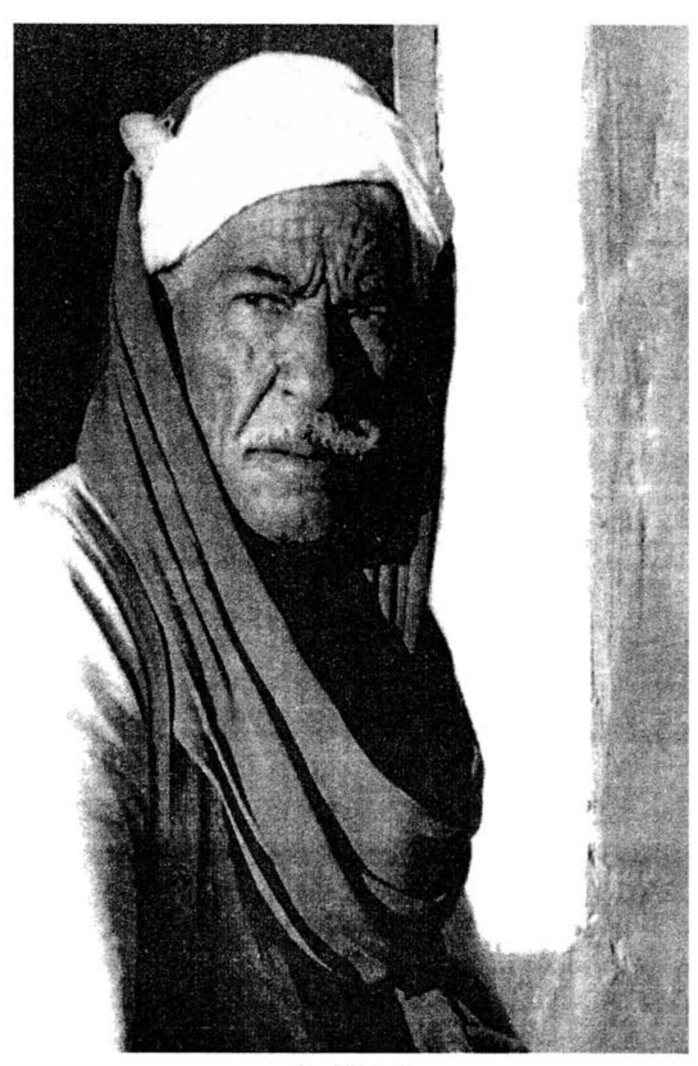
أطلق الناس على "الشيخ علي" لقب "ملك البر الغربي" أو حتى "ملك لصوص المقابر". ومثل جميع أسلافه، كان "الشيخ علي" يجمع دائمًا بين الأمرين في الوقت نفسه؛ إذ كان لص مقابر ذا هيبة، كما تمتع بشخصية احترمها الناس. وبالإضافة إلى ذلك، كان "الشيخ علي" رجلًا ثابت الجأش على نحوٍ مميز. كان فندق "المرسم" آنذاك مملوكًا له. ويلتقي علماء الآثار من المناطق المجاورة فيه في ساعات العصر الحارة مستظلين بأشجار النخيل. كما قيل إن تجار الأعمال الفنية المشهورين كانوا يعقدون في المساء صفقات كبرى في الفندق وهم يتناولون الحمام المشوي ويقضمون عظامه الصغيرة. وقد ترددت شائعات أن الفندق كان ملتقى لمافيا لصوص الأعمال الفنية.

شاع عن "الشيخ علي" أيضًا لقب «ملك اللصوص»، فقد كان ثعلبًا ماكرًا في تهريب البضائع المسروقة. ولم يكن بإمكان أي شخص أن يُثبِت

عليه شيئًا. كما أنه لم يكن بإمكان أي شخص أن يتوقف عن الافتتان بهذا الرجل العجوز المبهر. حكى العم "نوبي" و"طايع" أن جميع السائحات، لا سيما المسافرات بمفردهن، لم يستطعن مقاومة "الشيخ علي". فمن كانت تأتي دون مرافق إلى فندق "المرسم"، كان "الشيخ علي" يجلس بجوارها إلى الطاولة ويقدم لها مشروبات مجانية. وعندما يقول لأي منهن: "تعالي معي إلى الصحراء"، لم ترفض أيٌّ منهن.

لم يقدم "الشيخ علي" لضيوفه طعامًا طيبًا فحسب، وإنما قدم لهم أيضًا حكايات عن المقابر والمومياوات والذهب واللصوص. كان يحب السياح ويضايقهم ويأخذ منهم مالًا مقابل جعرانات مقلدة رديئة. فقد أدرك أن من يسعون لاقتناء الهدايا التذكارية لن يتمكنوا من مقاومة من يعتقدون أنه "لص المقابر الأخير". وقد كتب عنه أحد الصحفيين قائلًا: "من يتمكن من قراءة المعاني الكامنة خلف الوجوه، يدرك في ثنايا بشرته البُنيَّة حس المغامرة لصياد موجود في وادي الملوك ويرى في عينيه البنيتين الماكرتين أمرًا لضيوفه: اشربوا! وتناولوا الطعام! واغربوا عن وجهي!".

لدى أحفاد "الشيخ علي" مزيدٌ من الحكايات عنه. فقد عرفت من "طايع" والعم "نوبي" أنه كان رجلًا طيب القلب. إذ كان يقدِّم طعامًا مجانيًا لكل من لا يملك مالًا. لكنه كان يحب أيضًا أن يصوِّب مسدسه تجاه الضيوف غير المرغوب فيهم. "عندئذ كان بعضهم يفر هاربًا!".



علي عبد الرسول

حتى أنه هدد ذات يوم بسلاحه موظفًا رفيع الشأن في مديرية الأمن، لأن هذا الموظف رأى أنه ليس مضطرًا لدفع أي مال مثلما كان معتادًا في كثيرٍ من المطاعم. لكن "الشيخ علي" لم يكن يرتضي بذلك أبدًا. فصاح في وجهه بصوتٍ كالزئير: "لماذا لا تريد أن تدفع مالًا؟". فرد عليه الرجل: "لأنني مفتش شرطة وأستطيع أن أتناول الطعام في أي مكان مجانًا!". فأحضر "الشيخ علي" مسدسه وكذلك بندقيته الصغيرة ووقف أمام رجل الشرطة وهو يفرد قامته وزمجر قائلًا: "الكل يدفع هنا! من أي سلاح ينبغي أن أطلق عليك الرصاص؟". وقيل إن مفتش الشرطة أخرج عندئذ محفظته من جيبه على الفور.

كما أن "الشيخ علي" لم يكن يتعامل بحساسية كبيرة مع الصحفيين ومراسلي التليفزيون. فعندما كانوا يجرون معه لقاءات صحفية ويريدون أن يتفاوضوا معه في البداية على المقابل المادي، كان يطردهم على الفور. ويقول إنه، أي "الشيخ علي"، لا يتحدث عن المال! فمعه منه ما يكفيه! ويضع محفظته الممتلئة بالمال بجواره على الطاولة.

وَرَدَ ذات مرة في إحدى الصحف نبأٌ غير صحيح: "تهريب مومياوات! ملك مهربي آثار مصر يتربع على العرش! تشتبه السلطات في أن "علي عبد الرسول" المُلقَّب بـ"القيصر" قام بتهريب عدة مومياوات خارج مصر وسلَّمها لمتاحف أوروبية. أقصى عقوبة لهذه الجريمة هي قضاء ستة أشهر في السجن". كان هذا الأمر صعبًا للغاية على كرامة "علي" اللص وكبريائه. فثار وحطم أحد الكراسي.

"الشيخ علي عبد الرسول" هو حفيد "الشيخ محمد" وابن عم "الشيخ حسين" الذي شهد اكتشاف "كارتر" لمقبرة "توت عنخ آمون". رغم أن "حسين" كان حفيدًا مباشرًا لـ"الشيخ محمد" من أبيه وكان يكبر "علي" بعشرين عامًا، فإن "علي" قد فاقه في الشهرة وادَّعى لنفسه وحده شرف أن يكون الحفيد الوحيد الحقيقي للصوص المقابر. لم يحظَ "حسين" بالشهرة إلا بعد وفاة "علي" في عام 1989. وقد شعر "علي" طوال حياته بالغيرة من "حسين" لأنه سبق وأن اكتشف مع "كارتر" مقبرة "توت عنخ آمون". إلا أن "حسين" أيضًا كان يشعر بالغيرة من "علي". فعندما كان "علي" لا يزال بقيد الحياة، كان كثيرٌ من الضيوف يأتون من "الأقصر" عبر النيل لكي يتناولوا الباذنجان المخبوز في الفرن في فندق "المرسم". إذ كان كبار المسؤولين الحكوميين وأيضًا الأثرياء يأتون من فندق "وينتر بالاس" إلى هنا.

سواء جاء الضيوف من أجل الباذنجان، أو من أجل حكايات "الشيخ علي"، أو من أجل مختلف أنواع الأعمال، فإن "علي" لم يكن يوجد بنفسه أبدًا في المطبخ. بل كان أحد أفراد العائلة هو من يؤدي العمل على مدار الساعة تقريبًا. بينما يحتسي "علي" الويسكي طوال اليوم ويدخن معه عددًا لا حصر له من السجائر. ولم يكن يعود إلى المنزل إلا من أجل ممارسة الحب مع زوجته.

اليوم يمكن تناول أشهى باذنجان في المطعم المجاور لمعبد "رمسيس الأكبر"؛ أي ذلك المطعم الذي كان مملوكًا لـ"الشيخ حسين" أكبر منافس في العائلة لـ"الشيخ علي". صورة "الشيخ حسين" وقلادة "توت عنخ

آمون" حول عنقه مُعلَّقة هناك كذلك. وقد أصبح المطعم اليوم مملوكًا لأبنائه وأبناء أبنائه.

تعد وصفة إعداد الباذنجان سرًا عائليًا أيضًا. وقد باح "طايع" لي بهذا السر، إذ كان مسموحًا لي أن أشاهده وهو يعد الباذنجان. إن الباذنجان الذي يعده "طايع" أشهى إلى حد ما من الباذنجان الذي يُقدَّم في المطعم المجاور للمعبد الجنائزي. لقد حاولتُ في سويسرا أن أعد باذنجانًا مثله. ولم أنجح في ذلك. ربما كان ينقصني في ذلك رمال الصحراء والمعابد الجنائزية لقدماء المصريين وتمثالا "ممنون" والسماء الزرقاء التي لا نهاية لها والحرارة المرتفعة بشدة، أو ملايين النجوم. أو ربما لم يخبرني "طايع" بأمر مهم جدًا في الوصفة.



14
مع "طايع" عند "توت عنخ آمون"

اضطررنا للذهاب إلى القاهرة، لأن "طايع" أراد تمديد رخصة قيادته الدولية من أجل الزيارة التي خطط أن يقوم بها إلى سويسرا. وصلنا إلى القاهرة في الساعة السادسة صباحًا بعد قضاء حوالي عشر ساعات طوال الليل في عربة النوم في القطار. نقلتنا سيارة أجرة إلى الفندق الواقع في منطقة "الحسين". عندما كان "طايع" صبيًا، اعتاد الإقامة في هذا الفندق بصحبة جده "حسين" كلما ارتبط بعمل في القاهرة. يقع الفندق بالقرب من سوق "خان الخليلي"؛ أي في المنطقة التي نشأ فيها الأديب المصري الحائز على جائزة نوبل "نجيب محفوظ". لا تزال الحياة اليومية الطبيعية للقاهرة القديمة تسود في هذه الحارات الضيقة، مثلما وصفها "محفوظ" في كتبه.

تحرك "طايع" في هذا العالم كما لو أنه قد وُلِدَ هنا. لا أذكر اسم الفندق؛ كان الاسم مكتوبًا باللغة العربية فحسب. يقع الفندق في حارة جانبية ضيقة ولا يختلف عن المباني السكنية ذات الأربعة طوابق القديمة الأخرى المحيطة به. جلستُ في بهو الفندق على مقعد كبير بالٍ بعض الشيء لونه أرجواني ومصنوع من القطيفة، وانتظرتُ "طايع" الذي طلب من مكتب استقبال الفندق تذاكر طيران لنوفر على أنفسنا ليلة طويلة كنا سنقضيها في عربة النوم في طريق عودتنا إلى "الأقصر". هنا رأيتُ للمرة

الأولى نساءً تتزين أيديهن وأقدامهن بزخارف مُلوَّنة بلون الحنة، وأعينهن تتزين بلونٍ أسود، ويغطين أجسادهن بأكملها، وبصحبتهن رجال يبدون جميعًا كأنهم شيوخ.

طلب مني "طايع" أن أنتظره في غرفة الفندق، بينما كان ينهي إجراءات رخصة قيادته الدولية. لكنني كنت أريد أن أذهب معه. وددتُ ألا يفوتني المشي داخل هذه المدينة الكبرى وأن أرى وأعايش بعضًا من الحياة بداخلها؛ حتى وإن اقتصر هذا على رؤية بعض المكاتب. إلا أن "طايع" رفض أن آخذ معي الكاميرا. فوضعتها في أمانات مكتب استقبال الفندق.

بعد أن مضى سائق السيارة الأجرة عبر طرق متعرجة في الشوارع التجارية العتيقة وسط عربات اليد الخشبية والباعة الجائلين الصائحين بصوتٍ عالٍ وبائعي الصحف وسط سيارات تقف مصطفة في صفين، قاد السيارة بسرعة كبيرة في شارع مكون من ثلاث حارات في منطقة تجارية حديثة. كانت حركة المرور تتعطَّل، بل وتتوقف تمامًا بين الحين والآخر. عندئذ لم يكن الضغط المستمر الأحمق على بوق السيارة مجديًا. ففي القاهرة، يجب على جميع سائقي السيارات أن يعتادوا على أن شخصًا ما قد يخرج فجأة من طريقه، أو ينعطف، أو يطلق الفرامل، أو يستدير، أو يظل واقفًا، أو ينتظر، أو يغادر السيارة أيضًا لأي سبب من الأسباب. حدث هذا قريبًا منا، بالأحرى قريبًا جدًا منا. إذ كانت أي مساحة فارغة في الشارع سرعان ما تمتلئ؛ إما أن يقود أحدٌ فيها سيارته، أو يصفُّها بها.

وفي هذه الاختناقات المرورية، رأيتها واقفةً على جانب الطريق عند محطة الحافلات. مجرد خيال جاذب للانتباه قاتم، فستان أسود طويل

وعليه غطاء أسود من الرأس إلى القدمين. ومن فوق الغطاء، ظهرت نظارة شمسية موضوعة على العينين. وفي اليد، حافظة مستندات جلدية كبيرة وسوداء وممتلئة. أما على الكتف، كان هناك جهاز "لاب توب" في حافظة جلدية سوداء أيضًا. وقفتْ هناك ببساطة تنتظر الحافلة. لم تكن كاميراتي معي.

نظرتُ إليها. أظن أنها رأتني أيضًا عبر الغطاء ونظارة الشمس. عندما تمكنًا من مواصلة السير بالسيارة، التفتُ إلى الوراء ونظرتُ عبر الزجاج الخلفي للسيارة. ربما كان مجرد شعور راودني أنها تابعتني بنظراتها. فقد التفتتْ النظارة الشمسية باتجاهي كذلك. هنا التقى عالمان. بل أكثر من ذلك؛ إذ كانت في هذه اللحظة بالنسبة لي تجسيدًا للماضي والمستقبل. كما مثلّت الحاضر بأكمله.

ثم بدأ ماراثون الركض بين الإدارات الحكومية. صعدنا سلالم ونزلنا سلالم وأخذنا ننتقل بسيارة الأجرة من مصلحة لأخرى. وفي كل مكتب، كان أول ما يفعله "طايع" هو أن يدس ورقة نقدية أسفل الأوراق الموجودة على المكتب في سرية وبطريقة غير جاذبة للأنظار. لم ألحظ هذا في بادئ الأمر. ثم انتبهت له فبادرت "طايع" بالحديث عنه.

ردَّ "طايع" قائلًا:

- هكذا تسير كل الأمور بصورة أسرع.

وأضاف أنه لو لم يفعل ذلك فسوف يستغرق الأمر أيامًا حتى يجمع الأوراق الرسمية والأختام اللازمة كافة لإصدار رخصة القيادة. كانت هناك

أعقاب سجائر وأوراق ملقاة لشطائر همبرجر في جميع المباني الإدارية التي رأيت مثلها في "الأقصر" أيضًا عندما حصلنا على مستندات إقامتي في مصر. انبعث صوت طنين عالٍ من أجهزة التكييف المثبتة في الحوائط في كل غرفة، والتي قللت من حدة البيروقراطية الباردة وجعلت درجات الحرارة تماثل درجات الحرارة في شتاء سويسرا. بينما جلس خلف المكاتب الضخمة رجال ذوو شأن وأخذوا يتفحصوننا بنظراتٍ متجهمة. انتقلت نظراتهم من عينيَّ الزرقاوين إلى أسفل حيث حذائي، وعادت للنظر مرة أخرى إلى عينيَّ الزرقاوين. تمنيتُ حينها لو كان جسدي مغطى بأكمله مثل تلك السيدة التي وقفتْ عند محطة الحافلات.

وتمنيتُ شيئًا آخر؛ فستانًا نسائيًا طويلًا مطرزًا من سوق "خان الخليلي" الذي كان قبل قرن من الزمان واحدًا من أشهر أسواق الرقيق. ورغم أن السوق كان قريبًا من الفندق، فقد طلب "طايع" سيارة أجرة. وفي السوق، نزلنا من السيارة في حارة جانبية ضيقة بجوار باب متجر صغير ذكَّرني بشكل أو آخر بقاعة إحدى المكتبات. لكن المتجر لم يكن مكدسًا عن آخره بكتب وإنما بفساتين نسائية من أعلاه إلى أسفله. تسلَّق البائع على سلم وبحث عن فستان من أجلي كما لو أنه يبحث عن كتاب.

هبط البائع السلم ومعه فستان رائع أسود اللون ومطرز من الصدر وحتى القدمين بتطريز بدوي. ثم أعطاه لـ"طايع"، وناوله "طايع" لي. أمسكت به ووضعته على جسدي وتراجع الرجلان وأخذا يبديان رأيهما في الفستان وتناقشا باللغة العربية بحميمية عنه. ثم أخذ الرجل يصعد مرارًا وتكرارًا على السلم وواصل البحث. لم تبدُ ثمَّة نهاية لهذه الطقوس. ولم

تكن هناك غرفة تبديل ملابس أو مرآة. كم وددتُ أن أرى كيف بدا شكلي في كل هذه الفساتين، فقد ظللت واقفةً وهناك رجلان يختاران فستانًا لي. انهمك الرجلان بشدة في هذه المهمة ونسيا وجودي تمامًا. لم ينشغلا سوى بهذه التنانير الطويلة.

في تلك الأثناء، أحضرت فتاة شابة الشاي في أكواب صغيرة موضوعة على صينية فضية. ابتسمنا لبعضنا وقلت لها باللغة العربية وبصوتٍ منخفض:

- شكرًا.

همسوا بشيءٍ ما باللغة العربية لكنني لم أفهمه. وددتُ لو أهبط بجسدي في أحد المقاعد الوثيرة الكبيرة من حولي. غير أنني احتسيت الشاي الحلو واقفةً، إذ كنت مضطرة مرارًا وتكرارًا لأن أقيس أحد الفساتين.

نزل الرجل عن السلم وبصحبته فستان مطرز باللون الذهبي. أعجب الفستان "طايع" من النظرة الأولى. فشعرتُ أخيرًا بالارتياح. لكن العملية استمرت بعد ذلك أيضًا. فقد أراد "طايع" أن يشتري فستانًا ثانيًا. لكنه بذل على الأقل مجهودًا هذه المرة في انتقاء الفستان بنفسه. فقد أصر "طايع" أن يحضر لي فستانًا معه عندما يسافر إلى سويسرا للمرة الأولى واضطر لقضاء الليلة السابقة على السفر في القاهرة. حينها، جعل "طايع" عامل الفندق يُحضِر الفستان له من أقرب متجر. لم يرَ "طايع" الفستان إلا عندما أخرجته من غلافه ولم يكن لون الفستان واحدًا من الألوان المفضلة لي ولم يكن مقاسي كذلك. في بعض الأحيان، ليس من السهل على الإطلاق أن يعتاد الإنسان على مثل تلك الأمور.

في صباح اليوم التالي، انتظرنا أربعة من أبناء عمومة "طايع" في الفندق والذين ارتبطوا ببعض الأعمال في القاهرة أيضًا. كنت أعرف ثلاثة منهم من "القرنة" بينما أتى الرابع من "الإسكندرية". اتفقنا على تناول العشاء معًا. ارتديتُ أحد فساتيني الجديدة وأصر "طايع" للمرة الأولى على أن أرتدي غطاء رأس، ربما لأننا كنا في أحد الأحياء الشعبية في القاهرة. وارتدى الرجال، ومن بينهم "طايع"، جلابيب بيضاء. استقللنا سيارتي الأجرة اللتين كانتا بانتظارنا بالفعل. جلس ابن عم "طايع" القادم من "الإسكندرية" في الكرسي الأمامي للسيارة التي كنا فيها، وجلس "طايع" بجواري. وهكذا مضينا وسط الحارات المتعرجة في الليل. لم أكن لأرغب أبدًا في أن أسير على الأقدام في هذا الزحام وحدي. ففي مداخل المنازل وفي زوايا الشوارع، وقف أو جلس رجالٌ أثاروا شعوري بالخوف، لأنني لم أفهم ماذا يفعلون هناك.

استقللنا مصعدًا أصدر صوت طقطقة، لكي نصعد إلى مطعم في شرفة سطح أحد المباني. امتدت السماء المتلألئة بالنجوم من فوقنا، أما من أسفلنا فقد سطعت أضواء القاهرة. وفي إحدى زوايا الشرفة، وُضِعَت الشيشة بجوار نار مدفأة الفحم. كان الجرسونات يعرفون "طايع" وأبناء عمومته، إذ إنها ليست المرة الأولى التي يزورون فيها المطعم. كان هناك ملهى ليلي في قبو هذا المنزل. بالطبع لم يذهب أحدٌ منهم إلى هناك من قبل أبدًا. لا، إذ كانوا يأتون إلى هنا لتناول الطعام فقط عندما يأتون إلى القاهرة. وجبات الطعام هنا رائعة. ومن بينها حمام محشو ويخني

باللحم الضأن؛ وهي الأطباق المصرية التي أُفضِّلها. كان الطقس في الليل شديد الحرارة لأننا كنا في ذروة الصيف.

بعد تناول الطعام، استمتع الرجال بتدخين الشيشة. بينما كان من نصيبي مشروبٌ غريبٌ. وقفتُ عند حافة الشرفة أحمل الكوب في يدي. ونظرتُ إلى أسفل نحو الحارات التي شهدت فيما سبق تجارة الأفيون والرقيق، أي عندما كان الشيوخ يستبدلون الذهب بالجِمال والخيول ويشترون لأبنائهم الذكور فتيات جميلات، وفساتين لنسائهم المنتظرات في المنزل. القاهرة القديمة... كان أعيان كل البلاد يصلون إلى هنا، قادمين من "الإسكندرية"، في القطار بينما تنبعث أصوات النفخ والشخير والصفير. ثم يحمل الخدم الحقائب وصناديق السفر إلى العربات التي تجرُّها الخيول وإلى الفنادق والمنازل الراقية.

وددتُ في صباح اليوم التالي أن أذهب إلى المتحف. إذ كان من الضروري أن أشاهد كنوز "توت عنخ آمون" التي كانت ملكًا لعائلة "عبد الرسول" ذات يوم. كان مسموحًا لي هذه المرة أن أحمل معي معدات الكاميرا الخاصة بي. أعطى سائق السيارة الأجرة رقم تليفونه المحمول لـ"طايع" لكي نتمكن من الاتصال به عندما نحتاجه مرة أخرى. لكنني اضطررت لتسليم كاميراتي في نقطة التفتيش الأمنية عند المدخل. فالتصوير ممنوع في المتحف.

فجأة، خرج ضابطان يرتديان ملابس مدنية من الكشك الصغير المخصص لحجز التذاكر، وركضا وهما يضعان في الحزام مسدسًا مجهزًا للاستخدام. اضطر "طايع" لتسليم بطاقة هويته واضطررت أنا لتسليم

جواز سفري. ربما أراد الضابطان فقط أن يظهرا بمظهر الأشخاص ذوي الأهمية، ولكن ربما كان الأمر أكبر من ذلك أيضًا. فـ"طايع" هو أحد أفراد عائلة "عبد الرسول". دخَّن "طايع" سيجارة تلو الأخرى في عصبية بينما أخذتُ أنا أنظر إلى أعلى نحو تمثال "مارييت" وهو السيد صاحب الكلمة النافذة في هذا المتحف. ظهر "مارييت" في التمثال وهو يقف مُسيطِرًا كأنه لم يدفن بعد خصومته القديمة مع عائلة "عبد الرسول".

رأيتُ عبر شباك الكشك الصغير المخصص لحجز التذاكر كيف حدَّق كلا الضابطين بجدية تامة وتجهم في جهاز كمبيوتر ثم حدقا فينا، أنا و"طايع"، ثم حدقا من جديد في شاشة الكمبيوتر. استغرق هذا الأمر وقتًا طويلًا. وفي النهاية، عاد أحد الرجلين اللذين أرادا أن يُظهرا أهميتهما، وهو يحمل أوراقنا الرسمية. أعطى الرجل "طايع" مستندات إثبات الهوية بإيماءة قوية من يده اليسرى ودون أن ينظر إلينا مجرد نظرة. حينها صار من المسموح لنا أن نمر بتمثال "أوجست فرديناند فرانسوا مارييت". كنت على يقين أننا أفلتنا بأعجوبة من إلقاء القبض علينا. شعرتُ في هذا المتحف البغيض وبكل ما فيه من تاريخ أنني واحدة من أفراد عائلة "عبد الرسول"، إذ كنا في مكان به أعداء لنا.

مضى "طايع" أمامي وصعد السلالم بخطواتٍ سريعة ووصل إلى الطابق العلوي حيث كنوز "توت عنخ آمون". لم يكن بإمكان أحد أن يتحدث معه أكثر من ذلك. لم يسبق لي أن رأيته في هذه الحالة أبدًا. فقد دخل بخطوات حازمة سريعة ودون أن ينطق بكلمة إلى الغرفة المكيفة التي عُرِضَ فيها القناع الذهبي لـ"توت عنخ آمون" وكذلك تابوته

الحجري في دولاب عرض زجاجي. تمكنت بصعوبة من اللحاق بـ"طايع"، إذ إنه أخذ يركض بسرعة كبيرة، ومرَّ بتمثالي الحارسين الموجودين بالحجم الطبيعي، واللذين حرسا فيما مضى غرفة الدفن. كما مرَّ بصندوق الكنز مع إله الموت "أنوبيس" وكرسي العرش المطلي بالذهب مع صورة الملك الشاب وهو يرتدي اللازورد وأمامه تقف الملكة وهي تلمس كتفه بإيماءة معبرة عن الحب. وددتُ من أعماق قلبي أن أرى قلادة "ميلاد الشمس" التي علَّقها "هوارد كارتر" على صدر "حسين الصغير" من أجل التقاط الصورة الفوتوغرافية التي ظهر فيها "حسين" كأنه إله شاب. ووددتُ أيضًا أن أرى كنوز الخبيئة التي سلَّمها "محمد عبد الرسول" آنذاك طواعيةً لمصلحة الآثار.

لكن "طايع" هبط السلالم من جديد بالسرعة نفسها وأنا من خلفه. وقبل أن يتمكن "طايع" من أن يسرع الخطى أكثر بعد هبوط درجة السلم الأخيرة، لحقتُ به وسرنا في القاعة الوسطى الطويلة بجوار بعضنا، ويمكن القول بخطى منتظمة. مررنا بالتماثيل الضخمة لـ"أمنحتب الثالث" الذي لم يعد يظهر في معبده الجنائزي سوى تمثالي "ممنون" اللذين يبدوان مثيرين للإعجاب ليلًا أكثر من حالهما نهارًا. ومررنا بجميع التماثيل الموجودة على مدار سنوات طويلة، والتي تخص ملوك قدماء المصريين الذين تمتعوا بالنفوذ ذات يوم. التمثال الوحيد الذي لم أره هو التمثال الجالس للملك "منتوحوتب الأول" ذي البشرة الداكنة والتاج الأحمر، والذي اكتشفه "كارتر" في غرفة في الدير البحري عندما قيل إن أقدام حصانه قد تعثرت هناك.

خرج "طايع" مباشرةً من باب الخروج إلى الشارع. كان عليَّ أيضًا أن أستعيد كاميراتي. عندما خرجتُ، كانت سيارة الأجرة بانتظارنا بالفعل. فقد انتظر سائقها في شارع جانبي وتقدم على الفور إلى هنا عندما استدعاه "طايع" بتليفونه المحمول. لم يعد "طايع" يريد سوى شيء واحد؛ ألا وهو الرحيل من هنا. وبمجرد أن دخل إلى السيارة، اتصل بابن عمه في "القرنة" وأطلق العنان لشعوره المكتوم بالغضب والسخط من ضابطي المتحف.

ذهبنا إلى المطار في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي. بينما كانت المدينة الكبيرة لا تزال نائمة. وسرعان ما ستفيق المدينة على يوم جديد به أبواق سيارات وتدافع وحياة نابضة. بينما نحلق نحن بالطائرة بالفعل بامتداد نهر النيل متجهين إلى "الأقصر".

كان أعمام "طايع" وأبناء عمومته بانتظارنا في المنزل. دارت ثرثرة كثيرة بسبب الواقعة التي حدثت في المتحف. إذ كان ضابطا الشرطة قد تعرفا على "طايع" وعرفا بدقة من هو وبحثا عن سبب يمكنهما من وضعه في السجن، حتى ولو لليلة واحدة. مثلما سبق وأن ألقى ضباط الشرطة القبض على العم "نوبي" في القاهرة ولم يطلقا سراحه إلا في صباح اليوم التالي. وقيل حينها إنهم اختلط عليهم الأمر وظنوا أنه شخص آخر. تداخلت أصوات جميع أفراد عائلة "عبد الرسول" في أثناء حديثهم بينما أخذوا يرفعون أذرعهم ويهزون رؤوسهم. وجلستُ أنا بجوارهم دون أن أفهم من جديد للأسف كلمة واحدة.



كان "طايع" قد أعد مفاجأة لي من أجل ذلك المساء. وقال:

- سوف تمتد هذه الليلة لوقتٍ متأخر.

كان علينا أن ننام قبل ذلك. لكنني لم أستطع أن أنام، على العكس من "طايع". عندما أفاق "طايع" من نومه أخيرًا، كانت الساعة تقريبًا التاسعة. أعددتُ له قهوةً وأحضرتُ له شوكولاتة سويسرية من الثلاجة. ثم سألته عن المفاجأة. فقد كنتُ متشوقة، ولا بد وأنها شيء غير عادي. وددتُ أن أعرف ذلك. اكتفى "طايع" بأن يقول لي:

- سترين.

أقبل "طايع" نحوي وأعطاني جلبابًا أسود من الكتان. رأيت في عينيه أن هذا الجلباب له أهمية خاصة.

أوضح لي "طايع" الأمر بقوله:

- هذا جلباب عائلي لا يُرتدى إلا في مناسبات خاصة.

كان هذا الجلباب مملوكًا فيما سبق لـ"حسين"، الذي كان موجودًا عند اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون"، وأوصى "حسين" أن يرثه حفيده المفضل "طايع". وأهدى "طايع" لي هذا الجلباب العتيق.

كان مقاس الجلباب أكبر من مقاسي بكثير. وأكمامه طويلة جدًا. ذهبنا إلى الخياط لكي يضبط مقاسه. عندما وصلنا إليه، كان على وشك أن يغلق متجره، لكنه رجع عن ذلك. قصَّ الأكمام على ماكينة الخياطة القديمة الخاصة به، التي أصدرت صوت صلصلة. وقصَّ طول الجلباب وفقًا

لمقاسي، وخيَّط طرفًا جديدًا في الجلباب من أسفل. ثم ذهبنا إلى المطعم المجاور للمعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر". أخذ أبناء عمومة "طايع" يصلون شيئًا فشيئًا وهم يستقلون دراجاتهم البخارية. شعرتُ أنهم متشوقون لما سيحدث. كان الجميع يرتدون جلابيب وكنت أنا أرتدي جلباب العائلة. شعروا بالسعادة عندما رأوا الجلباب وأخذوا يهنئونني ويعانقونني. وقرابة الساعة الحادية عشرة، جاء إلى المطعم آخر الضيوف. ازداد شعوري بالإثارة.

قال "طايع" فجأة:

- تعالي.

ذهبنا إلى الناحية الأخرى حيث المعبد الجنائزي المضيء. وعند البوابة المغلقة، صاح "طايع" عدة مرات:

- "محمد"! "محمد"!

خرج شقيقه من ركن مظلم وأقبل نحونا وفتح البوابة وأدخلنا. كان يحمل بندقية. إذ كان يؤدي في هذه الليلة خدمته في حراسة المعبد. تحدثا معًا وتوجها إلى بيت الحراسة الصغير. أحضر "محمد" دراجته البخارية الزرقاء. استقللنا الدراجة البخارية وخرجنا نحو المعبد.

انضم إلينا أبناء العمومة عند المطعم ومررنا في مجموعة من المركبات، محدثين ضجة، بالمعبد الجنائزي لـ"رمسيس الأكبر" والمعبد الجنائزي لـ"مرنبتاح" وفندق "المرسم". ومررنا بمصلحة الآثار وشرطة الآثار

ومدينة "هابو". انتفخت الجلابيب في ظهور السائقين بفعل الريح المعاكسة الناتجة عن القيادة وأخذت ترفرف. انعطفنا في الصحراء.

اخترق دوي الدراجات البخارية سكون الليلة المتلألئة بالنجوم وتحركت الرمال من خلفنا على هيئة دوامات. أغلق الجميع أضواء مصابيحهم الأمامية. رأيت في ضوء القمر خيالات لأشخاص. ثم سمعت صوت موسيقى وسط ضوضاء المحركات. عندما اقتربت، رأيت الموسيقيين الخمسة الذين عزفوا موسيقى أغانٍ غربية قديمة وغنوا معها.

أوقفنا الدراجات البخارية بجوار السيارات المتوقفة حولنا وجلسنا بجوار من سبقونا إلى هناك. بدت الدائرة الكبيرة مثل حلبة. تبادل الرجال السجائر. كنتُ السيدة الوحيدة بينهم. جلسنا في الرمال واستمعنا إلى الموسيقى التي لمست كل عواطفنا وأشواقنا وجذبتني إلى عالمها. ثم نهض رجلان ووقفا أمام بعضهما وهما يحملان العصي وبدآ في الرقص. تبعت الموسيقى حركات الراقصين وتكيفت معها وسايرتها. شجعناهما بالتصفيق لهما.

رقصة عتيقة. رقصة خطيرة. لعبة جادة. المسألة ليست مسألة فوز أو خسارة. المسألة مسألة حياة وموت. سمعتُ صوت أنفاسهما. إذ كانا يهاجمان بعضهما بعضًا، ويتفاديان بعضهما بعضًا، ويلقيان العصي تجاه بعضهما، ثم يتراجعان مرة أخرى ويلقيان العصي من جديد، ولا يترك أيٌّ منهما العصا من يده أبدًا. ويستديران بعضهما حول بعض، دون أن يتوقف كلٌ منهما عن النظر لخصمه، ثم يواصلان النزال. كان الأمر يبدو في بعض الأحيان كأنهما سيقتلان بعضهما بعضًا ضربًا.

حبست أنفاسي وتجمدت في مكاني. ثم أمسك أحدهما عصاه أمام صدر الآخر وثبَّته بنظرة حادة. ورفع عصاه نحو السماء، نحو النجوم. برز من عينه شعور الانتصار. وبدلًا من أن يقتل خصمه، فقد ألقى عصاه في الرمال بحركةٍ بطيئة.

ثم دعوني للرقص. قاومت ذلك. لكنني شعرت أن الأمر متعلق بجلبابي الأسود. شعرتُ أن الجميع أراد أن يرى هذا الجلباب الأسود يتراقص مرة أخرى في الصحراء. وعندئذ رقصتُ من أجل الجلباب القديم، إكرامًا لعائلة "عبد الرسول" وإكرامًا لـ"الشيخ محمد"، إكرامًا لـ"حسين"، وإكرامًا لـ"توت عنخ آمون" وجميع آلهة مصر. أخذتُ العصا ورقصت. كانت هناك رمال أسفل قدميَّ العاريتين، ومن فوقي ملايين النجوم. أخذتُ أرقص وأرقص.



15
وداع "القرنة"

جلستُ في شرفة المنزل في بلدة "بيتنبرج" واحتسيت القهوة وتطلعتُ إلى الجبال المغطاة دائمًا بالثلوج والجليد. أظن أن ثلاثية جبال "إيجير" و"مونش" و"يونجفراو" البالغ ارتفاعها أربعة آلاف متر قد بدت مثل ثلاثة أهرامات. وضعتُ قدميَّ على درابزين الشرفة وسندتُ رأسي على جدار المنزل. من مكاني هذا، بدت جبالٌ أخرى، لا سيما جبل "نيسين"، مثل الهرم. حيث امتد جبل "نيسين" لمساحة واسعة في المشهد وانتهت قمته بشكلٍ عادي. إنه جبل آلهة حقيقي. يمكنني أن أتخيل أنه كان جبلًا مقدسًا لدى شعوب "السِلت" في زمن عبادة الأوثان، أو أنهم حتى كانوا يعبدونه. يستطيع الناس الموجودون في "بيتنبرج" في الرابع عشر من فبراير من كل عام أن يشاهدوا كيف تغرب الشمس على امتداد الحافة اليمنى للجبل. فيبدو وكأن الشمس تُحرِّك الجبل إلى أسفل. ويصير الأمر في كل مرة مشهدًا رائعًا.

عندما وصل "طايع" إلى سويسرا، ذهبنا إلى جبل "نيسين". أردتُ إسعاده ومفاجأته بالوقوف على هرم يفوق ارتفاعه هرم "خوفو" بألفي متر. مضى قطار مُعلَّق قديم ببطء صاعدًا الجبل. وجدت الأمر رومانسيًا وبه مغامرة، لكن "طايع"، الذي لم يعتد السفر لمسافات مرتفعة هكذا، تشبث بالمقعد الخشبي ولم يجرؤ على أن يلقي نظرةً من النافذة. وفي قمة

الجبل، كان عليَّ أن ألتقط صورة لـ"طايع" وهو فوق الهرم الذي يبلغ ارتفاعه 2394 مترًا، لكنه أراد أن يعود إلى الأسفل على الفور. وعندما وصل إلى أسفل، أراد أن ألتقط له صورةً أمام الهرم الجبلي بكامل حجمه. عندما عاد "طايع" إلى مصر، صار يحمل كلتا الصورتين دائمًا معه ويُريهما لكل من حوله. ويحكي في بعض الأحيان ضاحكًا كيف تغلَّب على مشاعر الخوف المميت في أثناء رحلته بالقطار المُعلَّق.

استدعيتُ ذكريات كثيرة جدًا. عدتُ إلى "القرنة" من جديد بعد أن أقمت لفترة في سويسرا. لقد تغيَّر كل شيء هناك. فعندما مررت مع "طايع" بتمثالي "ممنون"، اللذين تأثرا بفعل العوامل الجوية، متجهين إلى سلسلة جبال البر الغربي، صار من الصعب أن أميِّز معالم المكان الذي تركته خلفي قبل بضعة أشهر. كان "طايع" قد سبق وأن حذرني من ذلك. لكنني لم أستطع أن أُصدِّق أن أغلب المنازل قد تعرضت للهدم. ووسط الأطلال وأكوام الأنقاض، لم يتبقَ سوى مصانع الرخام الأبيض والورش الفنية الخاصة بنسخ النقوش البارزة والتماثيل والجعران، والتي حملت رسومًا لزخارف من المقابر الفرعونية. قال "طايع": "سُمح لهم بأن يظلوا هنا".

وسط هذا الجو من عمليات الهدم، ظل "البيت الألماني" موجودًا كأنه واحة أو بالأحرى حصن. وهو مبنى أبيض اللون، تحيط به أشجار نخيل وسور. إنه معهد الآثار الألماني الذي أسسه عام 1904 عالم الآثار "لودفيج بورشاردت"، الذي اكتشف التمثال النصفي للملكة "نفرتيتي"

وأخذه معه إلى برلين. قيل إنه من المخطط هدم هذا المنزل أيضًا. لكن أحدًا لم يُصدِّق ذلك.

أخذت سيارات النقل المُحمَّلة بأنقاض المنازل تتحرك ذهابًا وإيابًا على الطريق الزراعي وسط حافلات السياح وبسرعتها نفسها. انتقلت الجرافات في كل مكان من ضحية إلى أخرى. عدد الجرافات دائمًا ثلاث جرافات بعضها وراء بعض، ترفع شفراتها بشكل مخيف.

لقد ظلت قرية "لصوص المقابر" مثل شوكة في حلق حكام مصر لوقتٍ طويل. فحتى عندما صار السياح يتوافدون بأعداد غفيرة على "الأقصر" في عهد الملك "فؤاد الأول"، أرادت السلطات أن تقوم بعملية ترتيب وتنظيم هنا. إذ كان كل المتوافدين على زيارة "توت عنخ آمون" يمرون بالضرورة بهذه القرية المسكينة لكنها لم تعد تتلاءم مع المملكة الجديدة. وصار من الضروري إعادة توطين أهلْ "القرنة". فصمم المهندس المعماري "حسن فتحي"، المعروف بـ"تصميماته المعمارية المخصصة للفقراء"، في عام 1946 قريةً نموذجيةً حديثةً على الطراز التقليدي، وبها إضاءة كهربائية ومياه جارية. لقد راودت الرغبة مصلحة الآثار أكثر من الحكومة في إعادة توطين السكان لكي تتمتع مصلحة الآثار بالحرية في إجراء عمليات الحفر والتنقيب. ظلت قرية "حسن فتحي" "القرنة الجديدة" قرية من دون سكان. فقد رفضت العائلات التي عاشت في "القرنة" منذ عهد قديم أن تنتقل إليها. إذ كانت قريتهم تعج بالسياح وأصبح باستطاعتهم تأجير حميرهم. وهناك من يشتري زهرياتهم المصنوعة من المرمر ونسخ النقوش الجدارية والجعرانات، كما لاقت

حرفهم اليدوية رواجًا. لذا أرادت تلك العائلات أن تبقى حيثما كانت. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن باستطاعتهم تربية دجاجاتهم وحمامهم، ناهيك عن الحمير والجواميس، في منازل القرية الجديدة.

لكن حقبة جديدة في السياحة بدأت أيضًا. إذ بُنِيَت المنتجعات السياحية في "الغردقة" و"شرم الشيخ". وصار أغلب السياح لا يأتون إلى هنا إلا بحافلات من أجل قضاء نزهة صاخبة ليومٍ واحد. ويعودون في المساء للجلوس إلى البار على الشاطئ الأزرق عند البحر الأحمر.

وفي القاهرة ظهرت مشاريع جديدة. وصار من الضروري أن يمتلئ البر الغربي بفنادق. لكن لم يسفر هذا الأمر عن شيء. ولذلك نشأت بسرعة البرق قرية "قرنة" جديدة في الصحراء، تبعد بمسافة كيلومترات عن "القرنة" القديمة. وبيعت المنازل بأبخس الأسعار واصطفت بعضها بجوار بعض كأنها مربعات رقعة الشطرنج. بدا كل منزل منها مثل الآخر. وفيها أُعيد توطين سكان منازل "القرنة" القديمة المحفورة في الكهوف، التي يرجع تاريخ بنائها إلى أربعمائة عام. غير أن الحكومة لم تفهم أن بعض هؤلاء السكان لم يكن سعيدًا من مغادرة منزله القديم. "حياة عصرية بدلًا من هذه العشوائيات المبنية عند الجبل!". لكن الأمر لم يكن عملًا خيريًا.

أرادت الحكومة أن تحوِّل "الأقصر" ومجموعة المقابر معها إلى متحف مفتوح ضخم. إذ إنه من المفترض أن يجذب متنزه ضخم ومريح في متحف كهذا ملايين السياح من أرجاء العالم كافة. حيث تعيدهم

"بانوراما ثقافية" لتاريخ معروض على شاشة بانوراميّة يمتد إلى خمسة آلاف عام حيث عالم قدماء المصريين.

إن قرية لصوص المقابر الأسطورية المبنية بالطوب الطيني منذ عهد ملوك قدماء المصريين لا تتلاءم مع هذا المشروع الجديد. فتم هدمها رغم أنها كانت خاضعة للحماية بوصفها جزءًا من التراث الثقافي العالمي لليونسكو في غرب "طيبة". والحجج مختلفة؛ حيث قيل إنها تعوق سبيل بناء متنزه المتحف، أو إنها تُعرِّض المواقع الأثرية للخطر، لأن القرية ليس بها صرف صحي، ولأن المياه، التي كانت تُنقَل يوميًا بالعربات التي تجرها الحمير، تتسرب في الأرض بعد استخدامها وتعرِّض ما تحتويه المقابر من مقتنيات ثمينة لمخاطر. وقد رأت هيئة الآثار المصرية برئاسة "زاهي حواس" أنه ما زالت هناك حتى ألف مقبرة أسفل القرية وأنه يمكن العثور عليها لو تم هدم المنازل.

جلسنا في المساء أمام "العم محمد" في مصنع "الألابستر". فقد تهدم منزله بالفعل ورحلت أسرته بعيدًا. لكنه لم ينم أبدًا في المنزل الجديد في "القرنة" الجديدة.

عن هذا قال:

- لا أستطيع ذلك.

أوضح "طايع" ذلك بقوله:

- ليس لديه مال يكفي لتعيين حارس. ولو ترك مصنعه ليلًا دون إشراف، سيتعرض كل شيء للسرقة.

بينما نام شخص آخر من القرية في حظيرة الماشية بجوار أبقاره وليس بجوار عائلته للسبب نفسه.

عاش العم "نوبي" بالفعل في القرية نفسها مع زوجته الجميلة ووالدته المسنة. وقد قال لي قبل أن ينتقل إليها إنه سيجد في المكان الجديد مساحة مماثلة لمساحة المنزل القديم. وعندما حان وقت الرحيل، لم يحصل سوى على نصف المساحة، ربما كان ينبغي أن يحصل على أربعة منازل. كنت موجودةً هناك عندما تم توزيع المنازل. عمَّت الفوضى في أحد معسكرات المُهجَّرين. لن أنسى وجوه الرجال الحائرة الذين لا يعرفون المنزل الذي سوف يسكنونه مع أسرهم. كما لم يكن الموظفون يعرفون هذا الأمر أيضًا ولذلك أخذوا يحملقون بحيرة كذلك في خطط البناء والقوائم بما فيها من أسماء وأعداد. كانت بعض المنازل تضم أيضًا أثاثًا ودواليب غرف نوم بها مرايا ومجموعات من الوسادات وطاولات طعام، بالإضافة إلى نساء يحرسن كل شيء لكي لا تتم سرقة أي شيء.

كان الجو السائد بين المجموعة الموجودة أمام المصنع كئيبًا. وأخذ الرجال يتحدثون بصوتٍ منخفض. فقبل بضع ساعات، تعرض صبي صغير السن للدهس من إحدى سيارات النقل التي كانت تزيح أنقاض المنازل. منزل هذا الصبي هو أحد المنازل الواقعة عند منحدر السلسلة الجبلية أعلى مصنع "محمد". وكان الصبي يركض إلى أسفل وسط الرمال لكي يلعب كرة القدم مع أصدقائه في الأرض المستوية. وعند عبوره الشارع المؤدي إلى وادي الملوك، اصطدم بإحدى سيارات النقل المحملة بالأنقاض هذه.

مع غروب الشمس، صعدت النساء الندابات المكتسيات باللون الأسود على التل. رأيتهن من مسافة بعيدة في الشارع، يأتين من كل النواحي، وازداد عددهن أكثر فأكثر. لم يكن الأمر مجرد موكب جنازة أحد الأطفال، بل كان أكثر من ذلك. جلست النساء أمام منزل أسرة الصبي وبدأن في الندب والبكاء، حتى أن نباح الكلاب قد توقف.

بعد بضعة أيام، أُلقِي القبض على شخص ألماني بالقرب من تمثالي "ممنون"، إذ قيل إنه تم العثور على تحف أثرية أصلية ذات قيمة نفيسة في سيارته. وفي المساء، صارت هذه الحكاية الموضوع الرئيس للحديث في كل مكان. كان الناس في "القرنة" يعرفون هذا الرجل، فقد ظهر هنا مرات كثيرة. أوضح لي "طايع" الأمر بقوله إن هذا الرجل واحدٌ ممن جاءوا إلى البحر الأحمر على متن يخت خاص، وإنه اشترى من هناك تحفًا أثرية أصلية من جميع أرجاء مصر وجمعها من أجل تهريبها إلى أوروبا عن طريق البحر. كما كان الناس في "القرنة" يعرفون من الذي باع للرجل هذه التحف الأثرية. إذ قال "طايع":

- يخشى البائع الآن أن يذكر الرجل الألماني اسمه.

في صباح اليوم التالي، سافرنا إلى "الأقصر" من أجل شراء الصحف. كانت الصحف تمتلئ بهذه الحكاية. وقد عرفت في تلك الأثناء أيضًا من هو ابن العم هذا. لقد شعر ابن العم، الذي سبق وأن باع للرجل الألماني بضعة "أشياء صغيرة"، أكثر فأكثر بالخوف وتوقف عن تناول الطعام. وقال إنه لم يُغمِض جفنيه طوال الليل وإنه انتظر أن تأتي الشرطة في أي لحظة وتظاهر كأنه لاذ بالفرار فعلًا. لكن لم يحدث أي شيء حتى سرت إحدى

الشائعات في فترة ما بعد الظهر وتحوَّلت إلى يقين راسخ. إذ قيل إنه تم إطلاق سراح الرجل الألماني وإن جميع التحف الأثرية مزيفة.

إلا أن هذا الأمر لم يعجب ابن العم، إذ قال إنه لم يبع تحفًا مزيفة! وإنه لن يخدع أحدًا أبدًا طوال حياته ولن يبيع لأحد نسخًا غير أصلية. وأضاف أنه لم يعطِ الرجل الألماني إلا بضاعة أصلية. ورغم ذلك، فقد تعرض لمضايقات ساخرة من الآخرين بسبب "تحفه الأثرية المزيفة". خمَّن "طايع" أن الرجل الألماني دفع رشوة وتم إطلاق سراحه لهذا السبب.

- إن التجار هم من يحققون ثروات طائلة. ولسنا نحن. والتجار يعرفون أننا نخاف من أن يفشوا سرنا ويذكروا أسماءنا. لأن أحدًا لن يطلق سراحنا من السجن بهذه السرعة.

لقد ظل واحدًا ممن يُقلِّدون النسخ الأثرية قابعًا في السجن لمدة عام، لأن الضباط زعموا أن نسخه المقلدة تعد تحفًا أثرية أصلية، إذ تم تقليدها بدرجة عالية من الدقة. ولكل شخص طريقته الخاصة في "جعل القطع المقلدة تبدو عتيقة كالأصلية". إذ يضعها بعضهم لمدة ما في روث الأبقار أو فضلات الدجاج. أو يعطون نسخهم المقلدة من الجعرانات لأحد الحمير لكي يفترسها، وينتظرون حتى يُخرجها من مؤخرته بصورة تجعلها قطعًا أثرية.



غابت الشمس في المنطقة الغربية. تجولت ببصري أعلى بقايا قرية "لصوص المقابر" القديمة. جعل هذا الأمر مزاجي كئيبًا. شعرتُ أنها واحدة من المرات الأخيرة التي سأجلس فيها هنا. ليس فقط لأن المنازل قد تهدمت. ولكن بسببي أنا و"طايع". فقد جئنا من عالمين مختلفين تمامًا. ولم نستطع أن نحيا معًا. لم نستطع أن نفعل هذا في مصر ولم نستطع هذا أيضًا في سويسرا. فعندما سبق وجاء "طايع" إلى سويسرا، شعر بافتقاد عائلته الكبيرة، أي أبناء عمومته الكثيرين الذين يقضي معهم اليوم بأكمله وهو يحتسي الشاي أو القهوة بينما يُدخِّن ويُطلق الدعابات. كنتُ قد كتبت في كتابي أنني اضطررت أن أهتم بأمر معرضي الفني في سويسرا، فلم أستطع ببساطة أن أتفرغ لـ"طايع" تمامًا. كان "طايع" في سويسرا مثل ذئب أسير محبوس. فقد منعته الجبال، حتى وإن بدت مثل أهرامات، من أن يلقي نظرةً على الكون الفسيح. رأيتُ عينيً "طايع" عندما كان ينظر في "بيتنبرج" من النافذة ويُحدِّق عبر الضباب الكثيف بعيدًا.

لقد جئت إلى مصر بسبب الآلهة، بسبب أساطيرهم وفنهم وصورهم. لكن الآلهة لم تأخذني من يدي وتذهب بي إلى العالم الآخر. بل على العكس من ذلك، فقد وجدتُ نفسي من يوم إلى يومٍ آخر وسط لصوص المقابر الذين يعيشون وسط عالم قدماء المصريين لكن هنا في الحياة الدنيا، وليس في العالم الآخر. صِرت جزءًا من عائلة "عبد الرسول" وتزوجت بآخر أحفاد عائلة لصوص المقابر أي "ملوك وادي الملوك".

فقدتْ قرية لصوص المقابر، التي أضاءها غروب الشمس، لونها شيئًا فشيئًا وصارت باهتة. وسرعان ما ستصبح أسطورة. شكرتُ الآلهة في

صمت على أنني ما زلت منغمسة في "عالم الموتى" الذي يسكنه الناس وتملؤه الحيوية. وأنني تمكنت من أن أجلس في الليل أسفل النجوم مع لصوص المقابر بجوار النار وكان من حقي أن أصغي إلى حكاياتهم. حتى وإن لم أفهم كل شيء دائمًا.

وفي هذا المساء أيضًا، بدأ "طايع" وأبناء العمومة يحكون عن الماضي. عندما كانوا لا يزالون أطفالًا بينما يُطلق آباؤهم وأجدادهم النار من بنادقهم ومسدساتهم حولهم في كل مناسبة ويلقون التحية بعضهم على بعض بوابل من الرصاص مثلما يفعلون اليوم بأبواق سياراتهم. روى "طايع" حكاية باللغة العربية وضحك الجميع حتى دمعت أعينهم. أردتُ أنا أيضًا أن أعرف الحكاية. فكرر لي "طايع" حديثه باللغة الإنجليزية وقال إن والده أطلق من مسدسه رصاصات كثيفة في الهواء في أحد الاحتفالات العائلية الكبرى. فأراد أحد الأعمام أن ينتزع منه السلاح، ولذلك أمسك خصر والد "طايع" بذراعه اليسرى وحاول بالذراع الأخرى أن يقترب من يد والد "طايع" المرفوعة عاليًا والتي كانت تحمل السلاح الناري. وبهذا أخذا يدوران في دائرة وبدا الأمر وكأنهما يرقصان معًا. مثَّل "طايع" و"نوبي" المشهد أمامي الذي بدا فعلًا كأنه رقصة.

كما حكوا لي كيف كان الحال عندما لم يكن هناك أسوار من الأسلاك الشائكة حول المعابد الجنائزية. وكيف كانوا يجدون مرارًا وتكرارًا جعرانًا في الرمال في أثناء لعب كرة القدم. أو كيف تسلقوا بعد سقوط الأمطار على التلال وبحثوا عن تماثيل صغيرة. وأنهم كانوا يسلمون ما يعثرون عليه لشرطة الآثار من قبيل الأمانة، والتي لم تكن تعطيهم أي

شيء في مقابل ذلك ولا حتى بقشيشًا. فصاروا فيما بعد يحتفظون لأنفسهم بما يعثرون عليه ويبيعونه للسياح.

سألوني:

- هل هذه سرقة؟

وأضافوا:

- ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ في هذا الموقف؟

- لا، هذه ليست سرقة. ربما كنتُ سأفعل الأمر نفسه أيضًا.

قلتها وأنا أنظر في أعينهم الداكنة الحائرة.

𓂀

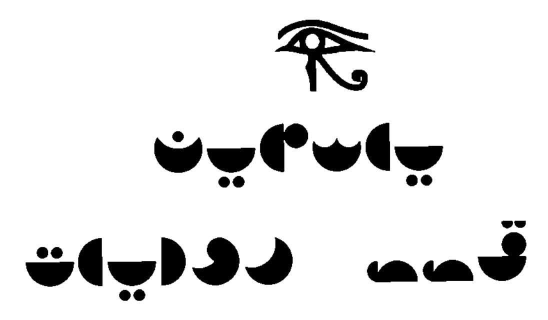
جلستُ في شرفة منزلي ونظرتُ إلى جبال "يونجفراو" و"مونش" و"إيجير". في السابق، كان الناس يعبدون تلك الجبال كأنها آلهة. وربما كانت تلك الجبال الثلاثة تعادل في الأساطير المصرية الآلهة "إيزيس" و"أوزوريس" و"سِت". إن جبل "يونجفراو"، الذي يرى فيه كثيرون صورة "السيدة العذراء وطفلها"، يجسد "إيزيس" أم الآلهة التي أعطت ثديها للطفل "حورس" الجالس في حجرها. وجبل "مونش" هو "أوزوريس" الذي كان زوجًا لـ"إيزيس" وأبًا لـ"حورس". أما جبل "إيجير" فهو الشقيق الشرير "سِت" الذي قتل شقيقه "أوزوريس". الإله

"سِت" القوي هو إله القوى الشريرة؛ أي الجفاف والطقس السيئ والعواصف القادمة من الصحراء، ويُعرف باسم "رب العواصف الرعدية".

إن الجدار الشمالي الرأسي لجبل "إيجير" يبدو مخيفًا وقاتمًا. ما الذي يغري شخصًا ما لتسلقه؟ حب المغامرة الخالص؟ إن المخاطرة الناتجة عن هذا الأمر كبيرة جدًا. أظن أن السبب في ذلك يكمن في الضرورة الداخلية لقبول تحدٍ ما. وهذا ما مررت به أنا أيضًا. فقد تحدتني مصر، وأنا لبيتُ هذا النداء.

نظرتُ إلى الجانب الآخر حيث جبال "إيجير" و"مونش" و"يونجفراو" التي تتوهج الآن في الشفق كما لو أنها مضاءة من الداخل. فجأة أدركت لماذا كنت على يقين وأنا في حديقة فندق "المرسم" أنني سأتزوج "طايع" وأن حياتي سوف تأخذ منعطفًا جديدًا تمامًا.

لقد عُرِضَت عليَّ هدية وأدركت أنه لا يجوز لي رفضها. أشكر الآلهة التي أتت بي إلى قرية "لصوص المقابر"، قبل أن تصبح هي والأرض سواء، والتي جعلتني أدلي بدلوي في تاريخ "ملوك وادي الملوك".





الفهرس

#كتب_مختلفة #سويسرا

إذا ما كانت الكثير من الروايات قد تناولت موضوع سرقة الآثار المصرية ونهبها وتهريبها، فإن المدهش والجديد في هذا النص الإنساني أنه جعلها في خلفية الحدث بحرفية بالغة، في حين تصدر المشهد صراع آخر بين الثقافات على أرض الحضارة، مصر، ببقعة صغيرة بعيدة أقصى الجنوب، ومشاهد رومانسية وأحاسيس إنسانية متباينة من خلال سرد سلس أقرب لمذكرات شخصية، أو يوميات امرأة قادتها المغامرة إلى مكان غريب عليها حتى صارت جزءًا منه دون أن تدري، مدفوعة بجرأة ونظرة مختلفة للحياة. هذه رواية تنطوي على قصة حقيقية، ربما تداخل فيها خيال الكاتبة مع أحداث مرت بها لكنها رأتها أولًا بقلبها ثم بمشاعرها وعندما تغلغلت بوجدانها، كتبت.
تنتقي من بين عشرات الحكايات ما يجذب القارئ، ما يحفز تفكيره حول اختلاف الثقافات والحياة في صعيد مصر، عن لعنة قدماء المصريين والتنقيب عن الآثار، تتناول جانبًا غامضًا وجديدًا من حياة نسل لعائلة شهيرة في هذه التجارة وقت أن كان مسموحًا بها، وما طرأ على مجتمعها من تغيرات جذرية بعد تجريمها، عن تلك الشعرة الرقيقة الفاصلة بين الحفاظ على كنوز ومتعة اكتشافها وبين قوانين جامدة ولوائح صارمة تحرم وتمنع وربما تمنح بعض السلطة لمن لا يقدر قيمة كنوز مثل الذي اكتشفها وعرف طريقها ودروبها وحافظ عليها وعاش من خيرها لسنوات طويلة قبل أن تطوقه ذراع القانون الطويلة.

أشرف العشماوي





ولدت في مدينة برن، وهي مصورة صحفية، وكاتبة، وفنانة. تعلمت الرسم والتصوير على يد زوج أمها الرسام "بول شميدت" والذي ما زالت تحتفظ بإرثه، وتعد رواية السيرة الذاتية "لصوص المقابر" أهم مشروعاتها الثقافية والأدبية.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg







تصميم الغلاف
بلال محمد

t.me/yasmeenbook